من أسرار البلاغة في القرآن

تأليف
دكتور
محمود السيد شيخون
رئيس قسم اللغة العربية وآدابها
ووكيل كلية الدراسات الإسلامية والعربية
للبنين ــ بالقاهرة
جامعة الأزهر

الطبعة الأولى
١٤٠٤ هـ ــ ١٩٨٤ م

الناشر
مكتبة الكليات الأزهرية
حسين محمد امبابي وأخوه محمد
٩ ش الصنادقية - الأزهر - القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

تقـــديم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه أجمعين ٠

أما بعـد

فهذه دراسات حول شــواهد البــلاغة فى القــرآن ، أردت أن أوضح من خلالها ما تنطوى عليه هذه الشواهد من روعة البيان واعجازه ٠

ولقد دفعنى الى القيام بها أمران :

أولهما : الرغبــة فى التعرف على ما تشــتمل عليــه هذه الشواهد من اللطائف والأسرار ، كى أمتع بها الخاطر والنفس ، وأسعد بها الفكر والخيال ٠

ثانيهما : محاولة ربط الدرس البلاغى بالقرآن ، حتى يؤتى ثماره المرجوة ، بالكشف عن أسرار الاعجاز فى كتاب الله عز وجل ٠

ولقد أعاننى على هذه الدراسات ما وجدته فى بعض كتب التفسير وعلوم القرآن ، من اشارات وتلميحات الى ما تضمنته شــواهد البـــلاغة فى القرآن من لطـــائف وأسرار ٠

ولقد سلكت فى هذه الدراسات مسلكا ، توخيت فيه اليسر والسهولة ، فقمت باختيار بعض الألوان البلاغية ، ووضحتها بإيراد تعريفاتها عند أهل البلاغة والبيان ، ثم أوردت لكل لون من هذه الألوان طائفة من الشواهد القرآنية ، ثم كشفت النقاب عما تنطوى عليه هذه الشواهد من اللطائف والأسرار ، وقد وضعت هذه الدراسات تحت عنوان :

(من أسرار البلاغة فى القرآن) ٠

ثم قسمتها الى اثنى عشر فصلا ٠

تحدثت فى الفصل الأول عن (الالتفات) فوضحته بذكر تعريفه ، وبينت منزلته من علوم البلاغة ، وسبب تسميته بهذا الاسم ، ثم أوردت له طائفة من الشواهد القرآنية ، ثم كشفت النقاب عما تحويه هذه الشواهد من عجائب الأسرار ٠

وفى الفصل الثانى تحدثت عن (الاعتراض) ، فوضحته أيضا بذكر تعريفه ، ثم أوردت بعض شواهده فى القرآن ، موضحا ما فيها من الدقائق واللطائف ٠

وفى الفصل الثالث تحدثت عن الحذف فى بعض الكلمات والجمل القرآنية ، موضحا أسرار هذا الحذف وروائعه ٠

وفى الفصل الرابع ، تحدثت عن التوكيد ، فأمطت اللثام عن أهميته ، وكشفت النقاب عما تنطوى عليه شواهده فى القرآن من الحسن والجمال ، والحكم والأسرار ٠

وفى الفصل الخامس تحدثت عن ألوان المعارف فى القرآن ، موضحا ما تشتمل عليه شواهدها القرآنية من أسرار ولطائف ، تكسب المعنى قوة وحسن بيان ٠

وفى الفصل السادس تحدثت عن وضع المظهر موضع المضمر ، موضحا ما تتضمنه شواهده فى القرآن من حكم وأسرار ٠

وفى الفصل السابع تحدثت عن (ائتلاف اللفظ مع المعنى فى االقرآن) ، موضحا ما فيه من عجائب الأسرار٠

وفى الفصل الثامن تحدثت عن (الاستدراج) ، فوضحته بايراد تعريفه عند أهل البلاغة والبيان ، ثم أزحت الستار عن منزلته فى البيان ، ثم وضحت ما فى شواهده القرآنية من الاتقان والاحكام ، وعجائب الأسرار ٠

وفى الفصل التاسع تحدثت عن (التمكين) فى القرآن موضحا ما فيه من الابداع والاعجاز ، الذى يعجز عن ادراك شأوه فرسان البلاغة وأساطين البيان ٠

وفى الفصل العاشر تحدثت عن (التخلص) فى القرآن ، فحددت مفهومه ، بذكر تعريفه عند أهل البيان ، ثم أوردت طائفة من تخلصات القرآن ، مبينا ما فيها من الحسن والجمال ، واللطائف والأسرار ٠

وفى الفصل الحادى عشر تحدثت عن فواتح السور وخواتمها فى القرآن ، مبينا ما فيها من التأنق وحسن البيان ، وما تنطوى عليه من عجائب الأسرار ٠

وفى الفصل الثانى عشر تحـــدثت عن (الجــدل) فى القرآن ، مبينا ما فيــه من حسن البيــان ، وقوة الاقنــاع ، وشدة التأثير ٠

الدكتــور
محمود السيد شيخون
أستاذ البلاغة والنقد المساعد فى
كلية الدراسات الاسلامية والعربية
بجامعة الأزهر بالقاهرة
والأستاذ المشارك فى قسم الدراسات
العليــا بالجـامعة الاســلامية
بالمدينــة المنــورة

الفصل الأول

الالتفـــات

هو عند أهل البلاغة والبيان :

(التعبير عن معنى من المعانى بطريق من الطـــرق الثلاثة : التكلم والخطاب والغيبة بعد التعبير عنه بطريق آخر منها (١))

وهو من أجل عـــلوم البـــلاغة ، وهو أمير جنـــودها ، والواسطة فى قلائدها وعقـــودها ، وهو فن ملاكه الذوق السليم ، والوجدان الصادق ٠

وســـمى بذلك (٢) :

لأنه مأخوذ من التفات الانسان عن يمينه وشـــماله ، فهو يقبل بوجهه تارة كذا وتارة كذا ، وكذلك يكون هـــذا النوع من الـــكلام خاصة ، لأنه ينتقل فيـــه من صيغة الى صيغة ، ومن خطاب الى غيبة ، ومن غيبة الى خطاب الى غير ذلك من أنواع الالتفات ٠

ويســـمى ايضـــا :

(شـــجاعة العربيـــة) ، وانمـــا سمى بذلك ، لأن الشجاعة هى الاقدام ، وذاك أن الرجل الشجاع ، يركب ما لا يستطيعه غـــيره ، ويتورد ، ما لا يتورده ســـواه ،

---

(١) انظر (الايضاح) ص ٥٤ ــ و (عروس الأفـــراح ص ٤٦٥) ج ١ من شروح التلخيص ٠

(٢) انظر (المثل السائر) ج ٢ ص ١٧٠ ــ و (والطـــراز) ج ٢ ص ١٣١ ــ و (أنوار الربيع) ج ١ ص ٣٦٣ ٠

وكذلك هذا الالتفات فى الكلام ، فان اللغة العربية تختص به دون غيرها من اللغات (٣) ·

صورة : وله فى الأساليب العربية ست صور :

الصورة الأولى : الانتقال من التكلم الى الخطاب ·

الصورة الثانية : الانتقال من التكلم الى الغيبة ·

الصورة الثالثة : الانتقال من الخطاب الى التكلم ·

الصورة الرابعة : الانتقال من الخطاب الى الغيبة ·

الصورة الخامسة : الانتقال من الغيبة الى التكلم ·

الصورة السادسة : الانتقال من الغيبة الى الخطاب·

وهذه الصور توجد فى القـرآن الـكريم ، ما عـدا الصورة الثالثـة ، وهى الانتقال من الخطـاب الى التكلم، فلم اعثر لها على شاهد فى القرآن الكريم ·

وقد مثل لها بعضهم (٤) بقوله تعالى : (فاقض ما أنت قاض انما تقضى هذه الحياة الدنيا · انا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا من السحر والله خير وأبقى) (٥)·

---

(٣) انظر (المثل السائر) جـ ٢ ص ١٧١ ·

(٤) انظر (الاتقان) جـ ٣ ص ٢٩٠ ·

(٥) طه / ٧٢ ، ٧٣ ·

وهذا المثال لايصح ، لأن شرط الالتفات أن يكون المراد به واحــدا ٠

وقال الزركشي : ويمكن أن يمثل لهذه الصورة بقـوله تعــالى : (قـل الله أسرع مــكرا ان رسـلنا يكتبــون ما تمكرون) (٦) ، على أنه سبحانه نزل نفســه منزلة المخاطب (٧) ٠

وهــذا تكلف وتعسف ، لا يخفى عــلى من له ذوق ، ولا أدرى كيف وقع فيه الزركشي ؟

(٦) يونس / ٢١ ٠ (٧) انظر (البرهان) جـ ٣ ص ٣١٧٠

من أسرار الالتفات فى القرآن

ان من ينعم النظم فى شواهد الالتفات فى القـرآن ، يتضح له أنها تشتمل على كثير من الأسرار البلاغيـة ، واللطـائف الأدبية ، التى تهز العـواطف ، وتحـرك الأحاسيس والمشاعر ·

ومن هذه الشواهد قوله تعـالى حـكاية عن حبيب النجـار : (وما لى لا أعبـد الذى فطرنى واليـه ترجعون) (١) ·

فقد التفت من التكلم فى قوله : (وما لى لا أعبد الذى فطرنى) الى الخطاب فى قوله : (واليه ترجعون) ، لـكى يخرج الكلام فى معرض مناصحته لنفسه ، وهو يريد نصح قومه ، تلطفا واعلاما بانه يريده لنفسه ، ثم التفت اليهم ، لكونه فى مقام تخويفهم ، ودعوتهم الى الله وأيضا فـان قومه ، لما أنكروا عليه عبـادته لله ، أخرج الكلام معهم بحسب حالهم ، فاحتج عليهم بانه يقبح منه الا يعبد فاطره، ومبدعه ، ثم حذرهم بقوله : (واليه ترجعون) (٢) ·

ومنها قوله تعالى : (انا أعطيناك الكوثر · فصـل لربك وانحر) (٣) ·

فقد التفت من التكلم فى قوله :(انا أعطيناك الكوثر) الى الغيبة فى قـوله : (فصـل لربك وانحـر) ، تأكيدا

---

(١) يس / ٢٢ ·
(٢) انظر (الكشـاف) جـ ٣ ص ٣١٩ – (والبرهـان) جـ ٣ ص ٣١٥ ·
(٣) الكوثر / ١ ، ٢ ·

لترغيبه صلى الله عليه وسلم فى أداء ما أمر به على الوجه الأكمل (٤) ٠

ومنها قوله تعالى : (حم ، والكتاب المبين ، انا أنزلناه فى ليلة مباركة انا كنا منذرين ٠ فيها يفرق كل أمر حكيم ٠ أمرا من عندنا انا كنا مرسلين ٠ رحمة من ربك انه هو السميع العليم) (٥) ٠

فقد التفت القرآن من التكلم الى الغيبة ، ايذانا بأن الربوبية ، تقتضى الرحمة على المربوبين ٠ (٦)

ومنها قوله تعالى : (يأيها الناس انى رسول الله اليكم جميعا الذى له ملك السموات والأرض لا اله الا هو يحيى ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبى الأمى الذى يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون) (٧) ٠

فقد التفت من التكلم فى قوله : (انى رسول الله اليكم) الى الغيبة فى قوله : (فآمنوا بالله ورسوله) ، لدفع التهمة عن نفسه بالعصبية لها ، ولتنبيههم على استحقاقة الاتباع بما اتصف به من الصفات المذكورة ، والخصائص المتلوة ٠ (٨)

ومنها قوله تعالى : (هو الذى يسيركم فى البر والبحر حتى اذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة

---

(٤) انظر (روح المعانى) جـ ٣٠ ص ٢٤٦ ٠

(٥) الدخان / ١ ـ ٥ ٠

(٦) انظر (غرائب القرآن) جـ ٢٥ ص ٦٦ ـ و (تفسير البحر المحيط) جـ ٨ ص ٣٣ ٠

(٧) الأعراف / ١٥٨ ٠

(٨) انظر (المثل السائر) جـ ٢ ص ١٨٣ ـ و (الاتقان جـ ٣ ص ٢٩٠ ٠

وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجـــاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعـوا الله مخلصين له الـــدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين) (٩) ٠

التفت القرآن من الخطــاب فى (كنتم الى الغيبـــة فى (وجرين بهم) ، لأن الخطـــاب أولا مع النـــاس مؤمنهم وكافرهم ، بدليل قوله :

(هو الذى يسيركم فى البر والبحر) ، فلو قـــال : (وجرين بكم) للزم الذم للجميــــــع ، فالتفت عن الأول، للاشارة الى أن الاختصاص بهؤلاء الذين شأنهم ما ذكره عنهم فى آخر الآية ، فعدل عن الخطاب العـــام الى الذم الخـــاص ببعضهم ، وهم الموصــــوفون بمـــا أخـــبر به عنهم ٠ (١٠)

وقيل ان سر الالتفات فى الآية الكريمـــة ، أنهم وقت الركوب حضروا ، لأنهم خافوا الهلاك ، وغلبه الريـــاح ، فخاطبهم خطاب الحاضرين ، ثم لما جرت الرياح بما تشتهى السفن ، وأمنوا الهـــلاك ، لم يبق حضورهم ، كمـــا كان ، على عادة الانسان أنه اذا أمن غاب قلبه عن ربه ، فلمـــا غابوا ذكرهم الله بصيغة الغيبة ٠ (١١)

ويرى الزمخشرى أن سر الالتفات فى الآية الكريمة ، هو المبالغة حيث قال : (فان قلت : ما فائدة صرف الكلام عن الخطاب الى الغيبـــة ؟ قلت : المبالغـــة ، كأنه يذكـــر

---

(٩) يونس / ٢٢ ٠
(١٠) انظر (البرهان) ج ٣ ص ٣١٨ ٠
(١١) انظر (الاتقان) ج ٣ ص ٢٩١ ٠

لغيرهم حالهم ، ليعجبهم منها ، ويستدعى منهم الانــكار والتقبيح) (١٢) ٠

ويرى الامام فخر الدين الرازى أن سر الالتفــات فى الآية الكريمة ، هو المقت والتبعيــد والطــرد ، حيث قال : (الانتقال من مقام الخطاب الى مقام الغيبة فى هذه الآية دليل المقت والتبعيد والطرد ، وهو اللائق بحــال هؤلاء ، لأن من كان صفتــه أن يقــابل احســان الله تعــالى اليه بالكفران ، كان اللائق به ما ذكرناه) ٠ (١٣)

ومنها قوله تعالى : (ان هذه أمتــكم أمة واحــدة وأنا ربكم فاعبــدون ٠ وتقطعوا أمرهم بينهم كل الينــا راجعــون) ٠ (١٤) ٠

فقد التفت من الخطــاب الى الغيبــة لأنه كأنه ينعى عليهم ما أفسدوه من أمر دينهم الى قوم آخرين ، ويقبح عندهم ما فعلوه ، ويوبخهم قائلا : ألا ترون الى عظيــم ما ارتكب هؤلاء فى دين الله ، جعلوا أمر دينهم فيما بينهم قطعا ، كما يتوزع الجماعة الشىء ، لهذا نصيب ، ولهــذا نصيب ، وذلك تمثيل لاختــلافهم فيه ، وتبــاينهم ، ثم توعدهم بأن هؤلاء الفرق المختلفة ، اليه يرجعون ، فهــو يجازيهم على ما فعلوا (١٥) ٠

---

(١٢) انظر (الكشاف) ج ٢ ص ١٣١ ٠

(١٣) انظر (التفسير الكبير) ج ١٧ ص ٦٨ ٠

(١٤) الأنبياء / ٩٢ ، ٩٣ ٠

(١٥) انظر (المثل السائر) ج ٣ ص ١٨٢ ٠

ومنها قوله تعالى : (والله الذى أرسل الرياح فتثير سحابا فسقناه الى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها كذلك النشور) (١٦) ٠

فقد التفت القرآن من الغيبة فى قوله : (والله الذى أرسل الرياح) الى التكلم فى قوله : (فسقناه) و (فأحيينا) لأنه لما كان سوق السحاب الى البلد احياء للأرض بعد موتها بالمطر دالا على القدرة الباهرة ، والآية العظيمة التى لا يقدر عليها غيره ، عدل عن لفظ الغيبة الى التكلم ، لأنه أدخل فى الاختصاص ، وأدل عليه ، وأفخم (١٧) ٠

ومنها قوله تعالى : (وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى) (١٨) ٠

انتقل القرآن من لفظ الغيبة فى قوله : (وأنزل من السماء ماء) الى لفظ المتكلم المطاع فى قوله : (فأخرجنا) للايذان بأنه مطاع ، تنقاد الأشياء المختلفة لأمره ، وتذعن الأجناس المتفاوته لمشيئته ، ولا يمتنع شىء على ارادته (١٩) ٠

ومنها قوله تعالى : (ثم استوى الى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا

---

(١٦) فاطر / ٩ ٠

(١٧) انظر (الكشاف) ج ٣ ص ٣٠٢ - و (البرهان ج ٣ ص ٣١٩ ، ٣٢٠ ٠

(١٨) طه / ٥٣ ٠

(١٩) انظر (التفسير الكبير) ج ٢٢ ص ٦٨ ٠

طائعين . فقضاهن سبع سموات فى يومين وأوحى فى كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ذلك تقدير العزيز العليم) (٢٠) .

عدل القرآن عن الغيبة فى قوله : (ثم ستوى) ، وقوله: (فقضاهن) ، وقوله : (وأوحى) الى التكلم فى قوله : (وزينا) ، لأن طائفة من الناس غير المتشرعين ، يعتقدون أن النجوم ليست فى سماء الدنيا ، وأنها ليست حفظا ، ولا رجوما ، فعدل عن الغيبة الى التكلم ، للاهتمام والاخبار عن نفسه ، بأنه جعل الكواكب زينة الدنيا ، وحفظا ، تكذيبا للفرقة المكذبة المعتقدة بطلانه (٢١) .

ومنها قوله تعالى : (وقالوا اتخذا لرحمن ولدا . لقد جئتم شيئا ادا (٢٢ .

انتقل القرآن من الغيبة فى (قالوا) الى الخطاب فى (جئتم) ، للدلالة على أن من قال مثل قولهم ، ينبغى أن يكون موبخا عليه ، منكرا عليه قوله ، كأنه يخاطب به قوما حاضرين بين يديه (٢٣) .

ويرى الزمخشرى أن سر الالتفات فى الآية الكريمة ، هو زيادة التسجيل عليهم بالجراءة على الله ، والتعرض لسخطه ، والتنبيه على عظم ما قالوا (٢٤) .

---

(٢٠) فصلت / ١١ ، ١٢ .

(٢١) انظر (المثل السائر) ج ٢ ص ١٧٦ ، ١٧٧ – و (روح المعانى) ج ٢٤ ص ٩٢ .

(٢٢ مريم / ٨٨ ، ٨٩ .

(٢٣) انظر (البرهان) ج ٣ ص ٣٢٣ .

(٢٤) انظر (الكشاف) ج ٢ ص ٥٢٦ .

وتابعه فى رأيه هذا ضياء الدين بن الأثير ،وأبو حيان الأندلسى (٢٥) ٠

ومنها قوله تعالى (يا أيها النبى انا أحللنا لك أزواجك اللاتى آتيت أجورهن وما ملكت يمينك مما أفاء الله عليك وبنات عمك وبنات عماتك وبنات خالك وبنات خالاتك اللاتى هاجرن معك وامرأة مؤمنة ان وهبت نفسها للنبى ان أراد النبى أن يستنكحها خالصة لك من دون المؤمنين قد علمنا ما فرضنا عليهم فى أزواجهم وما ملكت ايمانهم لكيلا يكون عليك حرج وكان الله غفورا رحيما) (٢٦) ٠

فى قوله : (ان وهبت نفسها للنبى ان أراد النبى) عدل القرآن عن الخطاب الى الغيبة ، ثم رجع الى الخطاب، للايذان ، بأنه مما خص به ، وأوثر ، ومجيئه على لفظ (النبى) ، للدلالة على أن الاختصاص تكرمة له ، لأجل النبوة ، وتكريره تفخيم له ، وتقرير لاستحقاقه الكرامة لنبوته (٢٧) ٠

ومنها قوله تعالى : (ولو أنهم اذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيما) (٢٨)٠

---

(٢٥) انظر (المثل السائر) جـ ٢ ص ١٧٥ - و (تفسير البحر المحيط) جـ ٦ ص ٢١٨ ٠

(٢٦) الأحزاب /٥٠ ٠

(٢٧) انظر (روح المعانى) جـ ٢٣ ص ٥٦ ٠

(٢٨) النساء / ٦٤ ٠

انتقل القرآن من الخطاب فى قوله : (جاءوك) الى الغيبة فى قوله : (واستغفر لهم الرسول) ، تفخيما لشأن الرسول صلى الله عليه وسلم ، وتعظيما لاستغفاره ، وتنبيها على أن شفاعة من اسمه الرسول من الله بمكان ، وعلى أن هذا الوصف الشريف ، وهو ارسال الله اياه موجب لطاعته ، وعلى أنه مندرج فى عموم قوله : (وما أرسلنا من رسول الا ليطاع باذن الله) (٢٩) ٠

ومنها قوله تعالى : (وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون) (٣٠) ٠

انتقل القرآن من الخطاب الى الغيبة ، للمبالغة فى المدح ٠

قال الزمخشرى : (وقوله تعالى - فأولئك هم المضعفون - التفات حسن ، كأنه قال لملائكته ، وخواص خلقه : فأولئك الذين يريدون وجه الله بصدقاتهم ، هم المضعفون ، فهو أمدح من أن يقول : - فأنتم المضعفون -) (٣١) ٠

وتابعه فيما ذهب اليه الألوسى - رحمه الله - (٣٢) ٠

---

(٢٩) انظر (تفسير البحر المحيط) ج ٣ ص ٢٨٣ - و (التفسير الكبير) ج ١ ص ١٦٢ ٠

(٣٠) الروم / ٣٩ ٠

(٣١) انظر (الكشاف) ج ٣ ص ٢٢٤ ٠

(٣٢) انظر (روح المعانى) ج ٢١ ص ٤١ ٠

ومنها قوله تعالى : (انا فتحنا لك فتحا مبينا · ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطا مستقيما · وينصرك الله نصرا عزيزا) (٣٣) ·

انتقل القرآن من التكلم فى قوله : (انا فتحنا لك فتحا مبينا) الى الغيبة فى قوله : (ليغفر لك الله) ، تعليقا لهذه المغفرة التامة باسمه المتضمن لسائر أسمائه الحسنى، ولهذا علق به النصر ، فقال : (وينصرك الله نصرا عزيزا) (٣٤) ·

ومنها قوله تعالى : (الحمد لله رب العالمين · الرحمن الرحيم · مالك يوم الدين · اياك نعبد واياك نستعين · اهدنا الصراط المستقيم · صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين) (٣٥) ·

انتقل القرآن من الغيبة فى قوله : (الحمد لله رب العالمين · الرحمن الرحيم · مالك يوم الدين) الى الخطاب فى قوله : (اياك نعبد واياك نستعين) ، لأن العبد اذا افتتح حمد مولاه بقوله (الحمد لله) الدال على اختصاصه بالحمد ، وجدمن نفسه التحرك للاقبال عليه ـ سبحانه ـ ، فاذا انتقل الى قوله : (رب العالمين) الدال على ربوبيته لجميعهم ، قوى تحركه ، فاذا قال (الرحمن الرحيم) الدال على أنه منعم بأنواع النعم ، جليلها وحقيرها ، تزايد التحرك عنده ، فاذا وصل لـ (مالك يوم الدين) ، وهو خاتمة الصفات الدالة على أنه مالك لأمر كله يوم الجزاء ،

---

(٣٣) الفتح / ١ ، ٢ ، ٣ ·

(٣٤) انظر (البرهان) ج ٣ ص ٣١٦ ـ و (روح المعانى ج ٢٦ ص ٨٢ ·

(٣٥) الفاتحة / ٢ ـ ٧ ·

وجد من نفسه حاملا ، لا يقدر على دفعه على خطـاب من هذا صفاته بتخصيصه بغاية الخضوع ، والاســتعانة فى المهمــات (٣٦) ·

وقيل : انما اختير للحمد الغيبة ، وللعبادة الخطاب ، للاشارة الى أن الحمد دون العبــادة فى الرتبــة ، فانك تحمد نظيرك ، ولا تعبده ، اذ الانسان يحمد من لايعبده ، ولا يعبـد من لا يحمــده ، فلما كان كذلك اســتعمل لفظ (الحمد) لتوسطه مع الغيبة فى الخبر ، فقال : (الحمد لله)، ولم يقل : (الحمد لك) ، ولفظ (العبــادة) مع الخطــاب فقال :(اياك نعبد) ، لينسب الى العظيم حال المخاطبــة والمواجهــة ، ما هو أعلى رتبــة ، وذلك على طريقــة التأدب (٣٧) ·

وقيل : ان سر الالتفات من الغيبة الى الخطاب ، هــو التنبيه على أن مبدأ الخلق الغيبة منهم عنه — ســبحانه — وقصورهم عن محاضرته ومخاطبته ، وقيام حجاب العظمة عليهم ، فاذا عرفوه بما هو له ، وتوسلوا للقرب بالثنــاء عليه ، وأقروا بالمحامد له ، وتعبدوا له بما يليق به ، تأهلوا لمخــاطبته ، ومنــاجاته ، فقالوا : (اياك نعبــد واياك نستعين) (٣٨) ·

---

(٣٦) انظر (البرهــان) ج ٣ ص ٣٢٦ — و (الاتقــان) ج ٣ ص ٢٩٢ ·

(٣٧) انظر (المثل السائر) ج ٢ ص ١٧٣ — و (البرهان) ج ٣ ص ٣٢٧ — و (الاتقان) ج ٣ ص ٢٩٣ ·

(٣٨) انظر (الاتقــان) ج ٣ ص ٢٩٣ — و (البرهــان) ج ٣ ص ٣٢٧ ·

وقيل : لأنه لما ذكر الحقيق بالحمد ، وأجرى عليه الصفات العظيمة من كونه ربا للعالمين ، ورحمانا ورحيما ، ومالكا ليوم الدين ، تعلق العلم بمعلوم عظيم الشأن ، حقيق بأن يكون معبودا ، دون غيره ، مستعانا به ، فخوطب بذلك ، لتميزه بالصفات المذكورة ، تعظيما لشأنه كله ، حتى كأنه قيل : اياك يا من هذه صفاته نخص بالعبادة والاستعانة لاغيرك (٣٩) ٠

وفى آخر السورة الكريمة انتقل القرآن من الخطاب الى الغيبة ، حيث قال : (الذين أنعمت عليهم) ، مصرحا بذكر المنعم ، واسناد الانعام اليه لفظا ، ولم يقل : (صراط المنعم عليهم) ، فلما صار الى ذكر الغضب ، زوى عنه لفظه ، فلم ينسبه اليه لفظا ، وجاء باللفظ منحرفا عن ذكر الغاضب ، فلم يقل : (غير الذين غضبت عليهم)، تفاديا عن نسبة الغضب اليه فى اللفظ حال المواجهة (٤٠)٠

وفى هذا الالتفات تعظيم لشأن المخاطب ، لأن مخاطبة الرب - تبارك وتعالى - باسناد النعمة اليه تعظيم لخطابه ، وكذلك ترك مخاطبته باسناد الغضب اليه ، تعظيم الخطابه ٠

---

(٣٩) انظر (البرهان) ج ٣ ص ٣٢٧ - و (الاتقان) ج ٣ ص ٣٩٣٠

(٤٠) انظر (المثل السائر) ج ٢ ص ١٧٤ - و (الأقصى القريب) ص ٤٤ - و (أنوار الربيع) ج ١ ص ٣٦٣ ٠

الفصل الثانى

الاعتراض

هو عند أهل البلاغة والبيان (١) : (أن يؤتى فى أثناء الكلام ، أو بين كلامين متصلين معنى بجملة ، أو أكثر لا محل لها من الاعراب لنكتة سوى دفع الايهام) .

وهو فن عظيم من فنون البلاغة والبيان ، يشتمل على كثير من اللطائف والأسرار واذا تأملت شواهده فى القرآن، استبان لك أنها تنطوى على كثير من الدقائق والعجائب ، التى تسترعى الانتباه ، وتحمل على الاصغاء ، وتثير فى النفس أسمى آيات الاعجاب ، وتكسب المعنى حسنا وجمالا ، وتكسو النظم رونقا وبهاء .

ومن هذه الشواهد قوله تعالى : (ووصينا الانسان بوالديه حملته امه وهنا على وهن وفصاله فى عامين أن اشكر لى ولوالديك الى المصير) (٢) .

فقوله تعالى : (حملته امه وهنا على وهن وفصاله فى عامين) ، وارد على جهة الاعتراض ، بين الفعل ومتعلقه ، لزيادة التوصية بالأم خصوصا ، لما كابدته من المشقة فى

---

(١) انظر (الايضاح) ص ١٤٧ ـ و (المطول) ص ٢٩٨ ـ و (أنوار الربيع) ج ٥ ص ١٣٦ ـ وعروس الأفراح) ص ٢٣٧ ج ٣ من شروح التلخيص ـ (خزانة الأدب) ص ٤٨٨ .

(٢) لقمان / ١٤ .

حمل الولد ، وفصاله ، ولما قاسته من التعب فى تربيتـــه ، ومزاولة مصالحه ٠ (٣)

وعن بعض العرب أنه حمل أمه الى الحج على ظهره ، وهو يقول فى حدائه :

أحمـل أمى وهى الحمـــالة
ترضعنى الـدرة والعـــلالة
ولا يجـازى والد فعـــاله ٠

ولله در من قال :

لأمـك حـــق لو علمت كـــبير
كثيرك يا هـــذا لديه يســـير

فكم ليـــلة باتت بثقلك تشـتكى
لهـا من جـــواها أنه وزفـــير

وفى الوضع لو تدرى عليها مشقة
فمن غصص لها الفـؤاد يطـــير

وكم غسـلت عنك الأذى بيمينهـا
وما حجـــرها الا لديـك سرير

وتفديك مما تشـتكيه بنفســـها
ومن ثديهـــا شرب لديك نمـير

---

(٣) انظر (الكشاف) ج ٣ ص ٢٣٢ – (والمثل السـائر) ج ٢ ص ٨٦ – و (روح المعانى ج ٢١ – ص ٧٧ – و (الطـراز) ج ٢ ص ١٧١ – و (وعروس الأفراح) ص ٢٤١ ج ٣ من شروح التلخيص

وكم مرة جاعت وأعطتك قوتهـا
حنـوا واشـفاقا وأنت صغـير

فآها لذى عقـل ويتبـع الهـوى
وآها لأعمى القلب وهو بصـير

فدونك فارغب فى عميم دعائها
فأنت لمـا تدعـو به لفقـير

ومنها قوله تعـالى : (فلمـا وضعتها قالت ربى انى وضعتها أنثى والله أعلم بما وضعت وليس الذكـر كالأنثى وانى سميتها مريم وانى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم) (٤) ٠

فقوله : (والله أعلم بما وضعت وليس الذكر كالأنثى) ليس من قول مريم وانمـا هو اعـتراض ، من كلام الله تعالى ، لتعظيم موضوعها ، وتجهيلها بقدر ما وهب لهـا منه ، ومعناه : والله أعلم بالشىء الذى وضعت ، وما علق به من عظائم الأمور ، وجعلها وولدها آية للعالمين ، وهى جاهلة بذلك ، لا علم لها به ، ولذلك تحيرت ، وتحسرت ، ثم زاده بيانا بالجملة الثانيـة من الاعتراض ، فقـال : (وليس الذكر كالأنثى) ، ومعناه : وليس الذكـر الذى طلبت كالأنثى التى وهبت لها ٠ (٥)

---

(٤) آل عمران / ٣٦ ٠

(٥) انظر (الكشاف) جـ ١ ص ٤٢٥ ـ و (أنوار الربيـع) جـ ٥ ص ١٣٩ ٠

ومنها قوله تعالى : (ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون (٦) ٠

فقوله : (سبحانه) جملة ، اذ هى مصدر منصوب بفعل مقدر من معناه ، أى أنزهه تنزيها ، وهذه الجملة واردة على جهة الاعتراض بين الجملتين المتعاطفتين ، للمبالغة فى التنزيه عما نسبوه اليه من اتخاذ البنات ، وللمبالغة فى الانكار عليهم فى هذه المقالة ، وللتعجب من جراءتهم على التفوه بمثل تلك العظيمة (٧) ٠

فتأمل بذوقك وعقلك ما اشتملت عليه هذه اللفظة ، أعنى قوله : (سبحانه) من حسن الموقع ، بكونها واردة على جهة الاعتراض ،وما تضمنته من الفوائد الشريفة ، والأسرار الخفية من الانكار والتهكم ، واظهار التعجب من حالهم ،وغير ذلك من اللطائف ، فسبحان الله ، لقد أنشأت هذه الآية للعارفين استطراقا وعجبا ، وحركت فى قلوبهم شوقا وطربا ، لما اشتملت عليه من عجائب الفصاحة ، وغرائب البلاغة ٠

ومنها قوله تعالى : (فلا أقسم بمواقع النجوم ٠ وانه لقسم لو تعلمون عظيم ٠ انه لقرآن كريم) (٨)

فقوله : (وانه لقسم لو تعلمون عظيم) مشتمل على اعتراض ضمن اعتراض آخر ٠

---

(٦) النحل / ٥٧ ٠

(٧) انظر (الكشاف) جـ ٢ ص ٤١٤ _ و (تفسير أبى السعود) جـ ٣ ص ٣٧٣ _ و (الطراز) جـ ٢ ص ١٧٠ _ و (المثل السائر) جـ ٢ ص ١٨٥ _ و(جوهر الكنز) ص ١٣٠ _ و (مواهب الفتاح) ص ٢٣٨ جـ ٣ من شروح التلخيص ٠

(٨) الواقعة / ٧٥ ، ٧٦ ، ٧٧ ٠

فقوله : (وانه لقسم عظيم) جملة اسمية ابتدائيـة معترضة بين القسم وجوابه ، لتعظيم شأن ما أقسم به من مواقع النجـوم ، وقوله : (لو تعلمـون) جملة فعليه معترضة بين الصفة والموصوف ، لتأكيد ذلك التعظيـم ، كأنه قال : وانه لقسـم لو علمتم حـاله ، أو تحققتم أمره لعرفتم عظمة ، وفخامة شأنه ٠ (٩)

ومنها قوله تعالى : (واذ قتلتم نفسا فادارأتم فيهـا والله مخرج ما كنتم تكتمون ٠ فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيى الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون) (١٠) ٠

فقوله :(والله مخرج ما كنتم تكتمون) جملة ابتدائية، وردت معترضة بين المعطوف والمعطوف عليه ٠ وفائدتها : التقرير فى نفوس السـامعين بأن تدافع بنى اسرائيل فى قتل النفس ، ليس نافعا لهم فى اخفائه وكتمانه ، لأن الله تعالى مظهر لذلك ومخرجه (١١) ٠

ومنها قوله تعالى : (واذا بدلنا آيـة مكان آية والله أعـلم بمـا ينزل قـالوا انمـا أنت مفـتر بل أكثرهم لايعلمون) (١٢) ٠

---

(٩) انظر (الكشاف) ج ٤ ص ٥٨ _ و (الأقصى القريب) ص ٥٨ _ و (روح المعانى) ج ٢٧ ص ١٥٢ _ و (البرهان) ج ٣ ص ٥٨ ٠

(١٠) البقرة / ٧٢ ، ٧٣ ٠

(١١) انظر (المثل السائل) ج ٢ ص ١٨٦ _ و (الطـراز) ج ٢ ص ١٧٢ _ (والبرهان) ج ٣ ص ٥٩ ٠

(١٢) النحل / ١٠١ ٠

فقوله : (والله أعلم بما ينزل) جملة اسمية معترضة بين (اذا) وجوابها ، وفائدتها : التقرير لمصلحة التبديل ، والتعريض بجهـلهم بمعرفة ذلك ، والاعـلام لهم بأن الله تعالى ، هو المتولى لذلك (١٣) ٠

ومنها قوله تعالى : (قالوا تا لله لقد علمتم ما جئنـا لنفسد فى الأرض وما كنا سارقين) (١٤) ٠

فقوله : (لقد علمتم) اعتراض بين القسم وجوابه ، لتقرير اثبات البراءة من الفساد ، والنزاهة من تهمـة السرقة ، فكأنهم قالوا : انكم قد علمتم هذا منـا ، ونحن مع علمكم به نقسم بالله على صدقه ٠ (١٥)

ومنها قوله تعالى : (قالت ان الملوك اذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون ٠ وانى مرسلة اليهم بهدية فناظرة بم يرجعون المرسلون) (١٦) ٠

فقوله تعالى : (وكذلك يفعلون) اعتراض ، قصد به تقرير اثبات أن هذه عـادتهم المسـتمرة الثـابتة ، التى لا تتغير ، لأنها كانت فى بيت الملك القديم ، فسمعت نحـو ذلك ، ورأت ٠ (١٧)

---

(١٣) انظر (الطراز) ج ٢ ص ١٧٢ ٠

(١٤) يوسف / ٧٣ ٠

(١٥) انظر (جوهر الكنز) ص ١٣٠ ـ و (الطراز) ج ٢ ص ١٧١ ـ و (البرهان) ج ٣ ص ٥٧ ٠

(١٦) النمل / ٣٤ ، ٣٥ ٠

(١٧) انظر (الكشاف) ج ٣ ص ١٤٧ ٠

ومنها قوله تعالى : (والذين اذا فعلوا فاحشــــية أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفـــر الذنـــــوب الا الله ولم يصروا عـــلى ما فعـــــــلوه وهم يعلمون) (١٨) ٠

فقوله : (ومن يغفر الذنوب الا الله) جملة معترضـــة بين المتعاطفين ، للدلالة على سعة عفو الله ، وقرب مغفرته، واختصاصه بغفران الذنوب ، وأن التائب من الذنب عنده، كمن لا ذنب له ، كمــا أن فيها تطييبــا لنفوس العبـــاد ، وتنشيطا للتوبة ، وبعثــا عليهـــا ، وردعـــا عن اليأس والقنوط وأن الذنوب ، وان جلت ، فان عفوه أجل ، وكرمه أعظم (١٩) ٠

ومنها قوله تعالى : (والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نزل على محمد وهو الحق من ربهم كفر عنهـــم سيآتهم وأصلح بالهم) (٢٠) ٠

فقوله : (وهو الحق من ربهم) جملة اسمية معترضة، لتأكيد تعظيم شأن المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم ، لأن قوله تعالى : (وآمنوا بما نزل على محمد) ، فيــــه تعظيم لشأن المنزل عليه صلى الله عليه وسلم ، لأنه لايصح الايمان ، ولا يتم الا به ، وهذه الجملة المعترضة ، انمـــا جيء بها ، لتأكيد هذا التعظيم (٢١) ٠

---

(١٨) آل عمران / ١٣٥ ٠

(١٩) انظر (الكشـــاف) جـ ١ ص ٤٦٤ ـ و (البرهـــان) جـ ٣ ص ٥٧ ـ و (تفسير البحر المحيط) جـ ٣ ص ٥٩ ٠

(٢٠) محمد / ٢ ٠

(٢١) انظر (الكشاف) جـ ٣ ص ٥٣٠ ـ و (تفسير البحر المحيط) جـ ٨ ص ٧٣ ٠

ومنها قوله تعالى : (ويسألونك عن المحيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء فى المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن فاذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله ان الله يحب التوابين ويحب المتطهرين · نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم وقدموا لأنفسكم واتقوا الله واعلموا أنكم ملاقوه وبشر المؤمنين) (٢٢) ·

فقوله : ان الله يحب التوابين ويحب المتطهرين) اعتراض بين قوله : (فأتوهن من حيث أمركم الله) ، وبين قوله : (نساؤكم حرث لكم) ، للحث على الطهارة ، وتجنب الأدبار (٢٣) ·

ومنها قوله تعالى : (وما أرسلنا من قبلك الا رجالا نوحى اليهم فاسألوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون · بالبينات والزبر وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس مانزل اليهم ولعلهم يتفكرون) (٢٤) ·

فقوله : (فاسألوا أهل الذكر) اعتراض بين قوله : (نوحى اليهم) ، وبين قوله : (بالبينات والزبر) ، قصد به اظهار قوة الحجة عليهم ، كأن الله تعالى يقول لقريش الذين قالوا : الله أعظم من أن يكون رسوله بشرا : اسألوا أهل الكتاب ليعلموكم أن الله ، لم يبعث الى الأمم السالفة الا بشرا (٢٥) ·

---

(٢٢) البقرة / ٢٢٢ ، ٢٢٣ ·

(٢٣) انظر (مواهب الفتاح) ج ٣ ص ٢٤٤ من شروح التلخيص و (والاتقان ج ٣ ص ٢٥٤ ·

(٢٤) النحل / ٤٣ ، ٤٤ ·

(٢٥) انظر (الكشاف) ج ٢ ص ٤١١ — و (البرهان) ج ٣ ص ٦٠ ·

الفصل الثالث

الحـــذف

كثيرا ما يعمد االقــرآن الـــكريم الى حـــذف بعض الكلمات أو الجمل ، لوجود ما يدل عليها ، ولأن حذفهـــا ، ينطوى على بعض الأسرار ، التى يقتضيها المقام ، ولا يتم المعنى المقصود الا بها ٠

فمن ذلك حذف الفاعل من الجملة ، عندما تدل عليـــه قرينة واضحة ، فيصبح كالمتعين الذى تنصرف اليه النفس أول وهلة ، كما تجد ذلك فى قوله تعالى : (كلا اذا بلغت التراقى ٠ وقيل من راق ٠وظن أنه الفراق) (١) ٠

فالحديث فى ذكر (الموت) ، ولا يبلغ (التراقى) عند الموت الا النفس (٢) ٠

وكما تجد ذلك أيضـــا فى قوله تعـــالى : (اذ عرض عليه بالعشى الصافنات الجيـــاد ٠ فقـــال انى أحببت حب الخير عن ذكر ربى حتى توارت بالحجاب (٣) ٠

فمـــرور ذكر (العشى) يـــدل على أن الضمـــير فى (توارت) للشمس (٤) ٠

---

(١) القيامة / ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ ٠
(٢) انظر (الكشاف) جـ ٤ ص ١٩٣ ٠
(٣) ص ٣١ ، ٣٢ ٠
(٤) انظر (تفسير أبى السعود) جـ ٤ ص ٥٧٦ ٠

وكما تجده أيضا فى قوله تعالى : (ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء لقد تقطع بينكم وضل عنكم ما كنتم تفترون) (٥)٠ وفى قوله تعالى : (ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين) (٦)

فالفعل فى الآية الأولى ، قد أغنى عن ذكر فاعله ، فالمراد : أن التقطع حل بينهم مكان التواصل ، فكأنه قيل: لقد تم التقاطع بينكم ٠ وفى الآية الثانية أغنى ذكر (ليسجننه) بما فيه من أدوات التوكيد عن ذكره ، وكان المجىء بتلك الجملة مصورا لما حدث من هؤلاء القوم ، ومعبرا عما كان من أمرهم ، وهم يتشاورون فى أمر يوسف عليه السلام ، فقد قلبوا وجوه الرأى بينهم ، ثم بدا لهم فى عقولهم أمر ، عبروا عنه بقولهم : (ليسجننه) فكانت الآية حاكية لما حدث ، مصورة له (٧) ٠

ويحذف الفاعل تعظيما له ، كما فى قوله تعالى : (والذين يؤمنون بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون) (٨) ٠

قال الزمخشرى فى كشافه القديم : (هذا أدل على كبرياء المنزل ، وجلالة شأنه من القراءة الشاذة (أنزل) مبنيا للفاعل ، كما تقول : الملك أمر بكذا ، ورسم كذا ، وخاصة اذا كان الفعل فعلا ، لايقدر عليه الا الله ، كقوله

---

(٥) الأنعام / ٩٤ ٠
(٦) يوسف / ٣٥
(٧) انظر (من بلاغة القرآن) ص ١٢٠ ٠
(٨) البقرة / ٤ ٠

تعالى : (وقضى الأمر) ، قال : كأن طى الفاعل كالواجب لأمرين : **أحدهما** : أنه اذا تعين الفاعل ، وعلم أن الفعل ، مما لا يتولاه الا هو وحـده ، كان ذكره فضـلا ولغـوا ، **والثانى** : الايذان بأنه منه غير مشـارك ، ولا مدافـع عن الاستئثار به والتفرد بايجـاده ، وأيضـا فمـا فى ذلك من مصير أن اسمه جدير بأن يصان ، ويرتفع به عن الابتذال والامتهـان · وعن الحسن لولا أنى مأذون لى فى ذكـر اسمه ، لربأت به عن مسلك الطعام والشراب ·

ويحذف الفاعل احتقارا له ،كما فى قوله تعالى: (وقيل للناس هل أنتم مجتمعون · لعلنا نتبع السحرة ان كانو هم الغالبين) (١٠) ، ففاعل (قيل) هنا محذوف لتحقـيره وامتهانه (١١)

ويحذف الفاعل لستره ، أو للجهل به ، كما فى قـوله تعالى : (فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمـد لله رب العالمين) (١٢) ·

ففاعل (قطع هنا محذوف ، لأنه مجهول عنـد الذين ظلموا ، ومعلوم عند الله ، فهو مستور عن الذين ظلموا ، ولو كان المخبر منهم ، لكان مجهولا عنده ، فيتعذر عليـه الاتيان به (١٣) ·

---

(١٠) الشعراء / ٣٩ ، ٤٠ ·

(١١) انظر (الأقصى القريب) ص ٦٢ ·

(١٢) الأنعام / ٤٥ ·

(١٣) انظر (الأقصى القريب) ص ٦٢ ·

ويحذف لمناسبة ما تقدمه ، كما فى قوله تعالى : (رضوا بأن يكونوا مع الخوالف وطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون) (١٤) ببناء (طبع) للمفعول ، لأن قبلها : (واذا أنزلت سورة) (١٥) على بناء الفعل للمفعول ، فجاء قوله (طبع) ليناسب الختام المطلع ، بخلاف قوله فيما بعدها : (وطبع الله على قلوبهم فهم لا يعلمون) (١٦) فانه لم يقع قبلها ما يقتضى البناء ، فجاءت على الأصل (١٧)٠

ويحذف للعلم به ، كما فى قوله تعالى : (خلق الانسان من عجل سأوريكم آياتى فلا تستعجلون) (١٨) ، وكما فى قوله تعالى : (يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الانسان ضعيفا)(١٩) ٠

ففاعل (خلق) فى الآيتين محذوف ، لأنه معلوم أن الخلق لا يصدر الا عن الله وحده ، فلو ذكر بعد العلم به ، لكان ذكره فضلا ولغوا ٠

ويحذف اختصار وتخفيفا ، كما فى قوله تعالى : (ولا تقتلوا النفس التى حرم الله الا بالحق ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا فلا يسرف فى القتل انه كان

---

(١٤) التوبة / ٨٧ ٠

(١٥) التوبة / ٨٦

(١٦) التوبة /٩٣ ٠

(١٧) انظر (البرهان) جـ ٣ ص ١٤٥ ٠

(١٨) الأنبياء / ٣٧ ٠

(١٩) النساء / ٢٨ ٠

منصورا) (٢٠) ففاعل (قتل) محذوف ، لأنه لو ذكـــر لم يزد فائدة (٢١) ٠

ويحذف المبتـدأ ، عنـدما يكون ذكر الخـــبر المتصف بصفة ، كأنه يشير الى هذا المبتدأ ، وكأنما بلغ من الشهرة بهذا الوصف مبلغا يغنى عن ذكره ، كما تجد ذلك فى قوله تعـــالى : (كتــاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حــكيم خبير (٢٢) ٠

ويحذف لأن ذكـره يبعث فى النفس السـأم ، لشـدة وضوحه ، لقرب الحديث عنه ، كما تحس بذلك فى قـوله تعالى : (ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين) (٢٣) ٠

أولا ترى أن فى ذكر الضمير العائد على (الكتــاب) قلقا ، لشدة قرب الكتاب الماثل أمام النفس ٠

ومن ذلك قوله تعـــالى : (وما أدراك ما هيــه ٠ نار حامية) (٢٤) ٠

وتأمل الفرق بين هذا الأسلوب الموجز ، وبين أن يقال: (ومأادراك ما هيه ٠ هى نار حامية) من الاسراع الى ذكر (النار) بعد أن أثار الشوق بالسؤال عنها (٢٥) ٠

---

(٢٠) الاسراء / ٣٣ ٠
(٢١) انظر (الأقصى القريب) ص ٦٢ ٠
(٢٢) هود / ١
(٢٣) البقرة / ٢
(٢٤) القارعة / ١٠ ، ١١ ٠
(٢٥) انظر (من بلاغة القرآن) ص ١٢٠ ٠

ويحذف لصيانته عن ذكره تشريفـــا له ، كما فى قوله تعالى : (قال فرعون وما رب العالمين · قال رب السموات والأرض وما بينهمـــا ان كنتم موقنين · قـــال لمن حـــوله ألا تستمعون · قـــال ربكمو رب آبائـــكم الأولين · قـــال ان رسولكم الذى أرسل اليكم لمجنون · قال رب المشرق والمغرب وما بينهما ان كنتم تعقلون) (٢٦) ·

حذف المبتدأ فى هذه الآيات فى ثلاثة مواضع ، قبـــل ذكر (الرب) ، أى (هو رب السموات) · (والله ربكم) · (والله رب المشرق) ، لأن موسى عليه السلام استعظم حـــال فرعون ، واقدامه على السؤال ، فأضمر (اسم الله) تعظيما وتفخيما ، واقتصر على ما يستدل به من أفعاله الخـــاصة به ، ليعرفه أنه ليس كمثله شىء وهو السميع البصير (٢٧)·

ويحذف لصيانة اللسان عنه تحقيرا له ، كما فى قوله تعالى : (صم بكم عمى فهم لا يرجعون)(٢٨) ، أى (هم)، أو (المنافقون) ·

ويحذف لأن الخبر لا يصلح الا له ، كما فى قوله تعالى: (عالم الغيب والشهادة) (٢٩) ، وقوله تعالى : (فعـــال لمـــا يريد) (٣٠) ·

ويحذف الخبر عندما يقوم دليل فى الكلام عليه، فيكون ذكره كاللغو ، كمـــا فى قوله تعـــالى : (واللائى يئسن من

---

(٢٦) الشعراء / ٢٣ – ٢٨ ·
(٢٧) انظر (البرهان) ج ٣ ص ١٠٧ – و (الاتقان) ج ٣ ص ١٩٢
(٢٨) البقرة / ١٨ ·
(٢٩) المؤمنون / ٩٢ ·
(٣٠) البروج / ١٦ ·

المحيض من نسائكم ان ارتبتم فعدتهن ثلاثة أشهر واللائى لم يحضن وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا) (٣١) ، فالصمت عن الخبر ، وعطف (اللائى لم يحضن) على (اللائى يئسن) مؤذن باتحادهما فى الخبر (٣٢) ٠

ويحذف للتعظيم والتخويف ، كما فى قوله تعالى : (أفمن شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله أولئك فى ضلال مبين) (٣٣) فالخبر محذوف ، تقديره : (كمن لم يشرح صدره ، ولا نور له من ربه) ، ودل عليه قوله : (فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله) ، وحذفه تعظيم وتخويف لمن هذه حاله (٣٤) ٠

ويحذف الفعل اذا وقعت جملته جواب سؤال،فيكون فى ذكر الفاعل اسراع بذكر المسئول عنه ، بعد أن فهمت النفس الفعل المسئول عنه ، واستقر أمره فى الفؤاد ، ومن ذلك قوله تعالى : (قل كونوا حجارة أو حديدا أو خلقا مما يكبر فى صدوركم فسيقولون من يعيدنا قل الذى فطركم أول مرة فسينغضون اليك رءوسهم ويقولون متى هو قل عسى أن يكون قريبا) (٣٥) ٠

---

(٣١) الطلاق / ٤ ٠
(٣٢) انظر (الكشاف) ج ٤ ص ١٢١ ٠
(٣٣) الزمر / ٢٢ ٠
(٣٤) انظر (الأقصى القريب) ص ٦٣ ٠
(٣٥) الاسراء / ٥٠ ، ٥١ ٠

ومثله قوله تعالى : (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله فأنى يؤفكون) (٣٦) ٠

ويحذف للتنبيه على أن الزمان يتقاصر عن الاتيان بمثله ، ولأن الاشتغال بذكره ، يفضى الى تفويت المهم ، كما فى بابى (التحذير والاغراء) ، وقد اجتمعا فى قوله تعالى: (ناقة الله وسقياها) (٣٧) ، (فناقة الله) تحذير ، بتقدير (ذروا) و (سقياها) اغراء ، بتقدير (الزموا) (٣٨) ٠

ويحذف للتعظيم ، كما فى قوله تعالى : (وقضى ربك ألا تعبدوا الا اياه وبالوالدين احسانا) (٣٩)، فـ (احسانا) منصوب بفعل محذوف ، يحسن — والله أعلم — أن يكون (ووصاكم) ، ويجوز أن يكون قوله (احسانا) مقاما مقام (أحسنوا) ، وقد حذف ، كقولهم : (سقيا ورعيا) ، وحذف الفعل ، ليتصل ذكر الوالدين بذكره تعظيما لأمرهما ، واشعارا بدخول الاحسان اليهما فى حكم القضاء بعبادته (٤٠) ٠

وقد يقتضى المقام ذكر شيئين ، بينهما تلازم وارتباط ، فيكتفى القرآن بأحدهما عن الآخر ، ويسمى بعض البلاغيين هذا النوع من الحذف (بالاكتفاء) (٤١) ٠

---

(٣٦) العنكبوت / ٦١ ٠
(٣٧) الشمس / ١٣ ٠
(٣٨) انظر (الاتقان) ج ٣ ص ١٩٠ ٠
(٣٩) الاسراء / ٢٣ ٠
(٤٠) انظر (الأقصى القريب) ص ٦٣ ٠
(٤١) انظر (البرهان) ج ٣ ص ١١٨ ٠

ومن ذلك قوله تعالى : (والله جعل لكم مما خلق ظلالا وجعل لكم من الجبال أكنانا وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر وسرابيل تقيكم بأسكم كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون) (٤٢) ٠

التقدير : (سرابيل تقيكم الحر والبرد) ، وانما حذف البرد ، لأن بينه ، وبين الحر ارتباطا وتلازما ، فيكتفى بأحدهما عن الآخر ، وانما خص (الحر) بالذكر ، لأن الخطاب للعرب ، وبلادهم حارة ، والوقاية عندهم من الحر أهم ، لأنه أشد من البرد عندهم (٤٣) ٠

ومنه قوله تعالى : (قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير انك على كل شىء قدير) (٤٤) ٠

التقدير : (بيدك الخير والشر) ، وانما آثر ذكر (الخير) ، لأنه مطلوب العباد ، ومرغوبهم ، أو لأنه أكثر وجودا فى العالم من الشر ، أو لأنه يجب فى باب الأدب ألا يضاف الى الله تعالى ، كما قال صلى الله عليه وسلم : (والشر ليس اليك) ، أو لأن الكلام انما ورد ، ردا على المشركين فيما أنكروه مما وعد الله به على لسان جبريل عليه السلام من فتح بلاد الروم والفرس ، ووعد النبى صلى الله عليه وسلم أصحابه بذلك ، فلما كان الكلام فى الخير خصه بالذكر باعتبار الحال ، أو لأن كل أفعال الله

---

(٤٢) النحل / ٨١ ٠

(٤٣) انظر (الكشاف) جـ ٢ ص ٤٢٣ ٠

(٤٤) آل عمران /٢٦ ٠

تعالى من نافع وضار ، صادر عن الحكمة والمصلحة ، فهو خير كله ، كاتيان الملك ونزعه (٤٥) ٠

ومنه قوله تعـــالى : (وله ما سكن فى الليل والنهار وهو السميع العليم) (٤٦) ٠

التقدير : (وما تحرك) ، وانما حذفه ، لما بين الحركة والسكون من التلازم والارتباط الوثيق ، وآثر (السكون) بالذكر ، لأنه أغلب الحـــالين على المخــلوق من الحيـــوان والجماد أو لأن الساكن أكثر عددا من المتحرك ، أو لأن كل متحرك ، يصير الى السكون ، أو لأن السكون هو الأصل ، والحركة طارئة (٤٧) ٠

ومنه قوله تعالى : (والذين يؤمنـــون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون) (٤٨) ٠

التقدير : (يؤمنون بالغيب والشهادة) ، لأن الايمـــان بكل منهمـــا واجب ، وآثر (الغيب) ، لأنه أمدح ، ولأنـــه يستلزم الايمان بالشهادة من غير عكس (٤٩) ٠

ومنه قوله تعالى : (واذا مسكم الضر فى البحـر ضل من تدعون الا اياه فلمـــا نجــــاكم الى البر أعرضتم وكان الانسان كفورا) (٥٠) ٠

---

(٤٥) انظر (الكشاف) ج ١ ص ٤٢٢ — و (البرهـــان) ج ٣ ص ١١٩ — و الاتقان ج ٣ ص ٢٠٣ ٠

(٤٦) الأنعام / ١٣ ٠

(٤٧) انظر (البرهان) ج ٣ ص ١١٩ ٠

(٤٨) البقرة / ٣ ٠

(٤٩) انظر (الاتقــان) ج ٣ ص ٢٠٣ ٠

(٥٠) الاسراء / ٦٧ ٠

التقدير : واذا مسكم الضر فى البحر والبر) ، وانما آثر ذكر (البحر) لأن ضرره أشد (٥١) ٠

ومنه قوله تعـــالى : (وآمنوا بما أنزلت مصدقا لـما معكم ، ولا تكونوا أول كافر به ولا تشتروا بآياتى ثمنا قليلا واياى فاتقون) (٥٢) ٠

المعنى : (وآخر كافر به) ، فحــذف المعطوف ، لدلالة قوة الكلام ، من جهة أن أول الكفر وآخره سواء ، وخصت الأولوية بالذكر ، لقبحها بالابتداء (٥٣) ٠

وقد يكون أحد الشيئين هو المقصود ، فيقتصر القرآن عليه دون الآخــر ، كمــا فى قوله تعـــالى : (فمن ربكما يا موسى) (٥٤) ، فقد خاطب الاثنين ، ووجه النـــداء الى أحدهما ، وهو موسى ، ولم يقل : (وهارون) ، لأن موسى عليه السلام المقصود المتحمل أعباء الرسالة ، لأنه الأصل فى النبوة ، وهارون وزيره وتابعه ، أو لأن خبثه ودعارته حملاه على استدعاء كلام موسى دون كلام أخيه هارون ، لما عرف من فصاحة هارون والرته فى لسان موسى ، ويدل عليه قوله : (أم أنا خير من هذا الذى هو مهين ولا يــكاد يبين) ، فنكل عن خطاب هارون ، توقيا لفصاحته ، وحدة جوابه ، ووقع خطــابه ، اذ الفصـــاحة تنكل الخصم عن الخصم ، وتنكبه عن معارضته (٥٥) ٠

---

(٥١) انظر (البرهان) جـ ٣ ص ١٢٠ ٠

(٥٢) البقرة / ٤١ ٠

(٥٣) انظر (البرهان) جـ ٣ ص ١٢١ ٠

(٥٤) طـه / ٤٩ ٠

(٥٥) انظر (الكشاف) جـ٢ ص ٥٣٩ ـ و (البرهــــان) جـ ٣ ص ١٢٦ ٠

وقد يذكر القرآن شيئين ، ثم يعيد الضمير على أحدهما دون الآخر ، لدلالة المذكور عليه ، كما فى قوله تعالى : (واذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا اليها وتركوك قائما قل ما عند الله خير من اللهو ومن التجارة والله خير الرازقين) (٥٦) ٠

التقدير كما قال الزمخشرى : (واذا رأوا تجارة انفضوا اليها أو لهوا انفضوا اليه) فحذف أحدهما لدلالة المذكورة عليه (٥٧) ٠

وانما آثر ذكر التجارة بعود الضمير عليها ، لأنها كانت سبب انفضاض الذين نزلت فيهم هذه الآية ، أو لأنها قد تشغل عن العبادة ما لا يشغله اللهو ،لأنها أجذب للقلوب عن طاعة الله من اللهو ، أو لأن المشتغلين بالتجارة أكثر من المشتغلين باللهو ، أو لأنها أكثر نفعا من اللهو ، أو لأنها كانت أصلا ، واللهو تبعا لأنه ضرب باللهو عند قدومها (٥٨) ٠

ومن ذلك قوله تعالى : (والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم) (٥٩) ٠

فانه ـ سبحانه ـ ذكر الذهب والفضة ، وأعاد الضمير على (الفضة) ، لأنها أقرب المذكورين ، ولأن الفضة اكثر

(٥٦) الجمعة / ١١

(٥٧) انظر (الكشاف) ج ٤ ص ١٠٦ ، ١٠٧ ٠

(٥٨) انظر (البرهان) ج ٣ ص ١٢٦ ٠

(٥٩) التوبة / ٣٤ ٠

وجودا فى أيدى الناس ، والحـاجة اليها أمس ، فيـكون كنزها أكثر (٦٠) ٠

ويحذف القرآن بعض الحروف ، فمن ذلك حذف الواو، لقصد البلاغة ، فان فى اثباتها، ما يقتضى تغاير المتعاطفين، فاذا حذفت ، أشعر بأن الكل كالواحـد : كقوله تعـالى : (يأيها الذين آمنو لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونـكم خبالا ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وماتخفى صدورهم أكبر قد بينا لكم الآيات ان كنتم تعقلون) (٦١) ٠

فالتقدير فى الآية الكريمة : وودوا ما عنتم ، وقد بدت البغضاء من أفواههم ، فلما حذفت هذه الواو ، كان الكلام مع حذمها أدخـل فى الاعجـاز ، وأحسن فى الاختصـار والايجـاز ، وأبلغ فى تأليفـه ونظمه ، وأحلى فى سـياقه وعذوبة طعمه (٦٢ ٠

ومن ذلك حذف الفاء فى قوله تعالى : (والى عـاد أخاهم هودا قال ياقوم اعبـدوا الله ما لكم من اله غـيره أفلا تتقون) (٦٣) ٠

حذف حرف الفـاء من قـوله : (قال) ، ولم يقـل : (فقال) ، كما فى قصة نوح من قوله تعالى : (لقد أرسلنا نوحا الى قومه فقال ياقوم اعبـدوا الله ما لكم من اله غيره انى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم) (٦٤) ، لأنه على تقدير

---

(٦٠) انظر (البرهان) جـ ٣ ص ١٢٦ ، ١٢٧ ٠
(٦١) آل عمران / ١١٨ ٠
(٦٢) انظر (الطراز) جـ ٢ ص ١١٠ ، ١١١ ٠
(٦٣) الأعراف / ٦٥ ٠
(٦٤) الأعراف / ٥٩ ٠

سؤال سائل ، قال : ما قال لهم هود ؟ فقيل : قال يا قـــوم اعبدو الله ٠٠ (٦٥) ٠

ومن ذلك حذف (الياء) فى قوله تعالى : (والليل اذا يسر) (٦٦) للتخفيف ، ورعاية الفـاصلة ، ويحـــكى عن الأخفش أن المؤرخ السدوسى سأله : عن ذلك ، فقـــال : لا أجيبك حتى تنام على بابى ليلة ، ففعل ، فقـــال له : ان عادة العــــرب ، اذا عدلت بالشيىء عن معنــاء ، نقصت حروفه ، والليل لما كان لا يسرى ، وانما يسرى فيه ،نقص منــه حرف ، كمـــا فى قــوله تعـــالى : (وما كانت أمك بغيا) (٦٧) ، الأصل (بغية) ، فلما حول ، ونقل عن فاعل، نقص منه حرف (٦٨) ٠

ومن ذلك حــذف حــرف النـــداء ، ويكثر فى نــداء (الرب) سبحانه ، كما فى قوله تعالى : (ربنـــا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار ٠ ربنا انك من تدخـل النار فقد أخزيته وما للظالمين من أنصار ٠ ربنا اننا سمعنا مناديا ينادى للايمان أن آمنوا بربكم فآمنا ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيآتنا وتوفنا مع الابرار ٠ ربنا وآتنـــا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيـامة انك لاتخلف الميعاد) (٦٩) ٠

---

(٦٥) انظر (الكشاف) ج ٢ ص ٨٧ ٠
(٦٦) الفجر / ٤ ٠
(٦٧) مريم / ٢٨ ٠
(٦٨) انظر (البرهان) ج ٣ ص ١٠٧ ٠
(٦٩) آل عمران / ١٩١ ،١٩٢، ١٩٣، ١٩٤ ٠

وكما فى قوله تعالى : (ربنـــا أنزل علينا مـــائدة من السماء تكون لنا عيدا لأولنا وآخـــرنا وآية منك وارزقنا وأنت خير الرازقين) (٧٠) ٠

وكما فى قوله تعـــالى : (رب انى وهن العظم منى واشتعل الرأس شيبا) (٧١) ٠

وحكمة ذلك دلالته على التعظيم والتنزيه ، لأن النداء يتشرب معنى الأمر ، لأنك اذا قلت : (يازيد) ، فمعنـــاه : أدعوك يازيد ، فحذفت (يا) (٧٢) ٠ من نداء (الرب) ، ليزول معنى الأمر ، ويتمحض التعظيم والاجلال ٠

ومن ذلك حذف ألف (ما) الاستفهامية مع حـــرف الجر ، للفرق بين الاستفهامية ، والخبرية ، كقوله تعالى : (فلم تقتلون أنبياء الله (٧٣) ، وقوله تعالى : (فيم أنت من ذكراها) (٧٤) ، وقوله تعالى : (عم يتساءلون عن النبأ العظيم) (٧٥) ، وقـــوله تعـالى : (فلينظر الانســـان مم خلق) ٧٦ ٠

ومن ذلك حذف (لا) النافية) ، وهى مرادة ، كمـــا فى قوله تعالى : (تالله تفتأ تذكر يوسف حتى تكون حرضا أو تكون من الهالكين (٧٧) ٠

---

(٧٠) المـائدة / ١١٤ ٠
(٧١) مريم / ٤ ٠
(٧٢) انظر (البرهان) ج ٣ ص ٢١٣ ٠
(٧٣) البقرة / ٩١ ٠
(٧٤) النازعات / ٤٣ ٠
(٧٥) النبـــأ / ١ ٠
(٧٦) الطارق / ٥ ٠
(٧٧) يوسف / ٨٥ ٠

أراد : (لاتفتأ ، ومعنـاه : لاتزال ، فحـــذف حرف النفى توسعا وايجازا ، وهو مراد ، لأنه لا يلتبس بالاثبات، لأنه لو كان اثباتا ، لم يكن بد من اللام والنون (٧٨) ٠

ومن ذلك حذف نون الجمع ـ وأثرها باق ـ للتخفيف، كما فى قوله تعالى : (والمقيمى الصلاة ٠٠) (٧٩) ٠

بالنصب على قراءة أبى عمـــرو ، كأن النون ثابتـة ، فعلوا ذلك لا ستطالة الموصول فى الصلة ٠ قال سيبويه : العرب تقول : لا أدر ، فيحذفون الياء ، والوجه (لا أدرى)، لأنه رفع ، وتقول : (لم أبل) ، فيحذفون الألف والوجـــه (لم أبال) ، ويقولون : (لم يك) ، فيحذفون النون ، كل ذلك يفعلونه استخفافا ، لكثرته فى كلامهم (٨٠) ٠

ومن ذلك حذف (الجار) ، لشـــهرته ، كمـــا فى قوله تعالى : (واتقو الله الذى تساءلون به والأرحام ان الله كان عليكم رقيبا) (٨١) على قراءة حمزة بجر (الأرحام) ، وحذف حرف الجر هنا ، لأن هذا مكان شهر بتكرير الجار، فقامت الشهرة مقام الذكر ، وهو نوع من دلالة الحال التى لسانها أنطق من لسان المقال ، كما قال الزمخشرى ٠

ويعتمد القرآن على ذكاء قارئه ، فيحذف من الجمـل ما يستطيع القـارىء أن يدركه ، لأن الســـياق يستلزمه ،

(٧٨) انظر (الكشاف) جـ ٢ ص ٣٣٩ و (الطراز) جـ ٢ ص ١٠٩
(٧٩) الحج / ٣٥
(٨٠) انظر (الكتاب جـ ١ ص ٩٥ ـ و (تفسير القرطبى) جـ ١٢ ص ٥٩ ٠
(٨١) النساء / ٢٨ ٠

ويستدعيه ، فمن ذلك قوله تعالى : وقال الذى نجا منهما وادكر بعد امة أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون ٠

يوسف أيها الصديق أفتنا فى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات لعلى أرجع الى الناس لعلهم يعلمون) (٨٢) ٠

ففى هاتين الآيتين الكريمتين حذفت طائفة من الجمل، لأن السياق ، يستلزمها ، ويستدعيها ٠ وتقديرها : (فأرسلونى الى يوسف لأستعبره الرؤيا ، فأرسلوه اليه ، فأتاه ، وقال له : يا يوسف) (٨٣) ٠

وانما حذفت هذه الجمل ، لأنها معلومة بالضرورة ، وقصة يوسف عليه السلام طويلة ، فحذفت منها هذه الجمل المعلومة بالضرورة ، تخفيفا ، وكان حذفها أحسن من الاتيان بها ، لأن سماعها ، يشغل عن تأمل ما فى القصة ، مما يحتاج الى تأمله ، وهو كثير (٨٤) ٠

ومن ذلك قوله تعالى فى قصة سليمان عليه السلام : (قال سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين ٠ اذهب بكتابى هذا فألقه اليهم ثم تول عنهم فأنظر ماذا يرجعون ٠ قالت يأيها الملأ انى ألقى الى كتاب كريم) (٨٥) ٠

ففى هذه الآيات أيضا ، حذفت مجموعة من الجمل ، وتقديرها : (ففعل ذلك ، فأخذت الكتاب ، فقرأته ، ثم كأن

---

(٨٢) يوسف / ٤٥ ، ٤٦ ٠
(٨٣) انظر (الكشاف) ج ٢ ص ٣٢٤ ـ (والايضاح) ص ١٣٨ ٠
(٨٤) انظر (الأقصى القريب) ص ٦١ ٠
(٨٥) النمل / ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ ٠

سائلا سأل ، قال : فماذا قالت : فقيل : قالت : يأيها الملأ (٨٦) ، وانما حذفت هذه الجمل ، لأنها تفصيلات جزئية ، تدرك من السياق ، وفى تخطيها وصول الى العناصر الجوهرية فى القصة (٨٧) ٠

ومن ذلك قوله تعالى : (يازكريا انا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سميا ٠ قال رب أنى يكون لى غلام وكانت امرأتى عاقرا وقد بلغت من الكبر عتيا ٠ قال كذلك قال ربك هو على هين وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا قال رب اجعل لى آية قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاث ليال سويا فخرج على قومه من المحراب فأوحى اليهم أن سبحوا بكرة وعشيا ٠ يايحى خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبيا) ٨٨) ٠

ففى هذه الآيات ، أغفل القرآن الحديث عن مجىء الغلام ، ونشأته ، وترعرعه ، لأن مخاطبته بأخذ الكتاب مغنية عنه ، ولأن هذا الحديث ليس بعنصر أساسى فى القصة ٠

ومن ذلك قوله تعالى : (فقلنا اذهبا الى القوم الذين كذبوا بآياتنا فدمرناهم تدميرا) (٨٩ ٠

ففى هذه الآية حذفت طائفة من الجمل ، وتقديرها : (فأتياهم ، فأبلغاهم الرسالة ، فكذبوهما فدمرناهم)(٩٠)٠

(٨٦) انظر (الايضاح) ص ١٣٨ ٠
(٨٧) انظر (من بلاغة القرآن) ص ١٢٧ ٠
(٨٨) مريم / ٧ — ١٢ ٠
(٨٩) الفرقان / ٣٦ ٠
(٩٠) انظر (الايضاح) ص ١٣٨ ٠

وانما حذف هذه الجمل ، لأنه أراد اختصار القصـة ، فذكر حاشيتيها : أولها وأخرها ، لأنهما المقصود من القصة بطولها : أعنى الزام الحجة ببعثة الرسل ، واســـتحقاق التدمير بتكذيبهم (٩١) ·

ومن ذلك قوله تعالى : (فأتيا فرعون فقولا إنا رسول رب العالمين · أن أرسل معنا بنى اسرائيل · قال ألم نر بك فينا وليدا ···) (٩٢) ·

ففى هذه الآيات حذفت طائفة من الجمل ، وتقديرها : (فأتيـــاه ، فأبلغـــاه ذلك ، فلمـــا ســـمعه ، قال ألم نربك ··) (٩٣) ·

وانما حذفت هذه الجمل ، اختصار ، لأنها معـــلومة بالضروة ، لأن السياق يستلزمها ، ويستدعيها (٩٤) ·

ومن ذلك قوله تعالى : (فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيى الله الموتى ··) (٩٥) ·

ففى هذه الآية حذفت جملتان ، تقديرهما : (فضربوه ، فحيى) ، وانما حذفتا ، اختصارا ، لأن قوله تعالى : (كذلك يحيى الله المـــوتى) ، يســتلزمها ، ويســـتدعيها ، فهمـا معلومتان بالضرورة (٩٦) ·

---

(٩١) انظر (الكشاف) جـ ٣ ص ٩٢ ·
(٩٢) الشعراء / ١٦ ، ١٧ ، ١٨ ·
(٩٣) انظر (الايضاح) ص ١٣٨ ·
(٩٤) انظر (الكشاف) جـ ٣ ص ١٠٨ ·
(٩٥) البقرة / ٧٣ ·
(٩٦) انظر (الكشاف) جـ ١ ص ٢٨٩ ·

ومن ذلك قوله تعالى : (ولقد آتينـــا داود وسليمان علما وقالا الحمـد لله الذى فضلنـا على كثير من عبـاده المؤمنين (٩٧) ٠

ففى هذه الآية حذفت مجموعة من الجمل ، تقديرها : (ولقد آتيناهما علما ، فعملا به وعلماه ، وعرفا حق النعمة فيه والفضيلة ، وقالا الحمد لله ٠٠٠) ٠

وانما حذفت هذه الجمل ، اختصارا ، لأن السـياق يستلزمها ، ويستدعيها ، فهى معلومة بالضرورة (٩٨) ٠

وقد يحذف القرآن شيئا من آية ، اعتمـادا على ذكره فى آية أخرى ، فمن ذلك قوله تعالى فى كفارة الظهــار : (والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا ذلكم توعظون به والله بمـا تعملون خبير) (٩٩) ٠

وقوله تعالى فى كفارة القتل : (ومن قتل مؤمنا خطـأ فتحرير رقبة مؤمنة) (١٠٠) ٠

فاطلاق الرقبة فى كفارة الظهار ، محمول على تقييدها بالمؤمنة فى كفارة القتل (١٠١) ٠

ومن ذلك قـوله تعـالى فى سـورة آل عمـران : (وسارعوا الى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السـموات والأرض أعدت للمتقين) (١٠٢) ٠

---

(٩٧) النمل / ١٥ ٠
(٩٨) انظر (الكشاف) جـ ٣ ص ١٣٩ ٠
(٩٩) المجادلة / ٣ ٠
(١٠٠) النساء /٩٢ ٠
(١٠١) انظر (الكشاف) جـ ٤ ص ٧٢ ٠
(١٠٢) آل عمران / ١٣٣ ٠

وقوله تعالى فى سورة الحديد :(سابقوا الى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنو بالله ورسله ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم) (١٠٣) ٠

فحذف (الكاف) فى آية آل عمران ، محمول على ذكرها فى آية الحديد (١٠٤) ٠

ومنه قوله تعالى فى سورة البقرة : (أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون) (١٠٥) ٠

وفى سورة الأعراف : (أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون) (١٠٦) ٠

وحكمته أنه قد اختلف الخبران فى سورة البقرة ، فلذلك دخل العاطف ، بخلاف الخبرين فى الأعراف ، فانهما متفقان ، لأن التسجيل عليهم بالغفلة ، وتشبيههم بالبهائم واحد ، فكانت الجملة الثانية مقررة ما فى الأولى، فهى من العطف بمعزل (١٠٧) ٠

ومنه قوله تعالى فى سورة البقرة : (ان الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون) (١٠٨) ٠

---

(١٠٣) الحديد / ٢١ ٠
(١٠٤) انظر (الكشاف) جـ ١ ص ٤٦٣ ٠
(١٠٥) البقرة / ٧ ٠
(١٠٦) الأعراف / ١٧٩ ٠
(١٠٧) انظر (الكشاف) جـ ١ ص ١٤٥ ٠
(١٠٨) البقرة / ٦ ٠

وقال فى سورة يس : (وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون) (١٠٩) ٠

مع العاطف ٠ وحكمته أن ما فى (يس) ، وما بعده جملة معطوفة على جملة أخرى ، فاحتاجت الى العاطف ، والجملة هنا ليست معطوفة ،فهى من العطف بمعزل(١١٠)

ومنه قوله تعالى فى سورة الأعراف : (وان تدعهم الى الهدى لا يتبعوكم سواء عليكم أدعوتموهم أم أنتم صامتون) (١١١) ٠

وقال فى سورة الكهف : (وان تدعهم الى الهدى فلن يهتدوا اذا أبدا) (١١٢) ٠

والفرق بينهما أن الذى فى سورة الأعراف خطاب وأصله (تدعونهم) حذفت النون للجزم ، والتى فى الكهف خطاب للنبى صلى الله عليه وسلم ، وهو واحد ، وعلامة الجزم فيه سقوط الواو (١١٣) ٠

ومنه قوله تعالى فى سورة آل عمران : (جاءوا بالبينات والزبر والكتاب المنير) (١١٤) ٠

---

(١٠٩) يس / ١٠ ٠
(١١٠) انظر (البرهان) جـ ٣ ص ٢١٧ ٠
(١١١) الأعراف / ١٩٣ ٠
(١١٢) الكهف / ٥٧ ٠
(١١٣) انظر (البرهان) جـ ٣ ص ٢١٧ ٠
(١١٤) آل عمران / ١٨٤ ٠

وفى (فاطر) : (جاءتهم رسلهم بالبينات وبالزبر وبالكتاب المنير) (١١٥) ·

والفرق أن الأولى حذفت فيها الباء للاختصار ، استغناء بالتى قبلها ، والثانية خرجت عن الأصل، للتوكيد، وتقدير المعنى ، كما تقول : مررت بك وبأبيك وبأخيك ، اذا اختصرت (١١٦) ·

ومنه قوله تعالى فى قصة ثمود : (ما أنت الا بشر مثلنا فأت بآية ان كنت من الصادقين) (١١٧) ·

وفى قصة شعيب : (وما أنت الا بشر مثلنا وان نظنك لمن الكاذبين) (١١٨) ·

والفرق أن فى الأولى جرى على انقطاع الكلام عند النحويين ، واستئناف (ما أنت) ، فاستغنى عن الواو ، لما تقرر من الابتداء ، وفى الثانية جرى فى العطف ، وأن يكون قوله : (وما أنت) معطوف على (انما أنت) فى الآية التى قبل هذه الآية وهى : (قالوا انما أنت من المسحرين) (١١٩) ·

قال الزمخشرى: (فان قلت : هل اختلف المعنى بادخال الواو هاهنا ، وتركها فى قصة ثمود ؟ قلت : اذا أدخلت

---

(١١٥) فاطر / ٢٥ ·
(١١٦) انظر (البرهان) ج ٣ ص ٢١٨ ·
(١١٧) الشعراء / ١٥٤ ·
(١١٨) الشعراء / ١٨٦ ·
(١١٩) الشعراء / ١٨٥ ·

الواو ، فقد قصد معنيان كلاهما مناف للرسالة عندهم . التسحير والبشرية ، وأن الرسول ، لا يجوز أن يكون مسحرا ، ولا يجوز أن يكون بشرا ، واذا تركت الواو ، فلم يقصد الا معنى واحد ، وهو كونه مسحرا ، ثم قرر بكونه بشرا مثلهم (١٢٠) ٠

ومنه قوله تعالى فى سورة هود حاكيا عن شعيب : (وياقوم اعملوا على مكانتكم انى عامل سوف تعلمون) (١٢١) ٠

وأمر نبينا صلى الله عليه وسلم أن يقول لقريش : (ليكفروا بما آتيناهم فتمتعوا فسوف تعلمون)(١٢٢) ٠

ويمكن أن يقال : لما كررت مراجعته لقومه ، ناسب اختصاص قصته بالاستئناف الذى هو أبلغ فى الانذار والوعيد ، وأما نبينا صلى الله عليه وسلم ، فكانت مدة انذاره لقومه قصيرة فعقب عملهم على مكافأتهم بوعيدهم بالفاء ، اشارة الى قرب نزول الوعيد لهم ، بخلاف شعيب، فانه طالت مدته فى قومه فأستأنف لهم ذكر الوعيد ٠

ولعل قوم شعيب سألوه السؤال المتقدم ، فأجابهم بهذا الجواب ، والفاء ، لا تحسن فيه ، والنبى صلى الله عليه وسلم ، لم يقل ذلك جوابا للسؤال ، ولا يحسن معه الحذف (١٢٣) ٠

---

(١٢٠) انظر (الكشاف) ج ٣ ص ١٢٧ ٠
(١٢١) هود / ٩٣ ٠
(١٢٢) النحل / ٥٥ ٠
(١٢٣) انظر (الكشاف) ج ٢ ص ٢٨٩ ، ٢٩٠ ـ و (البرهان ج ٣ ص ٢١٩ ٠

ومنه قوله تعالى فى أهل الجنة : (حتى اذا جاءوهـا وفتحت أبوابها ٠٠٠) (١٢٤) ٠

فأثبت الواو فى الأولى ، وحذفها فى الثانية ٠وحكمته، كما قال أبو على الفارسى : انمـا تركت الواو فى النـار ، لأنها مغلقة ، وكان مجيئهم شرطا فى فتحها ، فقـوله : (فتحت) فيه معنى الشرط ٠ وأما قـوله : (وفتحت) فى الجنة ، فهـذه واو الحـال ، كأنه قال : (جـاءوها ، وهى مفتحة الأبواب ، أو هذه حالها) ٠

ويشهد لما قاله أبو على : قوله تعالى : (مفتحة لهـم الأبواب) (١٢٦) ، ولأن العادة مطردة شاهدة فى اهـانة المعذبين بالسجون من اغلاقها ، حتى يردوا عليها ، واكرام المنعمين باعداد فتح الأبواب لهم ، مبادرة واهتماما (١٢٧)

ومنه قوله تعالى فى سورة (النحل) : (ولاتحـزن عليهم ولاتك فى ضيق مما يمكرون (١٢٨) ٠

وفى سورة (النمل) : (ولاتحـزن عليهم ولا تكن فى ضيق مما يمكرون) (١٢٩) ٠

باثبات النون ٠ وحكمتـه أن القصة لـما طـالت فى سورة (النحل) ناسب التخفيف بحذف النون ، بخلافه فى

---

(١٢٤) الزمر / ٧٢ ٠
(١٢٥) الزمر / ٧١ ٠
(١٢٦) ص / ٥٠ ٠
(١٢٧) انظر (الكشاف) جـ ٣ ص ٤١١ ـ و (البرهـان) جـ ٣ ص ١٨٩ ، ١٩٠ ٠
(١٢٨) النحل / ١٢٧ ٠
(١٢٩) النمل / ٧٠ ٠

سورة (النمل) ، فان الواو استئنافية ، ولا تعلق لهــــا بما قبلها (١٣٠) ٠

ومنه قوله تعالى فى سورة البقــرة : (الحق من ربك فلا تكونن من الممترين) (١٣١) ٠

وفى آل عمــــران : (الحـــق من ربــك فلا تــكن من الممترين) (١٣٢) ٠

وحكمته أن الخطاب فى البقرة لليهــود ، وهم أشـــد جدالا (١٣٣) ٠

ومنه قوله تعالى فى سورة البقرة : (ويقتلون النبيين بغير الحق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون) (١٣٤) ٠

وفى ســورة آل عمـــران : (ويقتلون النبيين بغــير حــق) (١٣٥) ٠

والحكمة فيه أن الجملة فى آل عمران ، خرجت مخرج الشرط ، وهو عام ، فناسب أن يكون النفى بصيغة التنكير ، حتى يكون عاما ٠ وفى ســـورة البقرة جـــاء عن أنـــاس معهودين ، وهو قوله تعالى : (ذلك بأنهم كانوا يكفــرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق) ، فناسب أن يؤتى

---

(١٣٠) انظر (البرهان) ج ٣ ص ٢١٨ ٠
(١٣١) البقرة / ١٤٧ ٠
(١٣٢) آل عمران / ٦٠ ٠
(١٣٣) انظر (البرهان) ج ٣ ص ٢١٩ ٠
(١٣٤) البقرة / ٦١ ٠
(١٣٥) آل عمران / ٢١ ٠

بالتعريف لأن الحق الـذى كان يستـباح به قتل الأنفس عندهم ، كان معروفا ، كقوله تعالى : (وكتبنا عليهم فيهـا أن النفس بالنفس ٠٠٠) (١٣٦) فالحق هنا الذى تقتـل به الأنفس معهـود معـروف ، بخـلاف ما فى سـورة آل عمران (١٣٧) ٠

ومنه قوله تعالى فى سورة الصـافات : (وأبصرهم فسوف يبصرون ٠ أفبعـذابنا يستعجلون ٠ فـاذا نزل بساحتهم فساء صباح المنذرين ٠ وتول عنهم حتى حـين ٠ وأبصر فسوف يبصرون) (١٣٨) ٠

فقـد ذكر المفعـول فى قـوله : (وأبصرهم فسـوف يبصرون) ، وحذفه فى قوله : (وأبصر فسوف يبصرون) ، لأن الآية الأولى اقتضت نزول العذاب بهم يوم بدر ، فلمـا تضمنت التشفى بهم قيل : (أبصرهم) ٠

وأما الثانية فالمراد بها يوم الفتح ، واقـترن بها مع الظهور عليهم تأمينهم والدعاء الى ايمانهم ، فلم يكن وقتا للتشفى ، بل للـبروز ، فقيـل له : (أبصر) ، والمعنى . فسيبصرون منك عليهم (١٣٩) ٠

ويحذف للدلالة على الاختصاص ، كما فى قوله تعالى: (قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربى اذا لأمسكتم خشية الانفاق وكان الانسان قتورا) (١٤٠) ٠

---

(١٣٦) المائدة / ٤٥ ٠
(١٣٧) انظر (البرهان) ج ٣ ص ٢١٩ ٠
(١٣٨) الصافات / ١٧٥ - ١٧٩ ٠
(١٣٩) انظر (البرهان) ج ٣ ص ١٦٧ - و (الكشـاف) ج ٣ ص ٣٥٧ ٠
(١٤٠) الاسراء / ١٠٠ ٠

قال الزمخشرى : (تقـــديره ـ لو تملكون تملكون ـ فأضمر تلك اضمارا على شريطة التفســـير ، وأبـدل من الضمير المتصل الــذى هو الواو ضمير منفصـــل ، وهو (أنتم) لسـقوط ما يتصـل به من اللفظ (فأنتم) فـــاعل الفعل المضمر ، و (تملكون) تفسيره ، وهذا هو الوجـــه الذى يقتضيه علم الاعراب ، فأما ما يقتضيه علم البيـان ، فهو أن (أنتم تملكون) فيه دلالة على الاختصـــاص ، وأن الناس هم المختصون بالشح المتبالغ ٠٠٠ وذلك لأن الفعل الأول لما سقط ، لأجل المفسر ، برز الكلام فى صورة المبتدأ والخبر) (١٤١) ٠

ويحذف للتوكيد والاهتمام ، كمـا فى قـوله تعـالى : (فاذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب) (١٤٢) ، فقـــد حذف الفعل ، وأقيم المصدر مقامه ، واقامة المصدر فى مثل هذا توكيد له ، واهتمام بأمره ، اذ التصريح به ، استغناء عن الفعـل ، دل على الاهتمـام به من كونه مفهـــوما من الفعل (١٤٣) ٠

ومن حذف الفعل قوله تعالى : (واذا سألك عبـــادى عنى فانى قريب) (١٤٤) ٠

فان التقدير : (فقل انى قريب) ، لأن عادة الســؤال يجىء جوابه فى القرآن بـ (قل) ، وانما حذف الفعـــل

---

(١٤١) انظر (الكشاف) جـ ٢ ص ٤٦٨ ٠
(١٤٢) محمد / ٥ ٠
(١٤٣) انظر (الأقصى القريب) ص ٦٣ ٠
(١٤٤) البقرة / ١٨٦ ٠

هنا للاشارة الى أن العبد في حالة الدعاء في أشرف المقامات ، لا واسطة بينه وبين مولاه (١٤٥) ٠

ويحذف القرآن المفعول ، عندما يكون المراد الاقتصار على اثبات المعانى ، التى اشتقت منها الأفعال لفاعليها ، من غير تعرض لذكر المفعولين ، فيصبح الفعل المتعدى ، كغير المتعدى ، والغرض من هذا الحذف المبالغة بترك التقييد ، وتعظيم الفعل لأن الاهتمام به ، لا بالمفعول ٠

ومن شواهد هذا الضرب قوله تعالى : (قل هل يستوى الذين يعملون والذين لا يعلمون) (١٤٦) ، اذ المعنى : أيستوى من له علم ، ومن لا علم عنده ، من غير أن يقصد النص على معلوم ٠

وقوله تعالى : (وأنه هو أضحك وأبكى ٠ وأنه هو أمات وأحيا) (١٤٧) ٠

وقوله تعالى : (وأنه هو أغنى وأقنى) (١٤٨) ، فالمعنى : هو الذى منه الاضحاك والابكاء ، والاماتة والاحياء ، والاغناء والاقناء ، فالغرض هنا اثبات الفعل للفاعل ٠

ومن شواهد هذا الضرب أيضا قوله تعالى : (ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ووجد من دونهم امرأتين تذودان قال ما خطبكما قالتا لا نسقى حتى

---

(١٤٥) انظر (الاتقان) ج ٣ ص ٣٨٨ ٠
(١٤٦) الزمر / ٩
(١٤٧) النجم / ٤٣ ، ٤٤ ٠
(١٤٨) النجم /٤٨ ٠

يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير فسقى لهمـا ثم تولى الى الظل فقال رب لمـا أنزلت الى من خير فقير) (١٤٩) .

قال عبد القاهر معلقا على هاتين الآيتين : (ففيهـا حذف المفعول فى أربعة مواضع ، اذا لمعنى وجد عليه أمـة من النـاس يسـقون أغنـامهم ، أو مواشيهم ، وامرأتين تذودان غنمهما ، وقالتـا لا نسقى غنمنا ، فسـقى لهما غنمهما ، ثم انه لا يخفى على ذى بصر أنـه ليس فى ذلك كله الا أن يترك ذكره ، ويؤتى بالفعل مطلقا ، وماذاك الا أن الغرض فى أن يعلم أنه كان من الناس فى تلك الحـال سقى ، ومن المرأتين ذود ، وأنهما قالتا : لا يكون منا سقى، حتى يصدر الرعاء ، وأنه كان من موسى عليه السلام ، من بعد ذلك سقى ، فأما ما كان المسقى ، أغنما أم ابلا ، أم غير ذلك ، فخارج عن الغرض ، وموهم خلافه ، وذلك أنه لو قيل : وجد من دونهم امرأتين تذودان غنمهما ، جـاز أن يكون لم ينكر الذود من حيث هو ذود ، بل من حيث هـو ذود غنم ، حتى لو كان مكان الغنم ابل لم ينكر الذود ... فاعرفه تعلم أنك لم تجد لحذف المفعول فى هذا النحو من الروعة والحسن ما وجدت ، الا لأن فى حذفه ، وترك ذكره فائدة جليلة ، وأن الغرض لا يصح الا على تركه) (١٥٠).

ويرى السـكاكى أن الحـذف فيـه للاختصـار مع الارادة (١٥١) .

---

(١٤٩) القصص /٢٣،٢٤ .

(١٥٠) انظر (دلائل الاعجاز) ص ١٢٤

(١٥١) انظر (مفتاح العلوم) ص ١٢٣ .

وأنا أميل الى رأى السبكاكى ، لأن الغنم ليست ساقطة من الاعتبار بالأصالة ، فان فيها ضعفا عن المزاحمة ، والمرأتان فيهما ضعف ، فاذا انضم الى ضعف المسقى ضعف الساقى ، كان ذلك أدعى للرحمة والاعانة ·

ويحذف للبيان بعد الابهام ، كما فى مفعول المشيئة والارادة ، ومنه قوله تعالى : (ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم) (١٥٢) ، وقوله تعالى : (ولو شاء الله لجمعهم على الهدى) (١٥٣) ، وقوله تعالى : ولو شاء لهداكم أجمعين) (١٥٤) ، اذ التقدير : (لو شاء الله أن يفعل ذلك لفعل) ·

ومن حذف مفعول الارادة قوله تعالى : يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم) (١٥٥) ، وانما حذفه ، لأن فى الآية التى قبلها ، ما يدل على أنهم افتروا الكذب ، وهو بزعمهم اطفاء نور الله ، فلو ذكر أيضا ، لكان كالمكرر ، فحذف ، وفسر بقوله : (ليطفئوا نور الله بأفواههم) ، وكان فى هذا الحذف تنبيه على هذا المعنى الغريب (١٥٦) ·

وينبغى أن يتمهل فى تقدير مفعول المشيئة ، فانه يختلف المعنى بحسب التقدير : ألا ترى الى قوله تعالى : (ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها) (١٥٧) ، فان التقدير ،

---

(١٥٢) البقرة / ٢٠ ·
(١٥٣) الأنعام / ٣٥ ·
(١٥٤) النحل / ٩ ·
(١٥٥) الصف / ٨ ·
(١٥٦) انظر (الأقصى القريب) ص ٦٧ ·
(١٥٧) السجدة / ١٣ ·

كما قال عبد القاهر الجرجاني : (ولو شـــئنا أن نؤتى كل نفس هداها لآتيناها ، لا يصــح الا على ذلك لأنــه ان لم يقدر هذا المفعول ، أدى والعياذ بالله الى أمر عظيم ، وهــو نفى أن يكون لله مشيئة على الاطلاق ، لأن من شـــأن (لو) أن يكون الاثبـــات بعدها نفيــا ، ألا تــرى أنك اذا قلت : لو جئتنى أعطيتــك) كان المعنى عـــلى أنه لم يكن مجىء ولا اعطاء) (١٥٨) ٠

ويستثنى من هذه القاعدة أمور : **أحدها :** ما اذا كان مفعول المشيئة عظيما ، أو غريبا ، فانه لا يحذف ، كقـــوله تعالى : (لو أراد الله أن يتخذ ولدا لاصطفى مما يخـــلق ما يشاء سبحانه هو الله الواحد القهار) (١٥٩) ، أراد ، رد قول الكفار : (اتخذ الله ولدا) بما يطـــابقه فى اللفظ ، ليكون أبلغ فى الرد ، لأنه لو حذفه فقـــال : (لو أراد الله لاصطفى) ٠

لم يظهر المعنى المراد ، لأن الاصطفاء قد لا يكـــون بمعنى التبنى ، ولو قـــال : (لو أراد الله لاتخـــذ ولدا) ، لم يكن فيه ما فى اظهاره من تعظيم جرم قائله (١٦٠) ٠

الثانى : اذا احتيج لعود الضمير عليه ، فانه يذكر ، كقـــوله تعالى : (لو أردنا أن نتخذ لهوا لاتخذناه من لدنا ان كنا فاعلين) (١٦١) ، فانه لو حذف ، لم يبـــق للضمير ما يرجع عليه ٠

---

(١٥٨) انظر (دلائل الاعجاز) ص ١٩٤ ٠
(١٥٩) الزمر / ٤ ٠
(١٦٠) انظر (الأقصى القريب) ص ٦٧ ٠
(١٦١) الأنبياء / ١٧ ٠

الثالث : أن يكون السامع منكرا لذلك ، أو كالمنكر ، فيقصد الى اثباته عنده فان لم يكن منكرا فالحذف ٠

ويحذف لقصد التعميم ، كما فى قوله تعالى : (والله يدعـــوا الى دار السلام ، ويهـدى من يشـاء الى صراط مستقيم) (١٦٢) ، أى (كل أحد) ، لأن الدعوة عـــامة ، والهداية خاصة ، وكما فى قوله تعالى : (واذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون) (١٦٣) ، (فكال ووزن) يتعـديان الى مفعولين : **أحدهما** باللام ، والتقـــدير : كالوا لهم ووزنوا لهم) ، ، وحذف المفعول الثانى للتعميم ٠

ويحذف لقصد الاختصار عند قيام القـــرائن ، ومنه قوله تعالى : (قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيا ما تدعو فله الأسـماء الحسنى) (١٦٤) ، على أن الدعـــاء بمعنى التسمية ، التى تتعدى الى مفعـولين ، أى (سـمـوه الله ، أو سموه الرحمن ، أياما تسموه فله الأسماء الحسنى) ، اذ لو كان المراد بمعنى الدعاء ، الدعاء المتعدى لواحـد ، لزم الشرك ، ان كان مسى (الله) غير مسمى (الرحمن) ، وعطف الشيىء على نفسه ، ان كان عينه ٠

ويحذف لتقم مثله فى اللفظ ، كما فى قوله تعـــالى : (يمحو الله ما يشاء ويثبت) (١٦٥)، أى (ويثبت مايشاء)، فلما كان المفعول الثانى بلفظ الأول فى عمومه ، واحتياجه الى الصلة ، جاز حذفه ، لدلالة ما ذكر عليه ٠

---

(١٦٢) يونس / ٢٥ ٠
(١٦٣) المطففين / ٣ ٠
(١٦٤) الاسراء / ١١٠ ٠
(١٦٥) الرعد / ٣٩ ٠

ويحذف لقصد الاحتقار ، كما فى قوله تعالى : (كتب الله لأغلبن أنا ورسلى) (١٦٦) ، أى (الكفار) ، فحذف المفعول ، لاحتقاره وامتهانه ·

ويحذف للتخفيف ، ومنه قوله تعالى : (فعال لما يريد) (١٦٧) ، أى (يريده) وقوله تعالى : (فغشاها ما غشى) (١٦٨) ، أى (غشاها اياه) ·

فحذف المفعول فى الآيتين ، تخفيفا لطول الكلام بالصلة ، ولولا ارادة المفعول — وهو الضمير — لخلت الصلة من ضمير يعود على الموصول ، فالدلالة عليه من وجهين : اقتضاء الفعل له ، واقتضاء الصلة ، اذ كان العائد ·

ويحذف لرعاية الفاصلة ، كما فى قوله تعالى : (والضحى والليل اذا سجى ما ودعك ربك وما قلى) (١٦٨) ، أى وما قلاك) ، فحذف المفعول ، لأن فواصل الآى على الألف ·

ويحذف القرآن (الجار والمجرور) — وهو مفعول حكمى — كما فى قوله تعالى فى ذكر حجاج اليهود : (واذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله قالوا نؤمن بما أنزل علينا ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصدقا لما معهم قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبل ان كنتم مؤمنين)(١٧٠) ·

---

(١٦٦) المجادلة / ٢١ ·
(١٦٧) البروج / ١٦ ·
(١٦٨) النجم / ٥٤ ·
(١٦٩) الضحى / ١ ، ٢ ، ٣ ·
(١٧٠) البقرة / ٩١ ، ٩٢ ، ٩٣ ·

فقد طوى ذكر المنزل عليـه ، فلم يقل : آمنـــوا بمــا أنزل الله (على محمـــد) مع أن هذا جـــزء متمم لوصف القرآن المقصود بالدعوة ، لأنه لو ذكر لكان فى نظر الحكمة البيانية زائدا ، وفى نظر الحكمة الارشادية مفسدا . أمـا الأول فلأن هذه الخصوصية ، لا مدخل لها فى الالـزام ، فأدير الأمر على القدر المشترك ، وعلى الحد الأوسط الذى هو عمود الدليل . وأما الثانى فلأن القاء هذا الاسم على مسـامع الأعـداء من شأنه أن يخـــرج أضغانهم ، ويثير أحقادهم ، فيؤدى الى عكس ما قصده الداعى ، من التأليف والاصلاح .

ذلك الى ما فى هذا الحذف من الاشارة الى طـــابع الاسلام ، وهو أنه ليس دين تفريق وخصومة ، بل هو جامع ما فرقه الناس من الأديان ، داع الى الايمان بالكتب كلهـا على سواء : بما أنزل على ابراهيم واسماعيل واســـحاق ويعقوب والأسباط ، وما أوتى موسى وعيسى والنبيـون من ربهم . لا نفرق بين شيىء من كتبه ، كما لا نفرق بين أحد من رسله (١٧١) .

ويحذف القسم كثيرا فى القرآن الكريم ، ومنـه قوله تعالى : (لقد صـدق الله رسـوله الرؤيـا بالحق لتدخلن المسـجد الحـــرام ان شاء الله آمنين محلقين رءوســـكم ومقصرين لا تخافون فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحا قريبا) (١٧٢) .

---

(١٧١) انظر (النبأ العظيم) ص ١٢٠ .
(١٧٢) الفتح / ٢٧ .

وقوله تعالى : (لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا انا نصارى ذلك بأن منهم قسسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون) (١٧٣) ٠

فالقسم فى الآيتين محذوف ، تقديره : والله ، أوغير ذلك مما شاء الله أن يقسم به ، والموجود بعد حذفه صورة جوابه ، لو كان موجودا ، ولا يحتمل غير ذلك ، ووجوده دليل على القسم ، وفائدته : الاختصار فى اللفظ ، وكون التوكيد أخف ، ولا يلحق المتكلم به من التشديد ، ما يلحق من تلفظ بالاسم المعظم ، مقسما به ، وهذا المعنى شرعى ، فلا يلحق غير المكلف ، وهو مما تواطأ عليه العرب ، فانه شرع فيهم ، ورضوا به ، واصطلحوا عليه (١٧٤) ٠

وكثيرا ما يحذف جواب القسم فى القرآن ، كقوله تعالى : (والفجر ٠ وليال عشر ٠ والشفع والوتر ٠ والليل اذا يسر ٠ هل فى ذلك قسم لذى حجر ٠ ألم تر كيف فعل ربك بعاد ٠ ارم ذات العماد ٠ التى لم يخلق مثلها فى البلاد) (١٧٥) ٠

وقوله تعالى : (ق والقرآن المجيد ٠ بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا شيىء عجيب ٠ أئذا متنا وكنا ترابا ذلك رجع بعيد) (١٧٦) ٠

---

(١٧٣) المائدة / ٨٢ ٠

(١٧٤) انظر الأقصى القريب) ص ٦٤ ٠

(١٧٥) الفجر / ١ ـ ٨ ٠

(١٧٦) ق / ١ ـ ٣ ٠

وقوله تعالى : والنازعات غرقا · والناشطات نشطا · والسابحات سبحا · فالسابقات سبقا · فالمدبرات أمـرا · يوم ترجف الراجفة · تتبعها الرادفة) (١٧٧) ·

فجواب القسم فى ذلك كله محذوف ، يفهم من السورة التى ورد فيها هذا القسم ، وان فى هذا الحذف بعث النفس على التفكير ، لتهتدى الى الجواب ، وتظل النفس تتبع هذه الآيات ، يتلو بعضها بعضا ، تستوحى منها هذا الجواب ، الذى لابد أن يكون شيئا عظيما ، يقسم عليه الله ، واذا أنت تتبعت آيات السور رأيتها حديثا عن البعث ، وتعجبـا من منكريه ، مما يؤذن بأن هذا القسم وارد لتأكيده ، وأنـه سيكون لا محالة ، أو لا ترى فى حذف هذا الجـواب دلالة على مثوله فى الذهن ، لشـدة ما شـغل النفس ، واستأثر بعميق تفكيرها ، يـوم نزل القـرآن مؤكدا مجىء اليـوم الآخر (١٧٨) ·

وتحذف أداة الشرط والجملة التى تليها فى القـرآن ، كما فى قوله تعالى : (لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانـكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الايمان فكفارته اطعـام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام ذلك كفارة أيمانكم اذا حلفتم واحفظوا أيمانكم كذلك يبين الله لكم آياته لعـلكم تشـكرون) (١٧٩) ·

---

(١٧٧) النازعات / ١ ـ ٧ ·

(١٧٨) انظر (من بلاغة القرآن) ص ١٢٥ ·

(١٧٩) المائدة / ٨٩ ·

فقد حذف فى هذه الآية الكريمة أداة الشرط والجملة التى تليهـا ، والتقـدير : (فإن عقـــدتم اليمين وحنثتم) والدليل على المحذوف ذكر المؤاخذه ، فانها ليست على عقد اليمين ، وانما هى على الحنث ، وفى قوله فى آخر الآية : (واحفظوا أيمانكم) أيضا دليل على ذلك ، وليس فى ذلك شيىء هو عوض عن المحذوف ، وفائدة الحـــذف ها هنا الاختصار ، وايلاء المؤاخذة والكفارة عقـــد اليمين التى تتعرض للحنث ، وليتجنب ذلك فى غير الضرورة (١٨٠) ٠

ومن ذلك قوله تعالى : (ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من اله اذا لذهب كل اله بما خلق ولعلا بعضهم عـــلى بعض سبحان الله عما يصفون) (١٨١) ٠

فقد حذف فى هذه الآية أيضا أداة الشرط والجمـلة التى تليها ، والتقدير : (لو كان ذلك) ويدل على المحذوف اللام التى فى قوله : (لذهب) ، اذ لا محمل لها على غـــير جواب (لو) ، وقد عوض عن المحذوف بكلمة (اذا) ، وانما حذف هنا تعظيما للتلفظ بذلك ، فضلا عن اعتقـــاده ، وابقاء لنفيه غير مقارن لما يناقضه لفظا (١٨٢) ٠

وكذلك يحذف فى القرآن جواب – لو ، ولولا ، ولما ، واذا ، ويورث هذا الحذف الكلام قوة وشدة أسر ، بمـــا يشتمل عليه من الأسرار واللطائف ٠

---

(١٨٠) انظر (الأقصى القريب) ص ٦٤ ٠

(١٨١) المؤمنون / ٩١ ٠

(١٨٢) انظر (الكشاف) ج ٣ ص ٤٠ ، ٤١ – و (الأقصى القريب) ص ٦٥ ٠

فمن شواهد حذف جواب (لو) قوله تعالى : (ولو ترى اذ فزعوا فلا فوت وأخذوا من مكان قريب) (١٨٣) ٠

فجواب (لو) هنا محذوف ، تقديره : (لرأيت أمرا عظيما ، وحالا هائلة) ، أو لا ترى فى هذا الحذف اشارة الى أن الجواب أمر عظيم ، يترك الى الخيال ادراكه ، أما اللفظ ، فلا يستطيع الاحاطة به ٠ (١٨٤) ٠

وقوله تعالى : (لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم ولاهم ينصرون)(١٨٥)

فجواب (لو) هنا محذوف أيضا ، وتقديره : (لو يعلمون هذه الأمور لما كانوا على تلك الصفات من الكفرو الاستهزاء والصدود والانكار) (١٨٦) ٠

وحذف هذا الجواب ، لتعينه ، فان من يعلم أنه سيعرض للنار ، فيشوى بها وجهه ، وظهره ، ولا يجد ناصرا ينصره ، ان لم يؤمن ، يعمل بكل قواه ، على أن يتقى هذه النار ٠

وقوله تعالى : (قالوا لقد علمت ما لنا فى بناتك من حق وانك لتعلم ما نريد قال لو أن لى بكم قوة أو آوى الى ركن شديد) (١٨٧) ٠

---

(١٨٣) سبأ / ٥١ ٠
(١٨٤) انظر (الكشاف) جـ ٣ ص ٢٩٦ ٠
(١٨٥) الأنبياء / ٣٨ ، ٣٩ ٠
(١٨٦) انظر (الطراز) جـ ٢ ص ١١٤ ٠
(١٨٧) هود / ٧٩ ، ٨٠ ٠

فجواب (لو) هنا محذوف كذلك ، وتقديره : (لو أن لى بكم قوة لفعلت بكم وصنعت) (١٨٨) ٠

وفى حذفه هنا اخفاء لأمنية ، تجـول فى نفس لـوط عليه السلام ، كأنه لا يستطيع أن يبديها أمام قومه ٠

وقوله تعالى : (ولو أن قرآنا سيرت به الجبـال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى (١٨٩) ٠

فجواب (لو) هنا محذوف ٠ تقديره : (لكان هـذا القرآن) ، وحذفه هنا ، يشير الى أنه من الوضوح بمكان ، فلو أن قرآنا أوتى تلك القوة الخارقة ، لكان هذا القـرآن جديرا أن تكون له هذه القوة ، لكونه غـاية فى التذكير ، ونهاية فى الانذار والتخويف (١٩٠) ٠

ومن حذف جـواب (لولا) قوله تعـالى عقب آيـة اللعان : (ولولا فضل الله عليكم ورحمتـه وأن الله تواب حكيم) (١٩١) ٠

فجواب (لولا) هنا محذوف ٠ تقديره : (لنال الكاذب منكم أمر عظيم) ، وحذفه دال على أمر عظيم ، لا يكتنـه ، ورب مسكوت عنه أبلغ من منطوق به (١٩٢) ٠

---

(١٨٨) انظر (الكشاف) ج ٢ ص ٢٨٣ ٠
(١٨٩) الرعد / ٣١ ٠
(١٩٠) انظر (الكشاف) ج ٢ ص ٣٦٠ ٠
(١٩١) النور / ١٠ ٠
(١٩٢) انظر (الكشاف) ج ٣ ص ٥٢ ٠

وقوله تعالى : (ان الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا لهم عذاب أليم فى الدنيا والآخرة والله يعلم وأنتم لا تعلمون · ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله رءوف رحيم (١٩٣) ·

فجواب (لولا) هنا محذوف أيضا · تقديره : (لعجل عذاب فاعل ذلك) ، وحذفه هنا ، يثير فى نفس هؤلاء الذين يحبون أن تشيع الفاحشة الرهبة من عذاب الله الذى يشير اليه ما بعد (لولا) ·

ومن حذف جواب (لما) قوله تعالى : (فلما أسلما وتله للجبين · وناديناه أن يا ابراهيم · قد صدقت الرؤيا انا كذلك نجزى المحسنين) (١٩٤) ·

فجواب (لما) هنا محذوف · تقديره : فلما أسلما وتله للجبين ، كان هناك ما كان مما تنطق به الحال ، ولا يحيط به الوصف من رفع البلاء وكشف الكربة ، وازالة المحنة العظيمة ، والغبطة والسرور بامتثال أمر الله تعالى ، والزلفى عنده بالفوز برضوان الله · (١٩٥) ·

وفى هذا الحذف اشارة الى أن اللفظ ، لا يستطيع أن يصف ما أصاب ابراهيم وابنه عليهما السلام من المسرة والابتهاج ·

---

(١٩٣) النور / ١٩ ، ٢٠ ·
(١٩٤) الصافات / ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٠٥ ·
(١٩٥) انظر (الكشاف) ج ٣ ص ٣٤٨ و (الطراز) ج ٢ ص ١١٣ ، ١١٤ ·

ومن حذف جواب (اذا) قوله تعالى : (وسيق الذين اتقوا ربهم الى الجنة زمرا حتى اذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين) (١٩٦) ٠

فجواب (اذا) فى الآية الكريمة محذوف ، وحق موقعه ما بعد (خالدين) (١٩٧) وانما حذف ، لأنه فى صفة ثواب أهل الجنة ، فدل بحذفه على أنه شيىء عظيم لا يحيط به الوصف ، لأن وصف ما يجدونه ، ويلقونه عند ذلك ، لا يتناهى ، فجعل الحذف دليلا على ضيق الكلام عن وصف ما يشاهدونه ، وتركت النفوس ، تقدر ما شأنه ، ولا يقع مع ذلك كنه ما هنالك ، لقوله عليه الصلاة والسلام : (لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر) ٠

ومن حذف جواب (اذا) أيضا قوله تعالى) : (واذا قيل لهم اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم لعلكم ترحمون ٠ وما تأتيهم من آية من آيات ربهم الا كانوا عنها معرضين) (١٩٨) ٠

فجواب (اذا) هنا محذوف ، وكأن فى حذفه اشارة الى أنه معروف واضح عند المخاطبين ، لا يكاد يحتاج الى أن يذكر ، فضلا عما فى الآية الثانية من دلالة عليه ، فكأنه قيل : واذا قيل لهم اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم لعلكم ترحمون أعرضوا ، وبينت الآية التالية أن هذا الاعراض

---

(١٩٦) الزمر / ٧٣ ٠

(١٩٧) انظر (الكشاف) جـ ٣ ص ٤١١ ٠

(١٩٨) يس / ٤٥ ، ٤٦ ٠

سجية لهم ، فلا تكاد الآية تأتى اليهم حتى يعرضوا عنها (١٩٩) ٠

ويحذف جواب الأمر فى القرآن ، كما فى قوله تعالى : (فأوحينا الى موسى أن اضرب بعصاك الحجر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم) (٢٠٠) ٠

فجواب الأمر فى الآية الكريمة محذوف ٠ تقديره : (فضرب فانفلق) وفى هذا الحذف اشارة الى سرعة الامتثال وانفلاق البحر (٢٠١) ٠

ويحذف المضاف كثيرا فى القرآن ، فمنه قوله تعالى : (ومثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لا يسمع الا دعاء ونداء صم بكم عمى فهم لا يعقلون) (٢٠٢) ٠

ففى الآية الكريمة حذف المضاف ، وتقديره : (ومثل داعى الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لا يسمع) ، وانما حذف رفعا لشأنه فى اللفظ عن أن يقرن بهذا الذى ينعق بما لا يسمع ، ويبقى المراد ، وهو أن هؤلاء الكفار صم بكم عمى فهم لا يعقلون (٢٠٣) ٠

ومنه قوله تعالى : (ومن يفعل ذلك فليس من الله فى شيىء) (٢٠٤) ، فالمضاف هنا محذوف ٠ تقديره : (فليس

---

(١٩٩) انظر (الكشاف) جـ ٣ ص ٣٢٥ ٠
(٢٠٠) الشعراء / ٦٣ ٠
(٢٠١) انظر (الأقصى القريب) ص ٦٧ ٠
(٢٠٢) البقرة / ١٧١ ٠
(٢٠٣) انظر (الكشاف) جـ ١ ص ٣٢٨ - و (من بلاغة القرآن) ص ١٢٤ ٠
(٢٠٤) آل عمران / ٢٨ ٠

من موالاة الله فى شيىء) (٢٠٥) ، يعنى أنه منسلخ من ولاية الله رأسا ، وهذا أمر معقول ، فان موالاة الولى ، وموالاة عدوه متنافيان ورحم الله القائل :

تود عدوى ثم تزعم أننى
صديقك ليس النوك عنك بعازب

وحذف المضاف هنا قد أوحى الى أنفسنا معنى براءة الله منه ، وانقطاع الصلة بينه وبين الله تمام الانقطاع ٠

ومنه قوله تعالى : (مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة

حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم) (٢٠٦) ٠

فقد حذف المضاف هنا ، وتقديره : (كمثل باذر حبة) (٢٠٧) ، ولعل السر فى هذا الحذف ، هو اتجاه القرآن الى الصدقة نفسها ، والجزاء عليها هذا الجزاء المضاف ٠

وتحذف الصفة فى القرآن ، فمن ذلك قوله تعالى . (أما السفينة فكانت لمساكين يعملون فى البحر فأردت أن أعيبها وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا) (٢٠٨) ٠

---

(٢٠٥) انظر (الكشاف) جـ ١ ص ٤٢٢ ٠
(٢٠٦) البقرة / ٢٦١ ٠
(٢٠٧) انظر (الكشاف) جـ ١ ص ٣٩٣ ٠
(٢٠٨) الكهف / ٧٩ ٠

ففى الآية الكريمة حذفت الصفة بعد (سفينة) ، اذا المراد بها السفينة السالمة بدليل قوله : (فأردت أن أعيبها)، لأنه يدل على أن تعييبها مانع من أخذ الملك اياها ، فيفهم أنه انما يأخذ السالمة ، لأنه لو كان يأخذ كلا من المعيبة والسالمة ، لم تكن فائدة لعيبها (٢٠٩) ٠

وقد أوحى الينا هذا الحذف بأن الملك ، ينظر الى السفينة المعيبة ، كأنها فقدت حقيقتها ٠

ويحذف الموصوف فى القرآن أيضا ، ومن ذلك قوله تعالى : (ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين) (٢١٠) ، أى (القوم المتقين) ، فحذف الموصوف ، لأن الاهتمام بهذه الصفة وشيوعها ، أغنى عن ذكر الموصوف ههنا ، فلو ذكر فى مثل هذا الموضع ، لكان كالفضلة التى لا حاجة اليها (٢١١) ٠

ويحذف القرآن المسبب ، ويكتفى عنه بالسبب ، فمن ذلك قوله تعالى : (وما كنت بجانب الغربى اذ قضينا الى موسى الأمر وما كنت من الشاهدين) (٢١٢) ٠

فقد اكتفى بالقضاء ، الذى هو سبب الأمر عن ذكر المسبب ، وهو ما جرى لموسى عليه السلام ، وانما حذف

---

(٢٠٩) انظر (مواهب الفتاح) جـ ٣ ص ١٩٢ من شروح التلخيص٠

(٢١٠) البقرة / ٢ ٠

(٢١١) انظر (الأقصى القريب) ص ٦٢ ٠

(٢١٢) القصص / ٤٤ ٠

ذلك اختصارا لعلم النبى صلى الله عليــه وسلم بسببه من آيات أخر ، ولولا ذلك لم يحسن حذفه (٢١٣) ٠

ومن ذلك أيضا قوله تعالى : (فلا تغـرنكم الحيــاة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور) (٢١٤) ٠

معناه : لا تغتروا اذا غرتكم الحيــاة الدنيــا ، واذا غركم الشيطان ، فأجرى النهى على الغار ،والمنهى المغرور، وهذا من ألطف الحذف وأحسنه ، فان المعنى : لا يغرنــكم فتغتروا ، واكتفى عنه (بلا يغرنكم) فقط ، ومن المعــلوم أن الغار ليس بمنهى ، فلم يبق المنهى الا المغــرور ، فلو صرح بأمره ، لكان كالمكرر (٢١٥) ٠

ويحذف القرآن كذلك السبب ، ويكتفى عنه بالمسبب ، ومنه قوله تعالى : (فاذا قرأت القــرآن فاســتعذ بالله من الشيطان الرجيم) (٢١٦) ٠

المراد ــ والله أعلم ــ فاذا أردت قراءة القــرآن ، لأن الاستعاذة اجماعا متقدمة على القراءة ، وقد عطفها عــلى القراءة بالفاء التى حكمها التعقيب ، فدل على أن المعطوف عليه محذوف ، اكتفى عنه بالقراءة فالمناسب أن يكون سبب القراءة ، وهو الارادة ، وانما حذف هاهنا ، لأنه لو قال : أردت قــراءة القــرآن ، لاحتمــل أن يكون التعــوذ لمجــرد

---

(٢١٣) انظر (الكشاف) ج ٣ ص ١٨١ ــ و (الأقصى القريب) ص ٦٥ ــ و (الطراز) ج ٢ ص ٩٥ ، ٩٦ ٠

(٢١٤) لقمـان / ٣٣ ٠

(٢١٥) انظر (الأقصى القريب) ص ٦٥ ٠

(٢١٦) النحل / ٩٨ ٠

الارادة ، وانمـا هو للارادة مع القـراءة ، واذا قيـل : استعذ بالله قبل قراءتك ، احتمل أيضا أن تكون الاستعاذة للقراءة ، مرادة كانت ، أو غير مرادة ، فلا يسن التعـوذ أيضا ، فيلزم أن تكون الارادة مرادة ، ولو تلفظ بها لحصل اللبس ، كما ذكرنا ، فلزم أن تحـذف معوضا عنها بمسببها وهو القراءة (٢١٧) ٠

---

(٢١٧) انظر (الكشاف) ج ٢ ص ٤٢٨ - و (الأقصى القريب) ص ٦٦ ٠

الفصل الرابع

التوكيد

التوكيد من أهم العوامل ، لبث الفكرة فى نفوس الجماعات ، واقرارها فى أفئدتهم اقرارا ، ينتهى الى الايمان بها ، وقيمة التوكيد بدوام تكراره بالألفاظ عينها ما أمكن ، لأن الشيىء اذا تكرر رسخ فى الذهن رسوخا ، ينتهى بقبوله حقيقة ناصعة (١) ٠

ولقد استخدم القرآن الكريم التوكيد وسيلة لتثبيت المعنى فى نفوس قارئيه ، واقراره فى أفئدتهم ، حتى يصبح عقيدة من عقائدهم ، كما استخدمه يضا لأسرار بلاغية ، ولطائف أدبية ، لا يتم المعنى المقصود الا بها ٠

فنرى القرآن ، يؤكد صفات الله عز وجل ، حتى يستقر الايمان بها فى القلوب، فنسمعه يقول مكررا ومؤكدا فى كثير مما يكرره :

(ان الله على كل شيىء قدير) ٠ (ان الله واسع عليم) ٠ (ان الله سميع عليم) ٠ (ان الله عزيز حكيم) ٠ (ان الله غفور رحيم) ٠ (ان الله شديد العقاب) ٠ (ان الله سريع الحساب) ٠ (ان الله بما تعملون بصير) ٠ (ان الله يرزق من يشاء بغير حساب) ٠ (ان الله غنى عن العالمين) ٠

---

(١) انظر (روح الاجتماع) ص ١٣٩ ٠

فهذا التأكيد ، يقرر معانى هذه الصفات فى النفس ، واذا تكررت هذه الصفات فى النفس ، انبثق منها العمل الصالح ، المبنى على أساس من الايمان المكين ٠

ونراه يؤكد وعده ، ووعيده ، ليستقر الايمان به فى القلوب أيضا ، فيكرر مؤكداً قوله : (ان الله يحب المتقين) ٠ و (ان الله مع المتقين) فى مواضع شتى ، وقوله : (ان الله لا يحب الكافرين) ، و (ان الله لا يهدى القوم الكافرين) ٠

ونراه يؤكد كل خبر ، هو مجال للشك ، أو الانكار ، وكلما توغل الخبر فى ميدان الشك ، زادت ألوان المؤكدات ، وتأمل لذلك قوله تعالى : (واذا قيل لهم لاتفسدوا فى الأرض قالوا انما نحن مصلحون ٠ ألا انهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون ٠ واذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء ألا انهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون ٠ واذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا واذا خلوا الى شياطينهم قالوا انا معكم انما نحن مستهزئون) (٢) ٠

ألا تراهم عندما أنكروا الافساد فى الأرض والسفاهة، أكدوا اتصافهم بها بـ (ألا ، وان) ، وتعريف ركنى الجملة المؤذن بالقصر ، وضمير الفصل ، ولما كان اقرارهم للمؤمنين بالايمان بألسنتهم مبعثا للشك فى نفوس شياطينهم ، دفعهم ذلك الى تأكيدهم لهم الثبات على مبادئهم ، وأنهم لا يبغون عنها حولا (٣) ٠

---

(٢) البقرة / ١١ — ١٤ ٠

(٣) انظر (الكشاف) جـ ١ ص ١٨١ ، ١٨٤ ، ١٨٦ ٠

واقرأ قوله تعالى : (واضرب لهم مثلا أصحاب القرية اذ جـــاءها المرسلون • اذ أرسـلنا اليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث فقـالوا انا اليكم مرسلون • قـــالوا ما أنتم الا بشر مثلنـــا وما أنـزل الرحمن من شـــيء ان أنتـم الاتكذبون • قالوا ربنا يعلم انا اليكم لمرسلون) (٤) •

ألا ترى المرسلين ، قد أكدوا رسالتهم بـ (ان) عندما كذبهم أصحاب القرية ، فلما لج هؤلاء فى التكذيب زادوا فى تأكيد رسالتهم مؤكدا جديدا ، هو (اللام) ، وأشهدوا ربهم على صدق دعواهم (٥) •

وللتوكيد أساليب كثيرة فى القرآن الكريم ، فمنهـــا التوكيد المعنوى بـ (كل) ، وفائدة هذا اللون من التوكيد رفع ما يتوهم من عدم الشـمول ، كما في قوله تعـــالى : (فسجد الملائكة كلهم أجمعون) (٦) •

قال الزمخشرى : (كل للاحاطة ، وأجمعون للاجتماع، فأفادا معا أنهم سـجدوا عن آخـــرهم ، ما بقى منهم ملك الا سجد ، وأنهم سجدوا جميعـا فى وقت واحـــــد ، غير متفرقين فى أوقات) (٧) •

ومنها التوكيد اللفظى ، بأن يكرر السابق بلفظـــه ، اسما كان ، أو فعلا ، أو اسم فعل ، أو حرفا ، أو جملة ،

(٤) يس / ١٣ ـ ١٦ •
(٥) انظر (الايضاح) ص ١٦ •
(٦) ص / ٧٣ •
(٧) انظر (الكشاف) جـ ٣ ص ٣٨٢ •

كمـــا ترى ذلك فى قوله تعـــالى (كلا اذا دكت الأرض دكا دكا) (٨) ، وقوله : (فمهل الكافرين أمهلهم رويدا) (٩) وقوله : (هيهات هيهات لمـا توعدون) (١٠) ، وقـــوله : (أيعـــدكم أنكم اذا متم وكنتم ترابـا وعظـــاما أنـــكم مخرجون) (١١) ، وقوله ، (فان مع العسر يسرا ان مـع العسر يسرا) (١٢) ٠

ومنها تأكيد الضمير المنفصل بمثله ، كما فى قـــوله تعالى : (الذين يقيمـــون الصـــلاة ويؤتـــون الزكاة وهم بالآخرة هم يوقنون) (١٣) ٠

وتأكيد الضمير المتصل بالمنفصل ، كما فى قوله تعالى: (فلما أتاها نودى يا موسى ٠ انى أنا ربك فاخلع نعليك انك بالوادى المقدس طوى ٠ وأنا اخترتك فاســتمع لـمـا يوحى ٠ اننى أنـا الله لا الـه الا أنـا فاعبـــدنى وأقم الصـــــلاة لذكرى) (١٤) ٠

لمـا أتى موسى عليه السلام النار ، ولم يعلم حقيقتها قيل له : (انى أنا ربك) ، تحقيقا لأن المتـــكلم هو الرب ، لا النـــار ، ولا غـــيرها ، مما ليس ربا ، ثم قـــال : (وأنا اخترتك) ، عطفا على (أنا) قبـــله ، ولم يكرر (انى) ، استغناء بالأولى ، ثم قال : (فاستمع لمـــا يوحى) ، فذكر

---

(٨) الفجر / ٢١ ٠
(٩) الطارق / ١٧ ٠
(١٠) المؤمنـون / ٣٦ ٠
(١١) المؤمنـون / ٣٥ ٠
(١٢) الشرح / ٥ ، ٦ ٠
(١٣ لقمان / ٤ ٠
(١٤) طـه / ١١ ـ ١٤ ٠

الوحى الذى هو من أمر النبوة التى يحتـــاج صاحبها الى التحقيق والقطـــع بأنه كذلك ، ثم قال بعـد ذلك : (اننى أنا الله لا اله الا أنا فاعبدنى) ، فأتى بنون الوقاية توكيدا لتحقيق (ان) ، وأتى بالضميرين توكيدا ، لأن المنادى الله، وأن المراد بالرب المذكور قبـــله الله ، لا ما يحتمـــل لفظ (الرب) ، مما سوى الله ، ثم وكد ذلك بقوله : (لا اله الا أنا) ، فأذهب التوهم من كل وجه (١٥) ٠

وكما فى قوله تعالى : (قـــالوا يا موسى اما أن تلقى وأما أن نكون نحن الملقين) (١٦) ، ولعل السر فى تأكيدهم، هو الشعور بثقتهم بأنفسهم ٠

وكمـــا فى قوله تعـــالى : (قلنـــا لا تخف انـــك أنت الأعلى) (١٧) ، وفى ذلك التأكيد تثبيت قلب موسى عليـــه السلام ، وبعث الطمأنينة اليه (١٨) ٠

ومنها تأكيد الفعل بمصدره ، ويكون ذلك فى الأمـــور التى يتوهم فيها المجاز ، فيأتى الفعل لرفع هذا التـــوهم ، وتأمل ذلك فى قوله تعالى : (وكلم الله موسى تكليما)(١٩)، فقد يطلق الكلام على الايحـــاء ، وينصرف الذهن اليـــه ، فجاء المصدر لازالة هذا التوهم (٢٠) ٠

---

(١٥) انظر (الأقصى القريب) ص ٧١ ٠
(١٦) الأعراف / ١١٥ ٠
(١٧) طـه / ٦٨ ٠
(١٨) انظر (الكشاف) جـ ٢ ص ٥٤٤ ٠
(١٩) النساء / ١٦٤ ٠
(٢٠) انظر (تفسير ابى السعود) جـ ١ ص ٨١٦ ٠

وتأمله أيضا فى قوله تعالى : (ان عذاب ربك لواقع · ماله من دافع · يوم تمور السماء مورا · وتسير الجبـال سيرا) (٢١) ·

أولا ترى أن فى اضطراب السماء ، وسير الجبـال ، مما قد تتردد النفس فى قبـوله ، فجىء بالمصدر ، تأكيدا لوقوعه (٢٢) ·

وقد يؤكد الفعل بمصدر فعل آخر ، نيابة عن المصدر ، كما فى قوله تعـالى : (واذكر اسم ربك وتبتـل اليـه تبتيلا (٢٣) ، وفى ذلك دلالة على ما للتبتيـل من أثر فى استجلاب رضوان الله ، فأمر به مؤكدا ، والسر فى العدول الى هذا المصدر ، هو مراعاة حق الفواصل (٢٤) ·

ومن أساليب التوكيـد فى القرآن : تعقيب الـكلام بمصدر معظم بمن أضيف اليه ، توكيدا لما فى ذلك الـكلام من الحكم والمعانى ، وغير ذلك ، مما يعظم فى بابه خـيرا كان ، أو شرا · ومنه قوله تعالى : (وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب صنع الله الذى أتقن كل شيىء انه خبير بما تفعلون) (٢٥) ·

لما كانت الجبال ترى جامدة ، وهى تمر مر السحاب لسرعة حركتها ، وهى لا ترى ، وكان ذلك أمرا عظيمـا ،

---

(٢١) الطور / ٧ ـ ١٠ ·
(٢٢) انظر (من بلاغة القرآن) ص ١٤٦ ·
(٢٣) المزمل / ٨ ·
(٢٤) انظر (الكشاف) جـ ٤ ص ١٧٧ ·
(٢٥) النمل / ٨٨ ·

تحار فيه العقول ، وكده بقوله : (صنع الله ، ثم وصف نفسه بأنه المتقن لكل شيء (٢٦) ٠

ومنه قوله تعالى : (فان آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا وان تولوا فانما هم فى شقاق فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون) (٢٧) ٠

لما ذكر خلق الايمان فى قلب من آمن ، وسماه هدى ، وذكر صد من تولى ، ولم يؤمن ، وسماه شقاقا ، ووعد نبيه صلى الله عليه وسلم بقوله : (فسيكفيكهم الله) ، وكان هذا الأمر مما لا يقدر عليه الا الله ، ففى هدى بعض الناس حكمة خفية ، لا يكاد يطلع عليها ، نسب ذلك الى فعله ، بقوله تعالى : (صبغة الله) ، وفى هذا رد على القدرية ، وعقب ذلك بقوله : (ومن أحسن من الله صبغة) ، توكيدا لهذا المعنى ، واعلاما بأن الحكمة فى ذلك ، وان خفيت ، فهى فوق قدرة البشر (٢٨ ٠

ومنها التوكيد بضمير الفصل ، وهو فى القرآن كثير ، ومن أمثلته قوله تعالى : (وأن الى ربك المنتهى ٠ وأنه هو أضحك وأبكى ٠ وأنه هو أمات واحيا ٠ وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى ٠ من نطفة اذا تمنى ٠ وأن عليه النشأة الأخرى ٠ وأنه هو أغنى وأقنى ٠ وأنه هو رب الشعرى ٠ وأنه أهلك عادا الأولى ٠ وثمود فما

---

(٢٦) انظر (الأقصى القريب) ص ٨٠ — و (تفسير أبى السعود) جـ ٤ ص ٢٨٧ ٠

(٢٧) البقرة / ١٣٧ ، ١٣٨ ٠

(٢٨) انظر (الأقصى القريب) ص ٨٠ ٠

أبقى ٠ وقوم نوح من قبل انهم كانوا هم أظلم وأطغى)(٢٩)

وقد استخدم القرآن هنا ضمير الفصل فى الأفعـــال التى هى مظنة الاشتراك ، كما ترى ذلك فى جملة الاضحاك والابكاء ، والاماتة والاحيـــاء ، والاغناء والاقناء ، أما حيث لا تدعى الشركة ، فـلا حاجة الى هذا الضمير ، كما ترى في جمل خلق الزوجين ، والنشأة الأخرى ، واهـلاك عاد الأولى (٣٠) ٠

ومن أمثلته أيضا قوله تعالى : (قال أفرأيتم ما كنتم تعبدون ٠ أنتم وآباؤكم الأقدمون ٠ فانهم عـدو لى الا رب العالمين ٠ الذى خلقنى فهو يهـــدين ٠ والذى هو يطعمنى ويسقين ٠ واذا مرضت فهو يشـــفين ٠ والذى يميتنى ثم يحيين ٠ والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين)(٣١)٠

وترى هنا ما رأيتـــه فى الآية الماضـــية من المجىء بضمير الفصل ، حيث يتوهم فى الفعل شركة ، كمـــا فى الهداية ، والاطعـام ، والشـفاء ، أما حيث لا يتـوهم تلك الشركة ، فلا يأتى ضمير الفصل ، كما فى الخلق والامانة والاحياء (٣٢) ٠

ويقوى التوكيـد فى ضمير الفصـــل ، حتى يدل على القصر والاختصاص ، كما ترى ذلك فى الآيتين السابقتين ،

---

(٢٩) النجم / ٤٢ ـ ٥٢ ٠

(٣٠) انظر (الأقصى القريب) ص ٧١ ـ و (من بلاغة القـرآن) ص ١٥٢ ٠

(٣١) الشعراء / ٧٥ ـ ٨٢ ٠

(٣٢) انظر (تفسير أبى السعود) جـ ٤ ص ٢١٨ ، وما بعدها ٠

فان ضمير الفصل ، نفى الشركة ، وجعل الفعل خاصا بالله وحده ·

ونلمس القصر الذى أفاده ضمير الفصل فى قوله تعالى : (ما قلت لهم الا ما أمرتنى به أن اعبد الله ربى وربكم وكنت عليهم شهيدا مادمت فيهم فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيىء شهيد) (٣٣) ·

فبعد وفاة عيسى عليه السلام ، لم يكن الرقيب عليهم سوى الله وحده (٣٤) ·

ونلمسه أيضا فى قوله تعالى : (لا يستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون) (٣٥)·

فانه ذكر لتبيين عدم الاستواء ، وذلك لا يحسن الا بأن يكون الضمير للاختصاص ·

ونلمسه كذلك فى قوله تعالى : (أم اتخذوا من دونه أولياء فالله هو الولى) (٣٦) ·

فان ضمير الفصل ، نفى الشركة ، وجعل الولاية خاصة بالله وحده (٣٧) ·

ومنها التوكيد بضمير الشأن من ناحية أنه يثير النفس ، ويدفعها الى معرفة المراد منه ، فاذا جاء تفسيره ، استقر هذا التفسير فى النفس ، وتأكد فيها ·

---

(٣٣) المائدة / ١١٧ ·
(٣٤) انظر (تفسير أبى السعود) ج ٢ ص ١٥٧ ·
(٣٥) الحشر / ٢٠ ·
(٣٦) الشورى / ٩ ·
(٣٧) انظر (الكشاف) ج ٣ ص ٤٦١ ·

وليس بكثير استخدام هذا الضمير فى القرآن ، وانما يكون فى المواضع التى يراد بهـا تفخيم أمر وتعظيمه ، عن طريق ابهامه ، ثم ايضاحه ٠

ومن أمثلته قوله تعالى : (قل هو الله أحد) (٣٨) ٠

وقوله تعالى : (فانها لا تعمى الأبصـار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور) (٣٩) ٠

وقوله تعـالى : (فاذا هى شاخصة أبصـار الذين كفروا) (٤٠) ٠

ومنها التوكيـد بـ (ألا ، وهـا) التنبيهيتين ، ومن أمثلتهما قوله تعـالى : (ألا يوم يأتيهـم ليس مصروفـا عنهـم) (٤١) ، وقـوله : (ها أنتـم أولاء تحبـونهم ولا يحبونكم) (٤٢) ٠

ويبدو أن منشأ التوكيد فى البدء بهاتين الأداتين ، يعود الى ما فيهما من تنبيه السامع الى ما سيرد بعـدهما من أخبار ، وتهيئته لسماعها ، وذلك لا يكون الا حيث يعتنى بهذه الأخبار ، لتستقر فى النفس ، وتثبت بها (٤٣) ٠

وقد يكون التوكيد لقصد الترغيب ، كما ترى ذلك فى قوله

---

(٣٨) الاخلاص / ١ ٠
(٣٩) الحج / ٤٦ ٠
(٤٠) الأنبياء / ٩٧ ٠
(٤١) هود / ٨ ٠
(٤٢) آل عمران / ١١٩ ٠
(٤٣) انظر (من بلاغة القرآن) ص ١٥١ ٠

تعالى : (ذلكم خير لكم عند بارئكم فتاب عليكم انه هو التواب الرحيم) (٤٤) .

فقد أكد هذه الصفة بأربع تأكيدات ، وهى (أن) ، وضمير الفصل ، والمبالغتان مع الصفتين ، لترغيب العباد فى التوبة ، والرجوع الى الله سبحانه ، لأنهم اذا علموا ذلك طمعوا فى عفوه (٤٥) .

وقد يكون التوكيد للاعلام بأن المخبر به كله من عند المتكلم ، كقوله تعالى : (فاما يأتينكم منى هدى) (٤٦) ، دون الاقتصار على (يأتينكم هدى) قال المفسرون : فيه اشارة الى أن المخبر كله منه (٤٧) .

وعليه قوله تعالى : (قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما فى الصدور) (٤٨) .

وقوله تعالى : (قد جاءكم برهان من ربكم) (٤٩) .

وقد يكون التوكيد لقصد تحقيق المخبر به ، كقوله تعالى : (انى جاعل فى الأرض خليفة) (٥٠) .

فأكد بـ (ان) ، وباسم الفاعل ، مع أنهم ليسوا بشاكين فى الخبر (٥١) .

---

(٤٤) البقرة / ٥٤ .
(٤٥) انظر (البرهان) ج ٢ ص ٣٨٩ .
(٤٦) البقرة / ٣٨ .
(٤٧) انظر (البرهان) ج ٢ ص ٣٨٩ .
(٤٨) يونس / ٥٧ .
(٤٩) النساء / ١٧٤ .
(٥٠) البقرة / ٣٠ .
(٥١) انظر (البرهان) ج ٢ ص ٣٨٩ .

وعليه قوله تعالى : (انك ميت وانهم ميتون) (٥٢) ·

وقوله تعـالى : (انك ان تذرهم يضـلوا عبـادك ولا يلدوا الا فاجرا كفارا) (٥٣) ·

وقد يكون التوكيد للحـكاية ، كما فى قوله تعـالى : (ويقول الانسان أئذا ما مت لسوف أخرج حيا) (٥٤) ·

فقد يبدو أن اللام لاموضع لها هنـا ، لأن الانسـان المتحدث منكر للبعث ، ولكن التأمل يبين أن هذا الانسـان المنكر ، انما يحكى ما حدثه به النبى صلى الله عليه وسلم، حين أكد هذا البعث ، فنزلت الآية على ذلك (٥٥) ·

وقد يكون التوكيـد لقصـد اغـاظة السـامع بذلك الخـبر (٥٦) ، كمـا فى قـوله تعـالى : (انك لمن المرسلين) (٥٧) ·

وقد يكون التوكيد للدلالة على أن المتـكلم كان يظن أمرا ، فحدث خلافه ، فيأتى بهذا التوكيد ، ليرد على نفسه ظنه ، وكأنه يريد لهذه النفس ، أن يستقر فيها هـذا النبـأ الجديد ، الذى لم تكن تتوقعه ، بل تتوقع سواه ، وكأنهـا تريد أن تخلى مكانا من القلب ، قد شغل بخاطر ، لتحـل فيه خاطرا جديدا ، وتأمل قوله تعالى حكاية عن أم مريم :

---

(٥٢) الزمر / ٣٠ ·
(٥٣) نوح / ٢٧ ·
(٥٤) مريم / ٦٦ ·
(٥٥) انظر (الاتقان) جـ ٢ ص ٢٢٠ ·
(٥٦) انظر (البرهان) جـ ٢ ص ٣٨٩ ·
(٥٧) يس /٣ ·

(قالت رب انى وضعتها أنثى والله أعلم بما وضعت)(٥٨)٠

فأم مريم كان الأمل يمــلأ قلبهــا فى أن تلد ذكــرا ، نذرته لله ، ولطول ما شغلها هذا الأمل ، تجسم فى خيالها ، حتى صار كأنه حقيقة واقعة ، فلما وضعت مريم ، فوجئت، فأرادت أن تقر هذا الأمر الجديد فى قلبهــا ، حتى تروض نفسها عليه ، وتستسلم لما كان ٠ وكذلك قوله تعالى حكاية

عن نوح عليه السلام : (قال رب ان قومى كذبون) (٥٩) ٠
فلم يكن نوح يتوقع أن يكذبه قومه ، وقد جاءهم من ربهم بالنور والهدى ، فكان تكذيبهم صدمة له ، يريــد أن يوطن عليها نفسه (٦٠) ٠

وقد يؤكد القرآن أمرا ، هو من البداهة بمكان لأنــه يرمى من وراء ذلك الى هدف سام ، تتبينه النفس ، عندما تتدبر أمر هذا التوكيد ، لترى ما موقعــه ؟ ، ولم كان ؟ ، وتأمل قوله تعالى : (ثم انكم بعد ذلك لميتون) (٦١) ٠

أكد اثبات الموت تأكيــدين ، وان كان مما لا ينــكر ، لتنزيل المخاطبين لتمـــاديهم فى الغفلة منزلة من يبالغ فى انكار الموت ، لكى يفكروا فى الموت ، وفيما يتطلبه نزوله بهم من عمل صالح ، ينفعهم بعد هذا الموت (٦٢) ٠

---

(٥٨) آل عمران / ٣٦ ٠
(٥٩) الشعراء / ١١٧ ٠
(٦٠) انظر (من بلاغة القرآن) ص ١٥٠ ٠
(٦١) المؤمنون / ١٥ ٠
(٦٢) انظر (الايضاح) ص ١٨ – و (من بلاغة القرآن) ص ١٤٧٠

الفصل الخامس

التعـريف

استخدم القرآن الكريم ألوان المعارف في مواضعها الدقيقة الجديرة بها ، لأسرار بلاغية ولطائف أدبية ، تكسب المعنى قوة وحسن بيان .

فاستخدم الضمير الذى يجمع بين الاختصار الشديد، والارتباط المتين بين جمل الآية ، بعضها وبعض .

ومن روائع استخدام ضمير المخاطب ، إن يأتي به مخاطبا كل من يستطاع الخطاب معه ، عندما يكون الأمر من الغرابة والفظاعة بمكان .

ومن ذلك قوله تعالى : (ولو ترى اذ وقفوا على النار فقالوا ياليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين) (١) .

وقوله تعالى : (ولو ترى اذ وقفوا على ربهم قال أليس هذ ابالحق قالوا بلى وربنا قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون) (٢) .

وقوله تعالى : (ولو ترى اذا الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم الى بعض القول يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكنا مؤمنين) (٣) .

---

(١) الأنعام / ٢٧ .
(٢) الأنعام / ٣٠ .
(٣) سبأ / ٣١ .

وقوله تعـــالى : (ولو ترى اذ يتوفى الذين كفـــروا المـــلائكة يضربون وجـــوههم وأدبارهم وذوقـــوا عذاب الحريق (٤) ٠

وقوله تعالى: (ولو ترى اذ المجرمون ناكسوا رءوسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنـــا نعمل صـــالحاً انا موقنون) (٥) ٠

وقوله تعالى : (ولو ترى اذ الظالمون فى غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسكم اليوم تجـــزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون) (٦) ٠

وقوله تعالى : (ولو ترى اذ فزعوا فلا فوت وأخذوا من مكان قريب) (٧) ٠

فالخطاب لكل أحد ممن يصلح له كائنـــا من كان ، اذ المراد بيان كمال سوء حالهم وبلوغها من الفظاعة الى حيث لا يختص استغرابها واستفظاعهـــا براء دون راء ، ممن اعتاد مشاهدة الأمور البديعة ، والدواهى الفظيعة ، بـــل كل من يتأتى منه الرؤية ، يتعجب من هولها وفظاعتها)(٨)

ولقد نأى العـــلوى عن تحقيق الحـــق حين علل عموم الخطاب بالقصد الى بيان أن حالهم قد بلغت من الظهـــور الى حيث يمتنع خفاؤها ألبتة ، فلا تختص بهـــا رؤية راء دون راء ، بل كل من يتأتى منه الرؤية فله مدخل فى هـــذا

---

(٤) الأنفال / ٥٠ ٠
(٥) السجدة / ١٢ ٠
(٦) الأنعام / ٩٣ ٠
(٧) سبأ / ٥١ ٠
(٨) انظر (الكشاف) ج ٣ ص ٢٤٢ ـ و (تفسير ابى السعود) ج ٤ ص ٣٩٠ ٠

الخطـاب (٩) ، وذلك لأن المقصود بيان كمـــال فظـاعة حالهم ، كما يفصح عنه الجواب المحذوف ، اذ تقـــديره — لرأيت أمرا فظيعا ، أو لرأيت أسوأ حـال ترى — ، لابيـان كمال ظهورها ، فانه مسوق مساق المسلمات ٠

ومن روائع استخدام ضمائر الغيبة فى القـرآن ، أن أن تتفق اذا كان مرجعها واحدا ، حتى لا يتشتت الذهن ، ولا يغمض المعنى ، ولذا كانت الضمائر كلها تعـــود الى موسى عليه السلام فى قوله تعالى : (اذ أوحينا الى أمـك ما يوحى ٠ أن اقذفيه فى التابوت فاقذفيـــه فى اليم فليلقه اليم بالساحل يأخذه عدو لى وعدو له وألقيت عليك محبـة منى ولتصنع على عينى ٠ اذ تمشى أختك فتقول هل أدلكم على من يكفله فرجعناك الى أمك كى تقر عينها ولا تحـزن وقتلت نفسا فنجيناك من الغم وفتناك فتونا فلبثت سـنين فى أهل مدين ثم جئت على قدر ياموسى) (١٠)

وليس من قـــوة النظم فى شيىء أن يعود بعض هذه الضمائر على موسى ، وبعضها على التابوت ٠

قال الزمخشرى : (والضمائر كلها راجعة الى موسى، ورجوع بعضها اليه ، وبعضها الى التابوت ، فيه هجنـة ، لما يؤدى اليه من تنافر النظم) (١١) ٠

كما تعود الضمائر كلها الى الله ، لهذا السر فى قوله تعـالى : (لتؤمنوا بالله ورســوله وتعزروه وتوقـــروه وتسبحوه بكرة وأصيلا) (١٢) ٠

---

(٩) انظر (الطراز) جـ ٣ ص ٢٦١ ٠
(١٠) طـه / ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠ ٠
(١١) انظر (الكشاف) جـ ٢ ص ٥٣٦ ٠
(١٢) الفتح / ٩ ٠

ومن روائع استخدام ضمائر الغيبة فى القرآن أيضا، أنه اذا كان مرجع الضمير مفرد اللفظ ، جمع المعنى ، راعى الأسلوب القرآنى اللفظ أولا ، والمعنى ثانيا ، عند تعدد الضمائر ، وذلك أجمل فى السياق من العكس ، وتأمل قوله تعالى : (ومنهم من يستمع اليك وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقرا ..) (١٣) .

فضمير (قلوبهم) راجع الى (من) ، وجمعيته بالنظر الى معناها ، كما أن افراد ضمير (يستمع) بالنظر الى لفظها (١٤) .

واستخدم القرآن اسم الاشارة للقريب لتعظيمه وللايذان بقربه ، قربا لا يحول دون الانتفاع به ، كما فى قوله تعالى : (إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا كبيرا)(١٥) .

أولا ترى أن المقام هنا ، مقام حديث عن هاد ، يقود الى أقوم الطرق ، ولأن يكون هذا الهادى قريبا أنجح لرسالته ، وأقطع لعذر من ينصرف عن الاسترشاد بهديه .

كما استخدم القرآن اسم الاشارة للقريب ، تنبيها على ضعة المشار اليه ، كما فى قوله تعالى: (واذا رآك الذين كفروا ان يتخذونك الا هزوا أهذا الذى يذكر آلهتكم وهم بذكر الرحمن هم كافرون) (١٦) .

وقوله تعالى : (واذا رأوك ان يتخذونك الا هزوا أهذا الذى بعث الله رسولا) (١٧) .

---

(١٣) الأنعام / ٢٥ .
(١٤) انظر (تفسير أبى السعود) ج ٢ ص ١٨٧ .
(١٥) الاسراء / ٩ .
(١٦) الأنبياء / ٣٦ .
(١٧) الفرقان / ٤١ .

وكأن فى اسم الاشارة للقريب ما يشير الى أن هـــذا الشخص القريب منا ، والذى نعلم من أموره ما نعـــلم ، لا نقبل منه دعوى الرسالة ، ولا يليق به أن يذكر آلهتنـــا بسوء (١٨) ٠

ومن ذلك قوله تعالى : (وما هذه الحيـاة الدنيـا الا لهـو ولعب وان الدار الآخـرة لهى الحيـــوان لو كانــوا يعلمون) (١٩) ٠

أولا ترى أن فى التعبير باسم الاشارة للقريب ما يشير الى تحقير الدنيا ، وازدرائها ، وتصغير أمرها ، وكيف لا ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لو كانت الدنيا تزن عند الله جنــاح بعوضــة ما سقى الــكافر منها شربة ماء) ٠

واستخدم القرآن اسم الاشــارة للبعيـد للدلالة على ارتفاع مكانة المشار اليه ، وبعده عن أن يكون موضع الأمل والرجاء ، كما فى قوله سبحانه على لسان امرأة العزيز : (قالت فذ لكن الذى لمتننى فيـــه ولقد راودتـــه عن نفسه فاستعصم ولئن لم يفعـل ما آمره ليسجنن وليــكونا من الصاغرين) (٢٠) ٠

لم تقل : فهذا) ، ويوسف عليه السلام حاضر ، رفعـا لمنزلته فى الحسن ، واستبعادا عن أن يدانى فيه ، وتنبيهـا على كونه مستحقا لأن يحب ، ويفتتن به (٢١) ٠

---

(١٨) انظر (من بلاغة القرآن) ص ١٣٥ ٠
(١٩) العنكبوت / ٦٤ ٠
(٢٠) يوسف / ٣٢ ٠
(٢١) انظر (الطراز) ج ٣ ص ٢٦٤ ٠

ومن ذلك قوله تعالى : (ذلك الكتاب لا ريب فيه هـدى للمتقين) (٢٢) ٠

ففى التعبير باسم الاشارة للبعيد مع قرب المشار اليه ايذان بعلو شأن هذا الكتاب ، وكونه فى الغاية القاصية من الفضل والشرف ٠ (٢٣) ٠

ومن ذلك قوله تعالى : (تلك الجنـة التى نورث من عبادنا من كان تقيا) (٢٤)

ففى التعبير باسم الاشارة للبعيد ايذان بعلو رتبـة الجنة ، وبعد منزلتها ٠

ومن ذلك قوله تعـالى : (ذلك من أنباء الغيب نوحيه اليك وما كنت لديهم اذ يلقـون أقلامهم أيهم يكفـل مريم وما كنت لديهم اذ يختصمون) (٢٥) ٠

أولا ترى أن فى التعبير باسم الاشارة للبعيد تنبيهـا على علو شأن المشار اليه ، وبعد منزلته فى الفضل ٠

ومن ذلك قوله تعالى : (وتلك حجتنا آتيناها ابراهيم على قـومه نرفع درجـات من نشـاء ان ربـك حـكيم عليم) (٢٦) ٠

ففى التعبير باسم الاشارة للبعيد تفخيم لشأن المشار اليه ، واشعار بعلو طبقته ، وسمو منزلته فى الفضل ٠

---

(٢٢) البقرة / ٢ ٠

(٢٣) انظر (تفسير أبى السعود) ج ١ ص ٤٠ ٠

(٢٤) مريم / ٦٣ ٠

(٢٥) آل عمران / ٤٤ ٠

(٢٦) الأنعام / ٨٣ ٠

ومن ذلك قوله تعالى : (ذلكم الله ربكم لا اله الا هو خالق كل شيىء فاعبدوه وهو على كل شيىء وكيل) (٢٧)٠

(ذلكم) اشارة الى المنعوت بما ذكر من جلائل النعوت ، وما فيه من معنى البعد للايذان بعلو شأن المشار اليه ، وبعد منزلته فى العظمة (٢٨) ٠

واستخدم القرآن اسم الاشارة للبعيد ، تنبيها على ضعة المشار اليه ، كما فى قوله تعالى : (فذلك الذى يدع اليتيم) (٢٩) ٠

فالتعبير باسم الاشارة للبعيد ، يؤذن ببعد منزلة المشار اليه فى الشر والفساد ٠

ومن ذلك قوله تعالى : (وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيرا مما تعلمون ٠ وذلكم ظنكم الذى ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين) (٣٠) ٠

فـ (ذلكم) اشارة الى ما ذكر من ظنهم ، وما فيه من معنى البعد ، للايذان بغاية بعد منزلته فى الشر والسوء (٣١) ٠

واستخدم القرآن الكريم اسم الاشارة ، للتنبيه على أن المشار اليه المعقب بأوصاف جدير من أجل تلك الأوصاف بما يذكر بعد اسم الاشارة ٠

---

(٢٧) الأنعام / ١٠٢ ٠
(٢٨) انظر (تفسير أبى السعود) جـ ٢ ص ٢٦٠ ٠
(٢٩) الماعون / ٢ ٠
(٣٠) فصلت / ٢٢ ، ٢٣ ٠
(٣١) انظر (تفسير أبى السعود) جـ ٥ ص ٤٣ ٠

كما فى قوله تعالى : (هدى للمتقين · الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقــون · والذين يؤمنون بما أنزل اليــك وما أنزل من قبلك وبالآخــرة هم يوقنــون · أولئـــك على هــدى من ربهــم وأولئـــك هم المفلحون) (٣٢) ·

ففى اسم الاشـــارة الذى هو (أولئـــك) ايـذان بأن ما يرد عقيبه ، فالمذكورون قبـله أهل لاكتســابه من أجـل الخصال التى عددت لهم (٣٣) ·

ومن ذلك قوله تعــالى : (انمـــا المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم واذ اتليت عليهم آياته زادتهم ايمانا وعلى ربهم يتوكلون · الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون · أولئك هم المؤمنون حقا لهم درجات عند ربهـــم ومغفرة ورزق كريم) (٣٤) ·

واستخدم القرآن الكريم اسم الموصول لزيادة التقرير، كما فى قوله تعالى : (وراودته التى هو فى بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت هيت لك قال معاذ الله انه ربى أحسن مثواى انه لا يفلح الظالمون) (٣٥) ·

فان هذا الكلام مسوق لتنزيه يوسف عليه الســلام عن الفحشاء ، والتعبير باسم الموصول مع صلته أدل على هذا الغرض مما لو قال : (وراودته امرأة العزيز ،أو زليخاء)، لأنه اذا كان فى بيتها ، وتمكن من نيل مراده منهــا ، ومع ذلك عف ، وامتنع ، كان ذلك غاية فى النزاهة ·(٣٦) ·

---

(٣٢) البقرة / ٢ - ٥ ·
(٣٣) انظر (الكشاف) ج ١ ص ١٤١ ·
(٣٤) الأنفال / ٢ ، ٣ ، ٤ ·
(٣٥) يوسف / ٢٣ ·
(٣٦) انظر (الايضاح) ص ٣٠ ·

واستخدام القرآن اسم الموصول ، لاظهار أن الأمر ، لا يستطاع تحديده بوصف مهما بولغ فيه ، نلمس ذلك فى قوله تعالى : (قال ألم نربك فينا وليدا ولبثت فينا من عمرك سنين · وفعلت فعلتك التى فعلت وأنت من الكافرين) (٣٧) ·

وقوله تعالى : (فأتبعهم فرعون بجنوده فغشيهم من اليم ما غشيهم) (٣٨) ·

وفى ذلك ترك للخيال يسبح ، ليكمل الصورة ، ويرسمها ·

ومن أسرار استخدام اسم الموصول فى القرآن ، أنه يستطيع أن يخفى تحته اسم المذنب، وفى ذلك من الرجاء فى هدايته ، ما ليس فى افشاء اسمه وفضيحته ، وتأمل قوله تعالى : (ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير) (٣٩) ·

وقوله تعالى : ومن الناس من يقول آمنا بالله فاذا أوذى فى الله جعل فتنة الناس كعذاب الله ··) (٤٠) ·

وقوله تعالى : (ومن الناس من يشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزوا أولئك لهم عذاب مهين) (٤١) ·

ففى هذا وغيره ذم لمن يتصف بذلك ، ودعوة له فى صمت الى الاقلاع والكف ·

---

(٣٧) الشعراء / ١٨ ، ١٩ ·
(٣٨) طـه / ٧٨ ·
(٣٩) الحج / ٨ ·
(٤٠) العنكبوت / ١٠ ·
(٤١) لقمان / ٦ ·

ومن ذلك قوله تعـالى : (ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ويشهد الله على ما فى قلبـه وهو ألـد الخصـام) (٤٢) ٠

وجاء قوله تعالى بعده : (ومن النـاس من يشـرى نفسه ابتغاء مرضـاة الله والله رءوف بالعبـاد) (٤٣) ، ليكون فى مقابلته ، حتى تكون الموازنة قوية جلية ، تدفـع الى العمل الصالح ، ابتغاء مرضاة الله (٤٤) ٠

ويأتى القرآن بالاسم الموصول ، لتعظيم شأن القضية، كقوله تعالى : (ان الذين هم من خشـية ربهم مشفقون ٠ والـذين هم بآيات ربهم يؤمنـون ٠ والذين هم بربهـم لا يشركون) (٤٥) ٠

فهـذا وارد على جهـة تعظيم هـذه القضية ، كمـا ترى (٤٦) ٠

ومنه قوله تعـالى : (سبح اسم ربك الأعلى ٠ الـذى خلق فسوى٠ والذى قدر فهدى والذى أخرج المرعى)(٤٧)٠

ومن هذا قوله تعالى : (الذى خلقنى فهو يهـدين ٠ والذى هو يطعمنى ويسقين ٠ واذا مرضت فهـو يشفين ٠ والذى يميتنى ثم يحيين ٠ والذى أطمع أن يغفرلى خطيئتى يوم الدين) (٤٨) ٠

---

(٤٢) البقرة / ٢٠٤ ٠
(٤٣) البقرة / ٢٠٧ ٠
(٤٤) انظر (من بلاغة القرآن) ص ١٣٧ ٠
(٤٥) المؤمنون / ٥٧ ، ٥٨ ، ٥٩ ٠
(٤٦) انظر (الطراز) ج ٣ ص ٢٦٥ ٠
(٤٧) الأعلى / ١ ـ ٤ ٠
(٤٨) الشعراء / ٧٨ ـ ٨٢ ٠

فهذه الأمور كلها واردة على افادة مقصـــد التعظيم والامتنان بهذه النعم (٤٩) ٠

ويأتى القرآن بالاسم الموصول ، عندما تكون صلته هى التى عليها مدار الحكم ٠

كما فى قوله تعالى: (والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا وعد الله حقا ومن أصدق من الله قيلا) (٥٠) ٠

وقوله تعالى : (ان الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهبا ولو افتدى به أولئك لهم عذاب أليم وما لهم من ناصرين) (٥١) ٠

والمجىء باسم الموصول فضلا عما ذكرناه ، يثير فى النفس الشوق الى معرفة الخبر ، وقد تكون الصلة نفسها ممهدة لهذا الخبر ودالة عليه ، كما فى قوله تعالى : (الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله بأموالهم وأنفســهم أعظم درجة عند الله وأولئك الفائزون٠ يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم ٠ خالدين فيهـــا أبدا ان الله عنده أجر عظيم) (٥٢) ٠

أو لا ترى فى الصلة ما يوحى اليك بأنه قـد أعـد لهم خـير عظيم ، يناسب ايمـــانهم ، وهجرتهم ، وجهـــادهم بأموالهم وأنفسهم (٥٣) ٠

---

(٤٩) انظر (الطراز) ج ٣ ص ٢٦٥ ٠
(٥٠) النساء / ١٢٢ ٠
(٥١) آل عمران / ٩١ ٠
(٥٢) التوبة / ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ ٠
(٥٣) انظر (من بلاغة القرآن) ص ١٣٦ ٠

واستخدم القرآن التعريف بالعلم ، لافادة التعظيم ، كما فى قوله تعالى : (ربكم ورب آبائكم الأولين) (٥٤) ، لأن التقدير فيه : (الله ربكم ورب آبائكم الأولين)(٥٥) ٠

واستخدمه أيضا لافادة التحقير ، كما فى قوله تعالى: (تبت يدا أبى لهب وتب) (٥٦) ٠

فقد عدل القرآن عن اسمه ، وهو (عبد العزى) الى كنيته التى اشتهر بها ، لارادة تشهيره بدعوة السوء ، وأن تبقى سمة له ، كأنه قال : صاحب هذه الكنية ، هو الكافر اللعين المتمرد ، صاحب العداوة للرسول صلى الله عليه وسلم ، والمستحق لغضب الله تعالى وسخطه (٥٧) ٠

واستخدم القرآن الكريم التعريف بـ (أل) ، فتارة تفيد الاستغراق ، كما فى قوله تعالى : (والعصر ٠ ان الانسان لفى خسر) (٥٨) ، لأن المعنى : ان كل انسان متقلب فى خسارة (الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات) فانهم على خلاف ذلك ، ويصدق استغراقه ورود الاستثناء منه ، وهو لا يصح الا فى مستغرق ٠

ومنه قوله تعالى : (والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما ٠٠) (٥٩) ، أى كل سارق وسارقة ، وقوله تعالى: (ولا يفلح الساحر حيث أتى) (٦٠) أى كا ساحر فهو غير

---

(٥٤) الشعراء / ٢٦ ٠
(٥٥) انظر (الطراز) جـ ٣ ص ٢٦٢ ٠
(٥٦) المسد / ١ ٠
(٥٧) انظر (الكشاف) جـ ٤ ص ٢٩٦ ـ و (الطراز) جـ ٣ ص ٢٦٣ ٠
(٥٨) العصر / ١ ، ٢ ٠
(٥٩) المائدة / ٣٨ ٠
(٦٠) طه / ٦٩ ٠

مفلح فى سحره ٠ وتارة تفيد العهدية ، كما فى قوله تعالى: (وليس الذكر كالأنثى) (٦١) ، أى ليس الذكر الذى طلبته كالأنثى التى أعطيتها (٦٢) ٠

ومن أجمل مواقعها فى القرآن أن تستخدم لاستغراق خصائص الجنس ، كما فى قوله تعـــالى : (ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين) (٦٣) ٠

فكأنه قال : ذلك هو الكتــاب المســتكمل لخصــائص جنسه ، فهو الكتاب الكامل (٦٤) ٠

واستخدم القرآن الاضــافة ، فأحيـــانا تأتى لتعظيم المضاف ، كمــا فى قوله تعالى : (صــنع الله الذى أتقن كل شيىء انه خبير بما تفعلون) (٦٥) ، أو تحقيره ، كمــا فى قوله ســبحانه : (أولئك حــزب الشــيطان ألا ان حــزب الشيطان هم الخاسرون) (٦٦) ٠

وقد تأتى لافادة الرحمة ، كما فى قوله تعالى : (واذا سألك عبادى عنى فانى قريب ٠٠) (٦٧) ، فاضافتهم اليه دلالة على أن من شأن السيد أن يرحم عبده (٦٨) ٠

---

(٦١) آل عمران / ٣٦ ٠
(٦٢) انظر (الطراز) جـ ٣ ص ٢٦٦ ٠
(٦٣) البقرة / ٢ ٠
(٦٤) انظر (الكشاف) جـ ١ ص ١١٢ ٠
(٦٥) النمــل / ٨٨ ٠
(٦٦) المجادلة / ١٩ ٠
(٦٧) البقرة / ١٨٦ ٠
(٦٨) انظر (الطراز) جـ ٣ ص ٢٦٧ ٠

وقد تأتى لافادة التشريف كما فى قوله تعالى :
(وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما) (٦٩) ٠

فاضافة العباد الى الرحمن دلالة على مزيد تشريفهم ٠

وقد تأتى الاضافة للتخصيص ، كما فى قوله تعالى :
(قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطو من رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعا انه هو الغفور الرحيم) (٧٠)

فاضافة العباد اليه تخصصهم بالمؤمنين (٧١) ٠

---

(٦٩) الفرقان / ٦٣ ٠
(٧٠) الزمر / ٥٣ ٠
(٧١) انظر (تفسير أبى السعود) جـ ٤ ص ٦٢٠ ٠

الفصل السادس

وضع المظهر فى موضع المضمر

اذا تقدم مرجع الضمير ، أو دلت عليه قرنية ، كان المقام للاضمار ، الا أنه قد يوضع المظهر فى موضع المضمر، لأغراض بلاغية ، كزيادة تمكنه فى ذهن السامع ، أو كمال العناية بتمييزه ، الى غير ذلك من الأغراض ، التى تعرض لها علماء البلاغة والبيان (١) ٠

وصاحب الذوق السليم ، اذا تأمل شواهد وضع المظهر فى موضع المضمر فى القرآن أدرك أنها تنطوى على كثير من الحكم والأسرار ، التى يتطلبها المقام ، وتنحنى أمام عظمتها جباه أساطين البيان ٠

ومن هذه الشواهد قوله تعالى : (فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة ٠ وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة) (٢) ٠

كان مقتضى الظاهر أن يقال : (ما هم) ، أى أى شيىء هم فى حالهم وصفتهم لكنه عدل عن مقتضى الظاهر ، وأتى بالاسم الظاهر محل الضمير ، لكونه أدخل فى التفخيم

---

(١) انظر (الايضاح) ص ٥٣ ، ٥٤ ـ و (المطول) ص ١٢٨ ، ١٢٩ ـ و (المثل السائر) ج ٢ ص ٢٤ ، ٢٥ ـ و (الأقصى القريب) ص ٨٢ ـ و (عروس الأفراح) ص ٤٥٢ ج ١ من شروح التلخيص ٠

(٢) الواقعة / ٨ ، ٩

والتعظيم ، وكذا الكلام فى قوله : (وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة) والمراد تعجيب السامع من شأن الفريقين فى الفخامة والفظاعة ، كأنه قال : فأصحاب الميمنة فى غاية حسن الحال ، وأصحاب المشأمة فى نهاية سوء الحال (٣) ٠

ومنها قوله تعالى : (ص والقرآن ذى الذكر ٠ بل الذين كفروا فى عزة وشقاق ٠ كم أهلكنا من قبلهم من قرن فنادوا ولات حين مناص ٠ وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب) (٤) ٠

كان مقتضى الظاهر أن يقال : (وقالوا هذا ساحر كذاب) ، عطفا على (عجبوا) ، لكنه عدل عن مقتضى الظاهر ، وأتى بلفظ (الكافرون) مظهرا بعد اضماره ، اظهارا للغضب عليهم ، ودلالة على أن هذا القول لايجسروا عليه الا الكافرون المتوغلون فى الكفر ، المنهمكون فى الغى، الذين قال فيهم : ـ أولئك هم الكافرون حقا ـ ، وهل ترى كفرا أعظم ، وجهلا أبلغ من أن يسموا من صدقه الله بوحيه كاذبا ، ويتعجبوا من التوحيد ، وهو الحق الذى لا يصح غيره ، ولا يتعجبوا من الشرك ، وهو الباطل الذى لا وجه لصحته (٥) ٠

ومنها قوله تعالى : (لقد نصركم الله فى مواطن كثيرة ويوم حنين اذا أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا وضاقت

---

(٣) انظر (تفسير أبى اسعود) جـ ٥ ص ٢٥٦ ٠
(٤) ص / ١ ـ ٤ ٠
(٥) انظر (الكشاف) جـ ٣ ص ٣٦٠ ٠

عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين • ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنودا لم تروها وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين)(٦) •

كان مقتضى الظاهر أن يقال : (ثم أنزل الله سكينته عليكم وأنزل جنودا لم تروها) عطفا على وليتم) ، لكنه عدل عن مقتضى الظاهر ، وأتى بالاسم الظاهر محل الضمير ، للتنويه بذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وذكر المؤمنين (٧) •

ومنها قوله تعالى : (واذا تتلى عليهم آياتنا بينات قالوا ما هذا الا رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم وقالوا ما هذا الا افك مفترى وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم ان هذا الا سحر مبين) (٨) •

كان مقتضى الظاهر أن يقال : (وقالوا) ، كالذى قبله، لكنه عدل عن مقتضى الظاهر ، وأتى بالاسم الظاهر محل الضمير ، للدلالة على صدور ذلك عن انكار عظيم ،وغضب شديد ، وتعجب من أمرهم بليغ ، كأنه قال : (وقال أولئك الكفرة المتمردون بجراءتهم على الله ، ومكابرتهم لمثل ذلك الحق المبين ، قبل أن يتدبروه ، ويتذوقوه : ان هذا الا سحر مبين) (٩) •

ومنها قوله تعالى : (أو لم يروا كيف يبدىء الله الخلق

---

(٦) التوبة / ٢٥ ، ٢٦ •
(٧) انظر (المثل السائر) ج ٢ ص ٢٥ •
(٨) سبأ / ٤٣ •
(٩) انظر (الكشاف) ج ٣ ص ٢٩٣ •

ثم يعيده ان ذلك على الله يسير · قل سـيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الله الخلق ثم الله ينشىء النشأة الآخـرة ان الله على كل شيىء قدير) (١٠) ·

كان مقتضى الظاهر أن يقال : (كيف بدأ الله الخـلق ثم ينشىء النشأة الآخرة) ؟ لكنه عدل عن مقتضى الظاهر ، لأن الكلام معهم كان واقعـا فى الاعـادة ، وفيهـا كانت تصطك الركب ، فلما قررهم فى الابداء بأنه من الله ، احتج عليهم بأن الاعادة انشاء مثل الابداء ، فاذا كان الله الذى لا يعجزه شيىء ، هو الذى لم يعجزه الابداء ، فهو الـذى وجب أن لا تعجزه الاعادة فكأنه قال : (ثم ذاك الذى أنشأ النشأة الأولى ، هو الذى ينشىء النشأة الآخرة ، فللدلالة والتنبيه على هذا المعنى أبرز اسمه وأوقعه مبتدأ (١١) ·

ومنها قوله تعالى : (هل أتى على الانسـان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا ·

انا خلقنا الانسان من نطفـة أمشـاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا) (١٢) ·

كان مقتضى الظاهر أن يقال : (خلقنـاه) ، لتقـدم المرجع ، لكنه عدل عن مقتضى الظاهر ، وأتى بالاسم الظاهر محل الضمير ، للتنبيه على عظم خلقه للانسان (١٣) ·

---

(١٠) العنكبوت / ١٩ ، ٢٠ ·
(١١) انظر (الكشاف) جـ ٣ ص ٢٠٢ ·
(١٢) الانسان / ١ ، ٢ ·
(١٣) انظر (البرهان) جـ ٢ ص ٤٩١ ·

ومنها قوله تعالى : (يوم ترجف الأرض والجبال وكانت الجبال كثيبا مهيلا) (١٤) ٠

كان مقتضى الظاهر أن يقال : (وكانت كثيبا مهيلا) ، لتقدم المرجع ، لكنه عدل عن مقتضى الظاهر ، وأعاد لفظ (الجبال) ، لأن الآية سيقت للتخويف ، والتنبيه على عظم الأمر ، فاعادة الظاهر أبلغ ، ولأنه لو لم يذكر (الجبال) لاحتمل عود الضمير الى الأرض (١٥) ٠

ومنها قوله تعالى : (لكن هو الله ربى ولا أشرك بربى أحدا) (١٦) ٠

كان مقتضى الظاهر أن يقال : (ولا أشرك به) ، لتقدم المرجع ، لكنه عدل عن مقتضى الظاهر ، وأتى بلفظ (الرب) محل الضمير ، لما فيه من التعظيم والهضم للخصم (١٧) ٠

ومنها قوله تعالى : (فلما ذهب عن ابراهيم الروع وجاءته البشرى يجادلنا فى قوم لوط ٠ ان ابراهيم لحليم أواه منيب) (١٨) ٠

كان مقتضى الظاهر أن يقال : (انه) بالاضمار ، لتقدم المرجع ، لكنه عدل عن مقتضى الظاهر ، وأعاد لفظ (ابراهيم) ، لتشريفه ، وتعظيمه بما نسب اليه (١٩) ٠

---

(١٤) المزمل / ١٤ ٠
(١٥) انظر (البرهان) جـ ٢ ص ٤٩٢ ٠
(١٦) الكهف / ٣٨ ٠
(١٧) انظر (البرهان) جـ ٢ ص ٤٩٢ ٠
(١٨) هود / ٧٤ ، ٧٥ ٠
(١٩) انظر (الأقصى القريب) ص ٨٢ ٠

ومنها قوله تعالى : (واتقوا الله ويعلمكم الله والله بكل شيىء عليم) (٢٠) ٠

كان مقتضى الظـــاهر أن يقـــال : (وهو بكل شيىء عليم) ، لتقدم المرجع ، لكنـــه عدل عن مقتضى الظـــاهر ، وأظهر الاسم الجليل ، تعظيما لشأنه عز وجل (٢١) ٠

ومنها قوله تعـــالى : (من كان عـــدوا لله وملائكتـه ورسله وجبريل وميكال فان الله عدو للكافرين) (٢٢) ٠٠

كان مقتضى الظاهر أن يقال : (عدو لهم) بالاضمار ، لتقدم ذكرهم فى (من) المبهم ، واسم كان المضمر فيهـا ، لكنه عدل عن مقتضى الظاهر ، وأتى بلفظ (الـــكافرين) محـــل الضمير ، ذما لهم بالكفر ، وتبيينا أن عـــدو الله ، وملائكته ورسله ، لا يكون الا كافرا (٢٣) ٠

ومنها قوله تعالى : (فبدل الذين ظلموا قولا غير الذى قيـل لهم فأنزلنا على الذين ظلموا رجزا من السـماء بما كانوا يفسقون) (٢٤) ٠

كان مقتضى الظـــاهر أن يقـــال : (فأنزلنـــا عليهم) بالاضمار ، لتقدم المرجـــع فى أول الآية ، لكنـــه عدل عن مقتضى الظـــاهر ، ووضـــع الموصـــول فى موضع الضمير

---

(٢٠) البقرة /٢٨٢ ٠
(٢١) انظر (روح المعانى) جـ ٣ ص ٥٤ ٠
(٢٢) البقرة / ٩٨ ٠
(٢٣) انظر (الكشاف) جـ ١ ص ٣٠٠ ـ و (الأقصى القـــريب) ص ٨٢ ٠
(٢٤) البقرة / ٥٩ ٠

العائد الى الموصول الأول ، للتعليل والمبالغة فى الذم والتقريع ، وللتصريح بأنهم بما فعلوا قد ظلموا أنفسهم بتعريضها لسخط الله تعالى (٢٥) ٠

ومنها قوله تعالى : (أولئك هم الكافرون حقا واعتدنا للكافرين عذابا مهينا) (٢٦) ٠

كان مقتضى الظاهر أن يقال : (وأعتدنا لهم) بالاضمار ، لتقدم ذكرهم فى أول الآية ، لكنه عدل عن مقتضى الظاهر ، ووضع اسم (الكافرين) فى موضع الضمير ، للمبالغة فى ذمهم ، واهانتهم بالكفر (٢٧) ٠

ومنها قوله تعالى: (انا أنذرناكم عذابا قريبا يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر ياليتنى كنت ترابا)(٢٨)٠

كان مقتضى الظاهر أن يقال : (ويقول ياليتنى كنت ترابا) بالاضمار ، لتقدم المرجع ، وهو (المرء) لأنه هو الكافر ، لكنه عدل عن مقتضى الظاهر ، ووضع لفظ (الكافر) فى موضع الضمير ، لزيادة الذم والتحقير (٢٩)٠

ومنها قوله تعالى : (واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه أفتتخذونه وذريته أولياء من دونى وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا ٠ ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم وما كنت متخذ المضلين عضدا ٠ ويوم

---

(٢٥) انظر (تفسير أبى السعود) ج ١ ص ١٧٩ ٠
(٢٦) النساء / ١٥١ ٠
(٢٧) انظر (تفسير أبى السعود) ج ١ ص ٨٠٥ ٠
(٢٨) النبأ / ٤٠ ٠
(٢٩) انظر (الكشاف) ج ٤ ص ٢١١ ٠

يقول نادوا شركائى الذين زعمتم فدعـوهم فلم يستجيبوا لهم وجعلنا بينهم موبقا ٠ ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها ولم يجدوا عنها مصرفا) (٣٠) ٠

كان مقتضى الظـاهر أن يقـال : (بئس لهم بدلا) ، لتقدم المرجع ، لكنـه عـدل عن مقتضى الظـاهر ، ووضع (الظالمين) فى موضـع ضميرهم للايذان بكمـال السخط والاشارة الى أن ما فعلوه ظلم قبيح لا يخفى ٠

وكان مقتضى الظاهر أن يقـال : (وما كنت متخـذهم عضـدا) لكنـه عـدل عنمقتضى الظـاهر ، ووضع لفظ (المضـلين فى موضـع الضمير ذمالهم وتسـجيلا عليهم بالاضلال وتأكيدا لمـا سبق من انكار اتخاذهم أولياء ٠

وكان مقتضى الظاهر أيضا أن يقال : (ورأو النار) ، لكنه عدل عن مقتضى الظاهر ، ووضع (المجرمين) محـل (الضمير) ، تصريحا باجرامهم ، وذما لهم بذلك (٣١) ٠

ومنها قوله تعـالى : (انا فتحنـا لك فتحـا مبينا ٠ ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهـديك صراطـا مسـتقيما ٠ وينصرك الله نصرا عزيزا) (٣٢) ٠

كان مقتضى الظاهر أن يقال: (وينصرك نصرا عزيزا)، لتقدم المرجع ، لكنه عدل عن مقتضى الظاهر ، وأظهر الاسم الجليل مع النصر ، لكونه خـاتمة العلل ، أو الغـايات ،

---

(٣٠) الكهف / ٥٠ ـ ٥٣ ٠
(٣١) انظر (تفسير أبى السعود) جـ ١ ص ٥٢٩) ٥٣١ ٠
(٣٢) الفتح / ١ ، ٢ ، ٣ ٠

ولاظهار كمال العناية بشأنه ، كما يعرب عنه اردافه بقوله: (نصرا عزيزا) (٣٣) ٠

ومنها قوله تعالى : (أقم الصلاة لدلوك الشمس الى غسق الليل وقرآن الفجر ان قرآن الفجر كان مشهودا) (٣٤) ٠

كان مقتضى الظاهر أن يقال : (انه كان مشهودا) ، لتقدم المرجع ، لكنه عدل عن مقتضى الظاهر ، ووضع (قرآن الفجر) فى موضع ضميره ، لمزيد الاهتمام به ، لأنه تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار (٣٥) ٠

ومنها قوله تعالى : (قل هو الله أحد ٠ الله الصمد) (٣٦) ٠

كان مقتضى الظاهر أن يقال : (هو الصمد) ، لتقدم المرجع فى أول السورة ، لكنه عدل عن مقتضى الظاهر ، وأظهر الاسم الجليل ، لزيادة التقرير والتعظيم ، ويدل لذلك سبب نزولها ، وهو ما نقل عن ابن عباس رضى الله عنهما أن قريشا قالت : يا محمد صف لنا ربك الذى تدعوننا اليه ، فنزل (الله أحد) ، معناه : أن الذى سألتمونى وصفه هو الله ، ثم لما أريد تقرير كونه (الله) أعيد بلفظ الظاهر دون ضميره (٣٧) ٠ ٠

ومنها قوله تعالى : (يأيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان ومن يتبع خطوات الشيطان فانه يأمر

---

(٣٣) انظر (روح المعانى) جـ ٢٦ ص ٨٢ ٠
(٣٤) الاسراء / ٧٨ ٠
(٣٥) انظر (تفسير ابى السعود) جـ ٣ ص ٤٧٣ ٠
(٣٦) الاخلاص / ١ ، ٢ ٠
(٣٧) انظر (البرهان) جـ ٢ ص ٤٨٨ ـ و (الاتقان) جـ ٢ ص ٢٤٤ ٠

بالفحشاء والمنكر ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبدا ولكن الله يزكى من يشاء والله سميع عليم) (٣٨) ٠

كان مقتضى الظاهر أن يقال : (ومن يتبعها ، أو ومن يتبع خطواته) بالاضمار ، لتقدم المرجع ، لكنه عدل عن مقتضى الظاهر ، ووضع الظاهرين موضع ضميريهما ، لزيادة التقرير والمبالغة فى التنفير والتحذير (٣٩ ٠

ومنها قوله تعالى : (الله الذ ى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا ان الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون) (٤٠) ٠

كان مقتضى الظاهر أن يقال : (ولكن أكثرهم) بالاضمار ، لتقدم المرجع ، لكنه عدل عن مقتضى الظاهر ، ووضع لفظ (الناس) موضع ضميره ، للاشارة الى تخصيص كفران النعمة بهم ، وأنهم هم الذين يكفرون فضل الله ولا يشكرونه (٤١) ٠

ومنها قوله تعالى : (وقال الذين فى النار لخزنة جهنم ادعوا ربكم يخفف عنا يوما من العذاب) (٤٢) ٠

كان مقتضى الظاهر أن يقال : (لخزنتها) بالاضمار ،

---

(٣٨) النور / ٢١ ٠
(٣٩) انظر (تفسير أبى السعود) ج ٤ ص ١٠٢ ٠
(٤٠) غافر / ٦١ ٠
(٤١) انظر (الكشاف) ج ٣ ص ٤٣٤ ٠
(٤٢) غافر / ٤٩ ٠

لتقدم المرجع ، لكنـــه عدل عن مقتضى الظـاهر ، ووضع (جهنم) في موضع ضميرها ؛ لأن في ذكر جهنم تهويلا ، وتفظيعا ، لأنها أخص من النار بحسب الظاهر ، لاطلاقها على ما في الدنيا ، أو لأنها محل لأشد العذاب الشـــامل للنار وغيرها (٤٣) ٠

ومنهـا قـوله تعـــالى : (ان الله يأمـركم أن تؤدوا الأمانات الى أهلها واذا حكمتم بين النـاس أن تحـكموا بالعـــدل ان الله نعمـا يعظـكم به ان الله كان ســميعا بصيرا) (٤٤) ٠

كان مقتضى الظاهر أن يقال : (انه نعما يعظكم به انه كان سميعا بصيرا) ، لتقدم المرجع فى أول الآية ، لكنـــه عدل مقتضى الظاهر ، وأظهر الاسم الجليل ، لتربية المهابة فى القلوب ، ولتأكيد الوعد والوعيد (٤٥) ٠

ومنها قوله تعالى : (الحاقة ٠ ما الحاقة ٠ وما أدراك الحاقة) (٤٦) ٠

كان مقتضى الظاهر أن يقـــال : (ما هى وما أدراك ما هى) ، لتقدم المرجع فى أول السورة ، لكنـــه عدل عن مقتضى الظاهر ، ووضع الاسم الظـاهر محـــل الضمير ، تأكيدا لهولها وفظاعتها ، ببيان خروجها عن دائرة عـلوم

---

(٤٣) انظر (روح المعانى) ج ٢٤ ص ٦٦ ٠
(٤٤) النساء / ٥٨ ٠
(٤٥) انظر (تفسير ابى السعود) ج ١ ص ٧٢٢ ٠
(٤٦) الحاقة / ١ ، ٢ ، ٣ ٠

المخـــلوقات ، على معنى أن عظم شأنهـا ، ومدى هولهـا وشدتها بحيث لا تكاد تبلغه دراية أحد ، ولا وهمه ، وكيفما قدرت حالهـــا ، فهى أعظم من ذلك ، وأعظم ، فلا يتسنى الاعلام (٤٧) ٠

ومنها قوله تعالى : (قل ان تخفوا ما فى صدوركم أو تبدوه يعلمه الله ويعلم ما فى السموات وما فى الأرض والله على كل شيىء قدير) (٤٨) ٠

كان مقتضى الظاهر أن يقال : (وهو على كل شيىء قدير) بالاضمار ، لتقدم المرجع ، لكنـــه عدل عن مقتضى الظاهر ، وأظهر الاسم الجليل ، لتربية المهابة ، وتهـــويل الخطب (٤٩) ٠

ومنها قوله تعـــالى : (ان الله لا يغفــــر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد افترى اثما عظيما) (٥٠) ٠

كان مقتضى الظـــاهر أن يقـــال : (ومن يشرك بــه) بالاضمار ، لتقدم المرجع لكنه عدل عن مقتضى الظـــاهر ، وأظهر الاسم الجليل ، لزيادة تقبيـــح الاشراك ، وتفظيع حا ل من يتصف به ، ولاظهار المهابة من الكفر (٥١) ٠

---

(٤٧) انظر (تفسير أبى السعود) ج ٥ ص ٣٨٠ ٠
(٤٨) آل عمران / ٢٩ ٠
(٤٩) انظر (تفسير أبى السعود) ج ١ ص ٤٦٣ ٠
(٥٠) النساء / ٤٨ ٠
(٥١) انظر (تفسير أبى السعود) ج ١ ص ٧١٢ ٠

ومنها قوله تعـالى : (وقالوا الحمـد لله الذى صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين) (٥٢) ٠ ٠٠٠

كان مقتضى الظاهر أن يقال : (نتبوأ منها) بالاضمار، لتقدم المرجع ، لكنه عدل عن مقتضى الظاهر ، ووضع الاسم الظاهر فى موضع ضميره ، لقصد الاستلذاذ ، ولهذا عدل عن ذكـر الأرض الى الجنـة ، وان كان المـراد بالأرض الجنـة (٥٣) ٠

ولله در القائل :

كرر على السمع منى أيها الحـادى
ذكر المنـازل والأطـلال والنـادى

وقوله :

يامطربى بحـديث من سـكن الغضى
هجت الهوى وقدحت فى حراق (٥٤)

كـرر حديثـك يا مهيـج لوعـتى
ان الحـديث عن الحبيب تـلاق

ومنها قوله تعالى : (وبالحق أنزلنـاه وبالحق نزل وما أرسلناك الا مبشرا ونذيرا) (٥٥) ٠

كان مقتضى الظاهر أن يقال : (وبه نزل) بالاضمار ،

---

(٥٢) الزمر / ٧٤ ٠
(٥٣) انظر (البرهان) ج ٢ ص ٤٨٧ ٠
(٥٤) الحراق : ما تقع فيه النار عند القدح ٠
(٥٥) الاسراء / ١٠٥ ٠

لتقدم المرجع ، لكنه عدل عن مقتضى الظاهر ، وأظهر لفظ (الحق) ، لقصد الاستلذاذ (٥٦) .

ومنها قوله تعالى : (قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير انك على كل شيء قدير) (٥٧) .

كان مقتضى الظاهر أن يقال : (تؤتيه) بالاضمار ، لتقدم المرجع ، لكنه عدل عن مقتضى الظاهر ، وأظهر لفظ (الملك) ، لازالة اللبس ، لأنه لو قال : (تؤتيه) لأوهم أنه الأول (٥٨) .

ومنها قوله تعالى : (ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات الظانين بالله ظن السوء عليهم دائرة السوء وغضب الله عليهم ولعنهم وأعد لهم جهنم وساءت مصيرا) (٥٩) .

كان مقتضى الظاهر أن يقال : (عليهم دائرته) بالاضمار ، لتقدم المرجع ، لكنه عدل عن مقتضى الظاهر ، ووضع الاسم الظاهر فى محل الضمير ، لازالة اللبس ، لأنه لو قال : (عليهم دائرته) لالتبس بأن يكون الضمير عائدا الى الله (٦٠) .

---

(٥٦) انظر (البرهان) ج ٢ ص ٤٨٧ .
(٥٧) آل عمران / ٢٦ .
(٥٨) انظر (البرهان) ج ٢ ص ٤٨٨ .
(٥٩) الفتح / ٦ .
(٦٠) انظر (البرهان) ج ٣ ص ٢٤٥ .

ومنها قوله تعالى : (يوم تأتى كل نفس تجـــادل عن نفسها وتوفى كل نفس ما عملت وهم لايظلمون) (٦١) ٠

كان مقتضى الظاهر أن يقـــال : (عنها) بالاضمار ، لتقدم المرجع ، لكنه عدل عن مقتضى الظاهر ، وأعـــاد لفظ (النفس) ، لازالة اللبس ، لأنه لو قال : (عنها) لا تحـد الضميران ، فاعلا ومفعولا ، مع أن المظهر الســـابق لفظ (النفس) (٦٢) ٠

ومنها قوله تعالى : (فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيــه ثم استخرجها من وعاء أخيـــه كذلك كدنا ليوسف ما كان ليأخذ أخاه فى دين الملك الا أن يشاء الله نرفع درجات من نشاء وفوق كل ذى علم عليم) (٦٣) ٠

كان مقتضى الظاهر أن يقال : (ثم استخرجها منـــه) بالاضمار ، لتقدم المرجع لكنه عدل عن مقتضى الظـــاهر ، ووضع الاسم الظاهر محل الضمير ، لازالة اللبس ، لأنه لو قال : (ثم استخرجها منه) لأوهم عـــود الضمير على (الأخ) ، فيصير كأن (الأخ) مباشر لطلب خروج الوعاء، وليس كذلك لما فى المباشرة من الأذى الذى تأباه النفـــوس الأبية ، فأعيد لفظ الظـــاهر لنفى هـــذا ، وانمـــا لم يضمر (الأخ) ، فيقال : (ثم استخرجها من وعـــائه) ، لأمرين :

---

(٦١) النحل / ١١١ ٠

(٦٢) انظر (البرهان) ج ٢ ص ٤٨٩ ٠

(٦٣) يوسف / ٧٦ ٠

أحدهما : أن ضمير الفاعل فى (استخرجها ـ ليوسف عليه السلام ، فلو قال : (من وعائه) لتوهم أنه يوسف ، لأنـه أقرب مذكور ، فأظهر لذلك ٠

والثانى : أن (الأخ) مذكور مضاف اليه ، ولم يذكـر فيما تقدم مقصودا بالنسبة الاخبارية ، فلمـــا احتيج الى اعادة ما أضيف اليه أظهره أيضا (٦٤) ٠

ومنها قوله تعالى : (ولما جاءهم كتاب من عنـد الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلمـا جـــاءهم ما عرفـــوا كفـروا به فلعنـــة الله على الكافرين (٦٥) ٠

كان مقتضى الظاهر أن يقـــال : (فلعنة الله عليهـم) بالاضمار ، لتقدم المرجع ، لكنه عدل عن مقتضى الظاهر ، وأظهر لفظ (الكافرين) ، للايذان بأن حلول اللعنـة بسبب كفرهم (٦٦) ٠

ومنها قوله تعالى : (ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بآياته انه لا يفلح الظالمون)(٦٧) ٠

كان مقتضى الظاهر أن يقـــال : (انهم لا يفلحـون) بالاضمار ، لتقدم المرجع ولو ذكر الظاهر لقال : (لا يفلح المفترون ، أو الكاذبون) ، لكنه عدل عن مقتضى الظاهر ،

---

(٦٤) انظر (البرهان) ج ٢ ص ٤٨٩ ، ٤٩٠ ٠
(٦٥) البقرة / ٨٩ ٠
(٦٦) انظر (الكشاف) ج ١ ص ٢٩٦ ٠
(٦٧) الأنعام / ٢١ ٠

وصرح بالظلم ، تنبيها على أن علة عدم الفلاح الظلم (٦٨)٠

ومنها قوله تعالى : (والذين يمسكون بالكتاب وأقاموا الصلاة انا لا نضيع أجر المصلحين (٦٩) ٠

كان مقتضى الظاهر أن يقال : (انا لا نضيع أجرهم) ، لتقدم ذكرهم فى أول الآية ، لكنه عدل عن مقتضى الظاهر ، وصرح بلفظ (المصلحين) ، للتنبيه على أن صلاحهم علة لنجاتهم (٧٠) ٠

. ومنها قوله تعالى : (وما أبرىء نفسى ان النفس لأمارة بالسوء الا ما رحم ربى ان ربى غفور رحيم)(٧١)٠

كان مقتضى الظاهر أن يقال : (انها لأمارة بالسوء) بالاضمار ، لتقدم المرجع ، لكنه عدل عن مقتضى الظاهر ، وأظهر لفظ (النفس) ، لأنه لو قيل : (انها لأمارة بالسوء) لاقتضى تخصيص ذلك بنفسه ، فأتى بالظاهر ليدل على أن المراد التعميم ، مع أنه برىء من ذلك بقوله بعده : (الا ما رحم ربى) (٧٢) ٠

ومنها قوله تعالى : (فان أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظا ان عليك الا البلاغ وانا اذا أذقنا الانسان منا رحمة

---

(٦٨) انظر (البرهان) ج ٢ ص ٤٩٣ ٠
(٦٩) الأعراف / ١٧٠ ٠
(٧٠) انظر (البرهان) ج ٢ ص ٤٩٣ ٠
(٧١) يوسف / ٥٣ ٠
(٧٢) انظر (البرهان) ج ٢ ص ٤٩٣ - و (الاتقان) ج ٣ ص ٢٤٧ ٠

فرح بها وان تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم فان الانسان كفور) (٧٣) ٠

كان مقتضى الظاهر أن يقال : (فانه كفور) بالاضمار، لتقدم المرجع ، لكنه عدل عن مقتضى الظاهر ، وأظهر لفظ (الانسان) ، ليسجل على أن هذا الجنس موسوم بكفران النعم (٧٤) ٠

ومنها قوله تعالى : (واستشهدوا شهيدين من رجالكم فان لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء أن تضل احداهما فتذكر احداهما الأخرى) (٧٥)

كان مقتضى الظاهر أن يقال : (فتذكر الأخرى) بالاضمار ، لتقدم المرجع ، لكنه عدل عن مقتضى الظاهر ، وأعاد لفظ (احداهما) ، لتعادل الكلم ، وتوازن الألفاظ فى التركيب ٠ وهذا ما يسميه علماء البلاغة (بالترصيع المعنوى) ٠ وقلما يوجد الا فى نادر من الكلام ٠

وبيان ما ذكرت فى الآية أنها متضمنة لقسمين : قسم الضلال ، وقسم التذكير ، فأسند الفعل الثانى الى ظاهر حيث أسند الأول ، ولم يوصل بضمير مفصول ، لكون الأول لازما ، فأتى بالثانى على صورته من التجرد عن المفعول ، ثم أتى به خبرا بعد اعتدال الكلام ، وحصول التماثل فى تركيبه (٧٦) ٠

---

(٧٣) الشورى / ٤٨ ٠
(٧٤) انظر (الكشاف) ج ٣ ص ٤٧٤ ٠
(٧٥) البقرة / ٢٨٢ ٠
(٧٦) انظر (البرهان) ج ٢ ص ٤٩٦ ، ٤٩٧ ٠

ومنها قوله تعالى (أم يقولون افترى على الله كــذبا فان يشأ الله يختم على قلبك ويمح الله الباطل ويحق الحق بكلماته انه عليم بذات الصدور) (٧٧) ٠

كان مقتضى الظـاهر أن يقــال : (ويمح البــاطل) بالاضمار ، لتقدم المرجع ، لكنه عدل عن مقتضى الظاهر ، وأظهر الاسم الجليل ، لأن (يمح) استئناف ، وليس عطفا على الجواب ، لأن المعلق على الشرط عدم قبل وجوده ، وهذا صحيح فى (يختم على قلبــك) ، وليس صحيحا فى (يمح الله الباطل) ، لأن محو الباطل ثابت ، فلذلك أعيــد الظاهر ، وأما حذف الواو من الخط فللفظ (٧٨) ٠

ومنها قوله تعالى : (فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظــا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهــم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر فاذا عزمت فتوكل على الله ان الله يحب المتوكلين) (٧٩) ٠

كان مقتضى الظاهر أن يقال : (فتوكل على انى أحب المتوكلين) ، لتقدم المرجع ، لكنه عدل عن مقتضى الظاهر ، وأظهر الاسم الجليل ، لما فيه من تقوية الداعى على امتثال أمر التوكل ، لما فيه من الاعلام بمدلوله ، الذى هو الــذات الموصوفة بأوصاف الألوهية الكاملة من القــدرة والارادة وغيرهما ، والتوكل على من هو كذلك يجب (٨٠) ٠

(٧٧) الشورى / ٢٤ ٠

(٧٨) انظر (تفسير أبى السعود) ج ٥ ص ٦٧ ـ و (البرهان) ج ٢ ص ٤٩٨ ٠

(٧٩) آل عمران / ١٥٩ ٠

(٨٠) انظر (مواهب الفتاح) ج ١ ص ٤٥٩ من شروح التلخيص ـ و (البرهان) ج ٢ ص ٤٩١ ٠

ومنها قوله تعالى : (يوم يدعون الى نار جهنم دعا · هذه النار التى كنتم بها تكذبون) (٨١) ·

كان مقتضى الظاهر أن يقال : (هى النار) بالاضمار، لتقدم المرجع ، لكنه عدل عن مقتضى الظاهر ، وأتى باسم الاشارة محل الضمير ، للدلالة على كمال بلادة المشرك ·

ومنها قوله تعالى : (قل ان كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم) (٨٢) ·
كان مقتضى الظاهر أن يقال : (وهو غفور رحيم) بالاضمار ، لتقدم المرجع ، لكنه عدل عن مقتضى الظاهر ، وأظهر الاسم الجليل ، للاشارة الى استتباع وصف الألوهية للمغفرة والرحمة (٨٣) ·

ومنها قوله تعالى : (الا ما رحم ربى ان ربى غفور رحيم) (٨٤) ·

كان مقتضى الظاهر أن يقال : (انه غفور رحيم) بالاضمار ، لتقدم المرجع ، لكنه عدل عن مقتضى الظاهر ، وأظهر لفظ (الرب) ، لتربية مبادىء المغفرة والرحمة (٨٥)·

ومنها قوله تعالى : (ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم والله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم) (٨٦) ·

---

(٨١) الطور / ١٣ ، ١٤ ·
(٨٢) آل عمران / ٣١ ·
(٨٣) انظر (تفسير أبى السعود) ج ١ ص ٤٦٥ ·
(٨٤) يوسف / ٥٣ ·
(٨٥) انظر (تفسير أبى السعود) ج ٣ ص ١٥٩ ·
(٨٦) البقرة / ١٠٥ ·

كان مقتضى الظاهر أن يقال : (وهو يختص برحمته من يشاء) بالاضمار ، لتقدم المرجع ، لكنه عدل عن مقتضى الظاهر وأتى بالاسم الظاهر فى محل الضمير وأعاده بلفظ (الله) ، لأن تخصيص الناس بالخير دون غيرهم مناسب للألوهية ، كما أن انزال الخير مناسب للربوبية (٨٧) ٠

ومنها قوله تعالى : (فانطلقا حتى اذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما فوجدا فيها جدارا يريد أن ينقض فأقامه قال لو شئت لاتخذت عليه أجرا) (٨٨) ٠

كان مقتضى الظاهر أن يقال : (استطعماها) أو (استطعماهم) ، بالاضمار ، لتقدم المرجع ، لكنه عدل عن مقتضى الظاهر ، وأتى بالاسم الظاهر فى موضع الضمير ، لأنه لو قال : (استطعماها) لم يصح ، لأنهما لم يستطعما القرية ، ولو قال : (استطعماهم) فكذلك ، لأن جملة (استطعما) صفة لـ (قرية) فى محل خفض ، جارية على غير من هى له ، لا لـ (أهل) ، فلابد أن يكون فيها ضمير، يعود عليها ، ولا يمكن الا مع التصريح بالظاهر ٠

وهذه المسألة قد حررها السبكى (٨٩) – رحمه الله – فى جواب سؤال ، سأله الصلاح الصفدى فى ذلك حيث قال : ٠٠٠

أسيدنا قاضى القضاة ومن اذا
بدا وجهه استحياله القمران

---

(٨٧) انظر (عروس الأفراح) جـ ١ ص ٤٦٠ من شروح التلخيص٠
(٨٨) الكهف / ٧٧ ٠
(٨٩) انظر (عروس الأفراح) جـ ١ ص ٤٦٠ من شروح التلخيص ٠

ومن كفـــه يـوم النـدى ويراعــه
على طرســه بحــران يلتقيــان (٩٠)

ومن ان دجت فى المشـكلات مسـائل
جــلاها بفــكر دائـم اللمعــان

رأيت كتـــاب الله أكـــبر معجـــز
لأفضــل من يهــدى بــه الثقــلان

ومن جملة الاعجاز كون اختصـاره
بايجــاز ألفـــاظ وبسـط معـــانى

ولكننى فى الكهـــف أبصرت آيـــة
بها الفكر فى طـول الزمان عنـــانى

وما هى الا اسـتطعما أهلهـــا فقـد
ترى اســتطعماهم مثـــله ببيـــان

فما الحكمــة الغراء فى وضع ظاهر
مــكان ضمــير ان ذاك لشــــان

فأرشــد على عادات فضــلك حيرتى
فمـــا لى بهـــا عنـــد البيـــان يـدان

---

(٩٠) الندى : الجود ، اليراع : جمع (يراعـــة) وهى القصبة ، الطرس : الصحيفة .

الفصل السابع

ائتلاف اللفظ مع المعنى

هو عند أهل البلاغة والبيـــان : (أن تكون الألفـاظ لائقة بالمعنى المقصود ومناسبة له) (١) ٠

فاذا كان المعنى فخما ، كان اللفظ الموضوع له جزلا ، واذا كان المعنى رشيقا ، كان اللفظ رقيقا ، واذا كان المعنى غريبا ، كان اللفظ كذلك ٠

وهو واد من أودية البلاغة ، وكنز من كنوز البيان ٠

وأنت اذا قرأت القرآن بتدبر وامعـــان ، وكنت ممن أوتوا حظا من البلاغة والبيان ، أدركت أن ألفاظه مؤتلفـة مع معانيه ، ائتـلافا عجيبـا ، معجزا للانس والجـــان ٠ وأدركت أيضا أن هذا الائتلاف ، يشتمل على حكم وأسرار ، تذهل العقول ، وتأخذ بمجامع القلوب ٠

ومن هذا الائتلاف قوله تعالى : (ان لك ألا تجوع فيها ولا تعرى ٠ وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى) (٢) ٠

فان المناسب فى الظاهر : أن يجتمع الجوع والظمأ ، والعرى والضحو ٠

---

(١) انظر (تحـــرير التجبير) ص ١٩٤ ـ و (الطـــراز) ج ٣ ص ١٤٤ ـ و (البرهان) ج ٣ ص ٣٧٨ ٠

(٢) طه / ١١٨ ، ١١٩ ٠

ولكن فى هذا النسق الالهى أسرار دقيقة ، نبينهـــا فيما يلى : ...

١ — لم يراع — سبحانه — مناسبة الرى للشبع ، والاستظلال للبس فى تحصيل المنفعة ، بل راعى مناسبة اللبس للشبع فى حاجة الانسان اليه ، وعدم استغنائه عنه ، ومناسبة الاستظلال للرى فى كونهما تابعين للبس والشبع (٣) .

٢ — أجرى الخطاب على مستعمل العادة ، لأن العادة أن يقال : جائع عريان ، ولم يستعمل فى هذا الموضع ، عطشان ، ولا ظمآن .

وقوله تعالى — تظمأ وتضحى — مناسب ، لأن الضاحى ، هو الذى لا يستره شيىء عن الشمس ، والظمأ من شأن من كانت هذه حاله .

وقد قال الجاحظ : فى القرآن معان لاتكاد تفترق ، من مثل الصلاة والزكاة ، والخوف والجوع ، والجنة والنار ، والرغبة والرهبة ، والمهاجرين والأنصار ، والجن والانس، والسمع والبصر (٤) .

٣ — فى ذكر الآية على هذا الترتيب تناسق معنوى دقيق ، فان الجوع خلو باطنى من الطعام، والعرى خلو ظاهرى من اللباس ، فكلاهما عرى ، والظمأ

---

(٣) انظر (خزانة الأدب) ص ٩٧ .

(٤) انظر (العمدة) ج ١ ص ١٧٣ .

حرقة داخلية فى الجوف ، والضحو حرقة خارجية فى الجسد ، فكلاهما حرارة ٠

٤ – ان الشبع والرى ، والكسوة والكن ، هى الأقطاب التى يدور عليها كفاف الانسان ، فذكر آدم باستجماعها له فى الجنة ، وأنه مكفى ، لايحتاج الى كفاية كاف ، ولا الى كسب كاسب ، كما يحتاج الى ذلك أهل الدنيا ، وذكرها بلفظ النفى لنقائضها ، التى هى الجوع والعرى ، والظمأ والضحو ، ليطرق سمعه بأسامى صنوف الشقوة التى حذره منها ، حتى يتحامى السبب الموقع فيها ، كراهة لها (٥) ٠

٥ – ان فى الآية سرا بديعا من البلاغة ، يسمى (قطع النظير عن النظير) (٦) ٠

وذلك أنه قطع الظمأ عن الجوع ، والضحو عن الكسوة مع ما بينهما من التناسب ، والغرض من ذلك تحقيق تعداد هذه النعم وتصنيفها ، ولو قرن كلا بشكله ، لتوهم المعدودات نعمة واحدة ٠

وقد رمق أهل البلاغة سماء هذا المعنى قديما وحديثا، فقال الكندى الأول (٧) :

---

(٥) انظر (الكشاف) جـ ٢ ص ٥٥٦ ٠
(٦) انظر (الانصاف) جـ ٢ ص ٥٥٦ على هامش الكشاف ٠
(٧) يريد بالكندى الأول : امرأ القيس ٠

كأنى لم أركب جـــوادا للـــذة
ولم أتبطن كاعبــاذات خلخــال

ولم أسبأ الزق الروى ولم أقـــل
لخيـــلى كرى كرة بعــد اجفـــال

فقطع ركوب الجواد عن كر الخيل،وقطع تبطن الكاعب عن سبأ الخمر ـ مع أنه المناسب ـ وغرضه أن يعدد ملاذه، ومفاخره ، ويكثرها ٠ وتبعه الكندى الآخر (٨) ، فقـــال : ـ يمدح سيف الدولة ـ

وقفت ومـــا فى الموت شـــك لواقف
كأنــك فى جفن الردى وهـــو نـــائم

تمر بك الأبطـــال كلمى هزيمـــــة
ووجهـــك وضـــاح وثغـــرك باسم

ويذكر الثعالبى (٩) أن سيف الدولة استنشد يومـــا أبا الطيب قصيدته التى أولها :

على قـــدر أهـــل العـــزم تأتى
وتأتى على قدر الكرام المـــكارم

وكان معجبا بهـــا كثير الاســـتعادة لها ، فانـــدفع أبو الطيب ينشـــدها ، فلمـــا بلغ قوله فيهـــا : وقفت ٠ (البيتين المتقدمين) ٠

---

(٨) الكندى الآخر : المتنبى ، وليس من كندة ، ولكنـــه ولد فى محلتها بالكوفة ، فنسب اليها ٠
(٩) انظر (يتيمة الدهر) جـ ١ ص ١٥ ، ١٦٠

قال انتقدنا عليــك هذين البيتين ، كمــا انتقد على امرىء القيس بيتــاه : كأنى لم أركب جــوادا (البيتين المتقدمين) .

وبيتاك لا يلتئم شطراهما ، كماليس يلتئم شطرا هذين البيتين ، وكان ينبغى لامرىء القيس أن يقول :

كأنى لم أركب جــوادا ولم أقل
لخيــلى كرى كرة بعــد اجفــال

ولم أسـبأ الزق الــروى للــذة
ولم أتبطن كاعبــاذات خـلخال

ولك أن تقــول :

وقفت وما فى الموت شــك لواقف
ووجهــك وضــاح وثغرك باسم

تمر بك الأبطــال كلمى هزيمــة
كأنك فى جفن الردى وهم نــائم

فقال أبو الطيب : أيد الله مولانا : ان صــح أن الذى استدرك على امرىء القيس هذا ، كان أعلم بالشعر منه ، فقد أخطأ امرؤ القيس وأخطأت أنا ، ومولانا يعلم أن الثوب لا يعرفه البزاز معرفة الحائك ، لأن البزاز يعرف جملته ، والحائك يعرف جملته وتفاريقه ، لأنه هو الذى أخرجه من الغزلية الى الثوبية ، وانما قرن امرؤ القيس لذة النســاء بلذة الركوب للصــيد ، وقرن الســماحة فى شراء الخمر للأضياف بالشجاعة فى منازلة الأعداء ، وأنا لما ذكــرت الموت فى أول البيت ، أتبعته بذكر الردى ليجانســه ، ولمــا

كان وجه الجريح المنهزم لا يخلو من أن يكون عبوسا ، وعينه من أن تكون باكية ، قلت :

(ووجهك وضاح وثغرك باسم) ، لأجمع بين الأضداد فى المعنى ، وان لم يتسع اللفظ لجميعها ٠

فأعجب سيف الدولة بقوله ، ووصله بخمسين من دنانير الصلات ، وفيها خمسمائة دينار ٠

وساق ابن رشيق الخبر برواية أخرى ، فقال : انه ورد على سيف الدولة رجل بغدادى يعرف بالمنتخب ، لايكاد يسلم منه أحد من القدماء والمحدثين ، ولا يذكر شعر بحضرته الا عابه ، وظهر على صاحبه بالحجة الواضحة ، فأنشد يوما هذين البيتين المتقدمين (بيتى امرىء القيس) ، فقال : قد خالف فيهما وأفسد : ولو قال :

كأنى لم أركب جوادا ولم أقل
لخيلى كرى كرة بعد اجفال

ولم أسبأ الزق الروى للذة
ولم أتبطن كاعبات خلخال

لكان قد جمع بين الشيىء وشكله ، فذكر الجواد والكر فى بيت ، وذكر النساء والخمر فى بيت ٠

فالتبس الأمر بين يدى سيف الدولة ، وسلموا له ما قال

فقال رجل ممن حضر : ولاكرامة لهذا الرأى : الله أصدق منك حيث يقول : (ان لك الا تجوع فيها ...) الآيات ٠

فأتى بالجوع مع العرى ، ولم يأت به مع الظمأ ٠

فسر سيف الدولة وأجازه ٠

قال ابن رشيق : قول امرىء القيس أصوب ، ومعناه أعز وأغرب ، لأن اللذة التى ذكرها انما هى للصيد - هكذا قول العلماء - ثم حكى عن شبابه وغشيانه النساء ، فجمع فى البيت معنيين ، ولو نظمه على ما قال المعترض لنقص فائدة عظيمة وفضيلة شريفة تدل على السلطان ٠

وكذلك البيت الثانى لو نظمه على ما قال لكان ذكر اللذة حشوا ، لا فائدة فيه ، لأن الزق ، لا يسبأ الا للذة ٠

فان جعل الفتوة - كما جعلناها فيما تقدم - الصيد ، قلنا فى ذكر الزق الروى كفاية ؛ ولكن امرؤ القيس وصف نفسه بالفتوة والشجاعة بعد أن وصفها بالتملك والرفاهة (١٠) ٠

٦ - فى الآية سر زائد على ما ذكر ، وهو قصد تناسب الفواصل ٠

ومنه قوله تعالى : (وأنه هو رب الشعرى) (١١) ٠

خص - سبحانه - (الشعرى) بالذكر دون غيرها من النجوم ، وهو رب كل شيىء ، لأن العرب ظهر فيهم رجل يعرف بابن أبى كبشة ، عبد الشعرى ، ودعا خلقا الى عبادتها ، وكان ممن عبدها خزاعة ، وكانت قريش تقول

---

(١٠) انظر (العمدة) ج ١ ص ١٧٣ ٠
(١١) النجم / ٤٩ ٠

لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أبو كبشة ، تشـــبيها له عليه الصلاة والسلام به ، لمخالفته اياهم فى دينهم (١٢) ٠

قال الألوسى ـ رحمه الله ـ : (ولكونها عبـــدت من دونه ـ عز وجل ـ خصت بالذكر ، ليكون ذلك تجهيـلا لهم بجعل المربوب ربا ، ولمزيد الاعتناء بذلك جيء بالجملة على ما نطق به النظم الجليل ، ومن العرب من كان يعظمهـا ، ويعتقد تأثيرها فى العالم ، ويزعمون أنها تقطع الســماء عرضا ، وسائر النجـوم تقطعهـا طولا ، ويتـكلمون على المغيبات عند طلوعها ، ففى قوله تعـــالى : (وأنه هو رب الشعرى) اشارة الى نفى تأثيرها) (١٣) ٠

ومنه قوله تعالى : (ان مثل عيسى عند الله كمثـل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون) (١٤) ٠

عدل ـ سبحانه ـ عن الطين الذى أخـبر فى كثير من مواضع الكتاب العزيز أنه خلق آدم منه ، كقوله تعـالى : (انى خالق بشرا من طين) (١٥) ، وقوله تعالى حـــكاية عن ابليس : (خلقتنى من نار وخلقته من طين) (١٦) ٠

عدل ـ عز وجل ـ ٠ وهو أعلم ٠ عن ذكر الطين الذى هو مجموع التراب والماء ، الى ذكر مجرد التراب ، لأنـــه أدنى العنصرين وأكثفهما ، لما كان المقصود مقابلة من ادعى

---

(١٢) انظر (البرهان) جـ ٣ ص ٣٨٠ ٠
(١٣) انظر (روح المعانى) جـ ٢٨ ص ٦٠ ٠
(١٤) آل عمران / ٥٩ ٠
(١٥) ص / ٧١ ٠
(١٦) الأعراف / ١٢ ٠

في المسيح الالهية ، بما يصغر أمر خلقه عند من ادعى ذلك، فلهذا كان الاتيان بلفظ التراب أمتن بالمعنى من غيره من العناصر ، ولو كان موضعه غيره ، لكان اللفظ غير مؤتلف بالمعنى المقصود ، ولما أراد ـ سبحانه ـ الامتنان على بنى اسرائيل بعيسى ـ عليه السلام ـ أخبرهم عنه أنه يخلق لهم من الطين كهيئة الطين ، تعظيما لأمر ما يخلقه باذنه ، اذ كان المعنى المطلوب الاعتداد عليهم بخلقه ، ليعظموا قدر النعمة به (١٧) ٠

ومنه قوله تعالى : (والله خلق كل دابة من ماء) (١٨) ٠ ٠٠٠٠

اقتصر ـ سبحانه ـ على ذكر الماء دون بقية العناصر، لأنه أتى بصيغة الاستغراق ، وليس فى العناصر الأربع ما يعم جميع المخلوقات الا الماء ، ليدخل الحيوان البحرى فيها (١٩) ٠

ومنه قوله تعالى : (ولا تركنوا الى الذين ظلموا فتمسكم النار وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون) (٢٠) ٠

لما نهى ـ سبحانه ـ عن الركون الى الظالمين ، وهو الميل اليهم ، والاعتماد عليهم ، وكان ذلك دون مشاركتهم فى الظلم ، أخبر أن العقاب على ذلك دون العقاب على

(١٧) انظر (تحرير التجبير) ص ١٩٤ ـ و (البرهان) ج ٣ ص ٣٧٨ ٠
(١٨) النور / ٤٥ ٠
(١٩) انظر (البرهان) ج ٣ ص ٣٧٨ ٠
(٢٠) هود / ١١٣ ٠

الظلم ، وهو مس النار ، دون الاحراق والاصطلاء (٢١) ٠

ومنه قوله تعـــالى : (لئن بسطت الى يـدك لتقتلنى ما أنا ببـاسط يدى اليـك لأقتـلك انى أخـــاف الله رب العالمين) (٢٢) ٠

هذه الآية الكريمة ، نشأ فيها سؤال ، وهو أن الترتيب فى الجمل الفعلية تقديم الفعل، وتعقيبه بالفاعل،ثم بالمفعول فان كان فى الكلام مفعولان : أحدهما يعدى وصول الفعل اليه بالحرف ، والآخر بنفسه ، قدم ما تعدى اليه الفعـــل بنفسه ، وعلى ذلك جـاء قوله تعـــالى : (وهو الذى كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم) (٢٣) ٠

اذا ثبت هذا ، فقد يقال : كيف توخى حسن الترتيب فى عجز الآية دون صدرها ؟

والجواب أن حسن الترتيب منع منـه فى صدر الآيـة مانع قوى ، وهو مخافة أن يتوالى ثلاثة أحرف متقاربات فى المخرج ، فيثقل الكلام بسبب ذلك ٠

فانه لو جاء الكلام فيه مرتبا لقيل : (لئن بسطت يدك الى) ٠ والطاء ، والتاء ، والياء ، متقاربات فى المخارج ٠

فلذلك حسن تقديم المفعـول الذى تعدى الفعـــل اليه بالحرف على المفعول الذى تعدى اليه بنفسه ، ولما أمن هذا المحذور فى عجز الآية ، بما اقتضته البـــلاغة من الاتيان

---

(٢١) انظر (تحرير التحبير) ص ١٩٦ _ و (البرهـــان) جـ ٣ ص ٣٧٩ ٠
(٢٢) المائدة / ٢٨ ٠
(٢٣) الفتح / ٢٤ ٠

باسم الفاعل موضع الجملة الفعلية ، لتضمنه معنى الفعل الذى تصح به المقابلة ، جاء الكلام على ترتيبه من تقديم المفعول الذى تعدى الفعل اليه بنفسه على المفعول الذى تعدى الفعل اليه بحرف الجر . وهذا أمر يرجع الى تحسين اللفظ ، وأما المعنى فعلى نظم الآية ، لأنه لما كان الأول حريصا على التعدى على غيره ، قدم المتعدى على الآلة ، فقال : (الى يدك) ، ولما كان الثانى غير حريص على ذلك، لأنه نفاه عنه قدم الآلة ، فقال : (يدى اليك) ويدل لهذا أنه عبر عن الأول بالفعل ، وفى الثانى بالاسم .

ويؤيد ذلك أيضا قوله : (ان يثقفوكم يكونوا لكم أعداء ويبسطوا اليكم أيديهم) (٢٤) ، لأنه لما نسبهم للتعدى الزائد ، قدم ذكر المبسوط اليهم على الآلة ، وذلك الجواب السابق ، لا يمكن فى هذه الآية (٢٥) .

ومنه قوله تعالى : (ولله ما فى السموات وما فى الأرض ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى) (٢٦) .

مقتضى الصناعة أن يؤتى بالتجنيس والازدواج فى صدر الآية ، كما أتى به فى عجزها ، لكن منع منه توخى الأدب والتهذيب فى نظم الكلام ، وذلك انه لما كان الضمير فى (يجزى) عائدا على (الله) - سبحانه - ، وجب أن يعدل عن لفظ المعنى الخاص الى رديفه ، حتى لا تنسب السيئة اليه - سبحانه - ، فقال فى موضع السيئة :

---

(٢٤) الممتحنة / ٢ .

(٢٥) انظر (تحرير التحبير) ص ٤٠٥ ، ٤٠٦ ، - و (البرهان) ج ٣ ص ٣٨٠ .

(٢٦) النجم / ٣١ .

(بما عملوا) ، فعوض عن تجنيس المزاوجة بالارداف ، لما فيه من الأدب مع الله (٢٧) ٠

ومنه قوله تعالى حكاية عن ابراهيم ـ عليه السلام ـ : (يا أبت انى أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليا) (٢٨) ٠

انظر الى هذا الكلام الشريف المعجز ، وما فيه من ائتلاف ألفاظه مع معانيه ، ائتلافا ، يحير العقول ، ويلين القلوب ، وما تضمنه من اللطف وحسن الأدب ، حيث لم يصرح فيه ابراهيم ـ عليه السلام ـ بأن العذاب لاحق بأبيه ، ولكنه قال : (انى أخاف ٠٠٠) فذكر الخوف والمس ، وذكر العذاب ، ونكره ، ولم يصفه بأنه يقصد التهويل ، بل قصد استعطافه ، ولهذا ذكر (الرحمن) ولم يذكر (المنتقم) ولا (الجبار) على حد قول الشاعر :

فما يوجع الحرمان من كف حارم
كما يوجع الحرمان من كف رازق

ومنه قوله تعالى : (ولقد استهزىء برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون) (٢٩)٠

لقد عبر القرآن بالسخرية دون الاستهزاء ، فما الحكمة في هذا التعبير ؟ وهلا قيل :(فحاق بالذين استهزؤا بهم) ليطابق ما قبله) ؟

---

(٢٧) انظر (البرهان) ج ٣ ص ٣٨٠ ٠
(٢٨) مريم / ٤٥ ٠
(٢٩) الأنعام / ١٠ ٠

والجواب أن الاستهزاء ، هو اسماع الاساءة ، والسخرية قد تكون فى النفس ، ولهذا يقولون : سخرت منه ، كما يقولون : عجبت منه ، ولا يقال : تجنب ذلك ، لما فى ذلك من تكرار الاستهزاء ثلاث مرات ، لأنه قد كرر السخرية ثلاثا فى قوله تعالى : (ان تسخروا منا فانا نسخر منكم كما تسخرون) (٣٠) ٠

وانما لم يقل : (نستهزىء بكم) ، لأن الاستهزاء ليس من فعل الأنبياء ٠ ثم قال : _ سبحانه _ (فحاق بالذين سخروا منهم) أى حاق بهم من الله الوعيد البالغ لهم على ألسنة الرسل ما كانوا به يستهزئون بألسنتهم ، فنزلت كل كلمة منزلتها (٣١) ٠

ما أبدع هذا الأتلاف ، وما أعظم هذا التلاؤم ، انه الجمال فى أبهى حلله ، والبيان فى أسمى مراميه ، والاعجاز فى أجلى معانيه ٠

ومنه قوله تعالى : (قالوا تا لله تفتأ تذكر يوسف حتى تكون حرضا أو تكون من الهالكين) (٣٢) ٠

تأمل بذوقك وعقلك هذا الأئتلاف العجيب ، فانه _ سبحانه _ أتى بأغرب ألفاظ القسم بالنسبة الى أخواتها، فان (والله) و (بالله) أكثر استعمالا ، وأعرف من (تالله) عند الكافة ، لما كان الفعل الذى جاور القسم أغرب الصيغ فى بابه ، فان (كان) وأخواتها أكثر استعمالا من (تفتأ)،

---

(٣٠) هود / ٣٨ ٠
(٣١) انظر (البرهان) ج ٣ ص ٣٨١ ، ٣٨٢ ٠
(٣٢) يوسف / ٨٥ ٠

وأعرف عند الكافة ، ولذلك أتى بعدهمـا بأغرب ألفـاظ الهلاك بالنسبة ، وهى لفظة (حرض) ، ولما أراد غير ذلك قال : (وأقسموا بالله جهد أيمانهم) (٣٣) ، لما كانت جميع الألفاظ مستعملة (٣٤) ·

ومنه قوله تعالى : (ومن حيث خرجت فول وجهـك شطر المسجد الحرام وانه للحق من ربك وما الله بغافل عما تعمـلون · ومن حيث خرجت فول وجهـك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهـكم شطره لئـلا يكون للناس عليكم حجـة الا الذين ظلموا منهـم فلا تخشـوهم واخشونى ولأتم نعمتى عليكم ولعلكم تهتدون) (٣٥) ·

ما أجمل هذا الائتلاف ، وما أبدعه ، لم يذكر (الكعبة)، لأن البعيد يكفيه مراعاة الجهة ، فان استقبال عينها حرج عليه ، بخلاف القريب ، ولما خص الرسول - عليه الصلاة والسلام - بالخطـاب تعظيما وايجـابا لشرعتـه ، عمم ، تصريحا بعموم الحكم ، وتأكيدا لأمر القبلة (٣٦) ·

ومنه قوله تعالى: (وسقاهم ربهم شرابا طهورا)(٣٧)

وقوله : (وأسقيناكم ماء فراتا) (٣٨) ·

وقوله : (وأن لو استقاموا على الطريقة لأسـقيناهم ماء غدقا) (٣٩) ·

---

(٣٣) فاطر / ٤٢ ·
(٣٤) انظر (تحرير التحبير) ص ١٩٥ ، ١٩٦ ·
(٣٥) البقرة / ١٤٩ ، ١٥٠ ·
(٣٦) انظر (البرهان) ج ٣ ص ٣٨٢ ·
(٣٧) الدهر / ٢١ ·
(٣٨) المرسلات / ٢٧ ·
(٣٩) الجن / ١٦ ·

تأمل هذا الائتلاف العجيب المعجز ، لقد عبر فى الآية الأولى بـ (سقى) الموضوعة لما لا كلفة معه فى السقيا ، لأن السقيا فى الآخرة ، لا يقع فيها كلفة ، بل جميع ما يقع فيها من الملاذ ، يقع فرصة وعفوا ، وعبر فى الآيتين الثانية والثالثة بـ (أسقى) الموضوعة لما لابد فيه من الكلفة ، لأن الاسقاء فى الدنيا ، لا يخلو من الكلفة أبدا (٤٠) ٠

ومنه قوله تعالى : (والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل شيىء موزون) (٤١) ٠

لقد عبر القرآن الكريم بالوزن دون الكيل ، فما الحكمة فى هذا التعبير ؟ وهلا قيل : (وأنبتنا فيها من كل شيىء مكيل ؟) ٠

والجواب أنه انما خص الموزون بالذكر دون المكيل لأمرين :

أحدهما : أن غاية المكيل ، ينتهى الى الموزون ، لأن سائر المكيلات ، اذا صارت قطعا ، دخلت فى باب الموزون، وخرجت عن المكيل ، فكان الوزن أعم من المكيل ٠

والثانى : أن فى الموزون معنى المكيل ، لأن الوزن هو طلب مساواة الشيىء بالشيىء ، ومقايسته ، وتعديله به ، وهذا المعنى ثابت فى المكيل ، فخص الوزن بالذكر ، لاشتماله على معنى المكيل (٤٢) ٠

---

(٤٠) انظر (البرهان) جـ ٣ ص ٣٨٥ ٠
(٤١) الحجر / ١٩ ٠
(٤٢) انظر (البرهان) جـ ٣ ص ٣٨٥ ، ٣٨٦ ٠

ومنه قوله تعالى : (ولقد أرسلنا نوحا الى قومه فلبث فيهم ألف سنة الا خمسين عاما فأخذهم الطوفان وهم ظالمون) (٤٣) .

تأمل بذوقك وعقلك هذا الائتلاف العجيب ، وما تضمنه من الأسرار واللطائف ، لقد عبر القرآن بـ ألف سنة الا خمسين عاما) فما الحكمة فى هذا التعبير ؟ ، وهلا قيل : (تسعمائة وخمسين سنة ؟) ، ولم جاء المميز أولا بالسنة ، وثانيا بالعام ؟ .

والجواب أن ما أورده الله أحكم ، لانه لو قيل : (تسعمائة وخمسين سنة) لجاز أن يتوهم اطلاق هذا العدد على أكثره ، وهذا التوهم زائل مع مجيئه كذلك ، وكأنه قيل : تسعمائة وخمسين سنة كاملة وافية العدد ، الا أن ذلك أخصر ، وأعذب لفظا ، وأملأ بالفائدة . وفيه نكتة أخرى ، وهى أن القصة مسوقة لذكر ما ابتلى به نوح عليه السلام من أمته ، وما كابده من طول المصابرة ، تسلية لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وتثبيتا له ، فكان ذكر رأس العدد ، الذى لا رأس أكثر منه أوقع ، وأوصل الى الغرض من استطالة السامع مدة صبره . وأما الحكمة فى مجيء المميز أولا بالسنة ، وثانيا بالعام ، فقد ذكر الزمخشرى أنه لاجتناب تكرير اللفظ الواحد فى الكلام الواحد ، لأن هذا التكرار حقيق بالاجتناب فى البلاغة الا اذا وقع ذلك لأجل غرض ينتحيه المتكلم من تفخيم ، أو تهويل ، أو تنويه ، أو نحو ذلك (٤٤) .

---

(٤٣) العنكبوت / ١٤ .
(٤٤) انظر (الكشاف) جـ ٣ ص ٢٠٠ .

هذا ما قاله الزمخشرى ، وهو ليس بشيىء ، ولا أدرى كيف صدر عنه مثل هذا التعليل مع ما اشتهر به من الدقة وحسن الفهم ؟

والحق ما قاله الزركشى من أنه انما ذكر فى مدة اللبث السنة ، وفى الانفصال العام ، للاشـــارة الى أنه كان فى شدائد فى مدته كلها ، الا خمسين عاما ، قد جاءه الفـــرج والغوث ، فان السنة ، تستعمل غالبا فى موضع الجدب ، ولهذا سموا شدة القحط سنة (٤٥) ٠

(٤٥) انظر (البرهان) جـ ٣ ص ٣٨٦ ٠

الفصل الثامن

الاستدراج

هو عند أهل اللغة : مصدر : استدرجه ، بمعنى : خدعه ، وأدناه منه على التدريج · يقال : امتنع فلان من كذا ، وكذا ، حتى أتاه فلان ، فاستدرجه ، أى خدعه ، حتى حمله على أن درج فى ذلك · وفى التنزيل (سنستدرجهم من حيث لا يعلمون (١) ، أى سنأخذهم قليلا قليلا ، ولا نباغتهم (٢) ·

وعند أهل البلاغة والبيان : (استمالة المخاطب بما يؤثر فيه ، ويأنس اليه ، أو بما يخوفه ، ويرغبه قبل أن يفاجئه المخاطب بما يطلب منه) (٣) ·

وهو باب واسع ، لأن أمزجة الناس ، تختلف فى ذلك، فينبغى أن يستمال كل شخص بما يناسبه ، وهذا لا يؤثر فيه التعليم الا يسيرا ، بل ينبغى أن يكون فى مزاج الانسان ، قوة تؤديه الى ذلك ، وهى تصرف فى الكلام ، كتصرف الانسان فى أحواله وأفعاله بما يعود عليه بالنفع ·

---

(١) القلم / ٤٤ ·

(٢) انظر (مختار الصحاح) ص ٢٠٢ ـ و (القاموس المحيط) ج ١ ص ١٩٤ ـ (ولسان العرب) ج ٢ ص ٢٦٨ ·

(٣) انظر (الأقصى القريب) ص ١٠٣ ـ و (الطراز) ج ٢ ص٢٨١

وصاحب الذوق السليم اذا تأمل أســاليب الاستدراج فى القرآن الكريم، أدرك أنها تربو على كل غاية فى الاتقان والاحكام ، وأن فيها من عجائب الأسرار ما لا ينطق بــه لسان ، ولا يدرك شأوه فرسان البلاغة والبيان ٠

ومن هذه الأساليب قوله تعالى : (وقال رجــل مؤمن من آل فرعون يكتم ايمانه أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم فان يك كاذبا فعليه كــذبه وان يك صادقا يصبكم بعض الذى يعدكم ان الله لا يهدى من هــو مسرف كذاب) (٤) ٠

انظر الى حسن مأخــذ هذا الــكلام ، وما تضمنــه من النزول فى الملاطفة ، فصدر الكلام بالانكار عليهم فى قتــله واستقباحه لأمرين :

أما أولا ، فلأنه قائل بالتوحيد لله تعالى ، وأما ثانيا ، فلأنه قد جاءهم بالمعجزات الواضحــــة فى هدايتهــم الى الخير ، فمن هذه حـــاله ، كيف يقـــدم على قتــله ؟ ، هذا مما لا يتسع له عقل ، ولا يقبله (٥) ٠

كأنه قال : أترتكبون هذه الفعله الشنعاء ، التى هى قتل نفس محرمة ، من غير روية ولا فكر ، وما لكم علة فى ارتكابها الا كلمة الحق ، التى نطق بهــا ، وهى قـــوله : (ربى الله) ، مع أنه لم يحضر لتصحيح قوله بينة واحدة ، ولكن بينات عدة ، من عند من نسب اليه الربوبية ، وهــو

---

(٤) غـافر / ٢٨ ٠

(٥) انظر (الطراز) جـ ٢ ص ٢٨٢ ، ٢٨٣ ٠

ربكم ، لا ربه وحده ، وهو استدراج لهم الى الاعتراف به، وليلين بذلك جماحهم ، ويكسر من سورتهم (٦) ٠

ثم أخذ بعد ذلك فى الاحتجـــاج عليهم على جهـــة التقسيم ، فقال : لا يخلو حاله ، اما أن يكون كاذبا ، فضر كذبه يعود عليه ، وأنتم خالصون عنـــه ، وان يك صادقا يصبكم بعض الذى يعدكم ، ان تعرضتم لقتله ، وفى سياق هذا الكلام من الملاطفة وحسن الأدب وكمال الانصـــاف ، ما يربو على كل غاية ، وبيانه من أوجه : أما أولا ، فلأنه صدر الـــكلام بكونه كاذبا ،على جهـــة التقـــدير ، ملاطفـــة واستنزالا للخصم عن نخوة المـــكابرة ، ودعـــاء له الى الاذعان والانقياد للحق ، وقدمه على كونه صادقا ، دلالة على ذلك ، وأما ثانيا ، فلأنه فرض صدقه على جهة التقدير، مع كونه مقطوعا بصدقه ، تقريبـــا للخصم ، وتسليما لـــا يدعيــه من ذلك ، وهضما لجـــانب الرســـول ، زيـــادة فى الانصاف ، ومبالغة فيــه ، وأما ثالثا ، فانه أردفه بقوله : (يصيبـــكم بعض الذى يعـــدكم) ، وان كان التحقيق أنه يصيبهم كل ما يعدهم ، لا محالة ، لأنه احتـــاج فى مقاولة خصوم موسى ومناكريه الى أن يلاوصهم ويداريهم ويســـلك معهم طريق الانصـــاف فى القـــول ، ويأتيهم من جهـــة المناصحة ، فجاء بما علم أنه اقـــرب الى تسليمهم لقوله ، وأدخل فى تصديقهم له ، وقبـــولهم منه ، فقـــال : وان يك صادقا يصبكم بعض الذى يعدكم) ، وهو كلام المنصف فى مقاله ، غير المشتط فيه ، ليســـمعوا منه أولا ، ولا يردوا عليه ، وذلك أنه حين فرضه صادقا ، فقد أثبت أنه صادق

---

(٦) انظر (الكشاف) ج ٣ ص ٤٢٤ - و غرائب القرآن) ج ٢٤ ص ٤٠ ٠

فى جميع ما يعد ، ولكنه أردفه بقوله : (يصبكم بعض الذى يعدكم) ، ليهضمه بعض حقه فى ظاهر الكلام ، فيريهم أنه ليس بكلام من أعطاه حقه وافيا ، فضلا أن يتعصب له ، أو يرمى الحصا من ورائه ٠ وأما رابعا ، فانه أتى بـ (ان) الشرطية ، وهى موضوعة للأمور المشكوك فيها ، ليدل بذلك على أنه غير مقطوع بما يقوله على جهة الفرض ، واذعانا للخصم على التقدير ، لارادة هضمه لحقه ، وأنه غير معط له ما يستحق من التعظيم ٠

وأما خامسا ، فقوله فى آخر الآية : (ان الله لا يهدى من هو مسرف كذاب) ، انما أتى به على التلطف والانصاف ، مخافة أن يبعدوا عن الهداية ، ومحاذرة عن نفارهم عن طريق الصواب فرضا وتقديرا ، والا فلو كان مسرفا كذابا ، لما هداه الله الى النبوة ، ولما أعطاه اياها ، ولما عضده بالبينات (٧) ٠

وفى هذا الكلام الشريف من الاستدراج للخصم وتقريبه ، وادنائه الى الحق ، ما لا يخفى على أحد من الأكياس ، وقد تضمن من اللطائف والأسرار ، ما لا سبيل الى جحده ٠

ومنها قوله تعالى : (واذكر فى الكتاب ابراهيم انه كان صديقا نبيا ٠ اذ قال لأبيه يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئا ٠ يا أبت انى قد جاءنى من العلم ما لم يأتك فاتبعنى أهدك صراطا سويا ٠ يا أبت

---

(٧) انظر (الكشاف) ج ٣ ص ٤٢٥ ـ و (الطراز) ج ٢ ص ٢٨٣ ، ٢٨٤ ـ و (تفسير البحر المحيط) ج ٧ ص ٤٦١ ـ و (روح المعانى) ج ٢٤ ص ٦٥ ٠

لا تعبد الشيطان ان الشيطان كان للرحمن عصيا ٠ يا أبت انى أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشـيطان وليـا) (٨) ٠

هذا كلام يهز الأعطاف ، ويأخذ بمجـامع القلوب فى الاسـتدراج والاذعـان والانقيـاد ، بألطف العبـارات وأرشقها ٠

فانظر حين أراد ابراهيم عليه السلام ، أن ينصح أباه، ويعظه فيما كان متورطا فيه من الخطأ العظيم ، والارتكاب الشنيع الذى عصى فيه أمر العقلاء ، وانسـلخ عن قضيـة التمييز ، ومن الغباوة التى ليس بعدها غباوة ، كيف رتب الكلام معه فى أحسن اتساق ، وساقه أرشق مسـاق ، مع استعمال المجـاملة والرفق ، واللين والأدب الجميـل ، والخـلق الحسن ، منتصحـا فى ذلك بنصيحـة ربـه ـ جلا وعلا ـ ، على ما رواه أبو هريرة ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : (أوحى الله الى ابراهيم ـ عليه السلام ـ انك خليلى ، حسن خلقك ، ولو مع الكفار ، تدخل مداخل الأبرار ، فان كلمتى سبقت لمن حسن خلقه أن أظله تحت عرشى ، وأسكنه حظيرة قدسى، وأدنيه من جوارى) ٠

وذلك انه بدأ يطلب الباعث له على عبادة الأوثان ، والأصنام ، ليتوصل بذلك الى قطعه وافحـامه ، ثم انه تكايس معه ، بأن عرض اليه بأن من لا يسمع ، ولا يبصر ، ولا يغنى شيئا من الأشياء ، لا يكون حقيقا بالعبادة ، وأن من كان حيا سميعا بصيرا مقتدرا على الاثابة والعقـاب ،

---

(٨) مريم / ٤١ ـ ٤٥ ٠

نافعا ضارا متمكنا من العطاء والانعام والتفضل ، الا أنه بعض الخلق ، لاستخف عقل من أهله للعبادة ، ووصفه بالربوبية ، ولسجل عليه بالغى المبين والظلم العظيم ، وان كان أشرف الخلق ، وأعلاهم منزلة ، كالملائكة والنبيين ، وذلك أن العبادة ، هى غاية التعظيم ، فلا تحق ، الا لمن له غاية الانعام ، وهو الخالق الرازق ، المحى المميت ، المعاقب ، الذى منه أصول النعم وفروعها ، فاذا وجهت الى غيره ـ وتعالى علوا كبيرا أن تكون هذه الصفة لغيره ـ لم يكن الا ظلما وعتوا وغيا وكفرا ، وجحودا وخروجا عن الصحيح النير ، الى الفاسد المظلم ، فما ظنك بمن وجه عبادته الى جماد ، ليس به حس ولا شعور ، فلا يسمع ياعابده ذكرك له ، وثناءك عليه ، ولا يرى هيآت خضوعك، وخشوعك له ، فضلا أن يغنى عنك ، بأن تستدفعه بلاء ، فيدفعه ، أو تسنح لك حاجة ، فيكفيكها (٩) ٠

ثم ثنى بدعوته الى الحق ، مترفقا به ، متلطفا ، فلم يسم باه بالجهل المفرط ، وان كان فى أقصاه ، ولا نفسه بالعلم الفائق ، وان كان كذلك ، ولكنه قال : ان معى لطائف من العلم ، وشيئا منه ليس معك ، وذلك هو علم الدلالة على الطريق السوى ، فلا تستنكف ،وهب أنى واياك فى مسير ، وعندى معرفة بالهداية دونك ، فاتبعنى أنجك من أن تضل ، وتتيه ، وقال له : (أهدك صراطا سويا) ، ولم يقل : أنجك من ورطة الكفر ، وأنقذك من عماء الحيرة،

---

(٩) انظر (الكشاف) جـ ٢ ص ٥١٠ ـ و (التفسير الكبير) جـ ٢١ ص ٢٢٤ ـ و (روح المعانى) جـ ١٦ ص ٩٧ ـ و (غرائب القرآن) جـ ١٦ ص ٦٢ ٠

تأدبا منه ، واعتصاء على مباداته بقبيح كفره ، وتسامحا عن ذكر ما يغيظه (١٠) ٠

ثم ثلث بتثبيطه ونهيه عما كان عليه ، بأن الشــــيطان الذى استعصى على ربك الرحمن ، الذى جميع ما عندك من النعم من عنده ، وهو عدوك الذى لا يريد بك الا كل هلاك ، وخزى ونكال ، وعدو أبيك آدم ، وأبناء جنسك كلهم ، هو الذى ورطك فى هذه الضلالة ، وأمرك بها ، وزينهـــا لك ، فأنت ان حققت النظر عـــابد الشـــيطان ، والشـــيطان بمعصيته لله ، دلل على أنه ضعيف الرأى ، ومن كان كذلك كان حقيقا ، أن لا يلتفت الى رأيه ، ولا يجعل لقوله وزن ، الا أن ابراهيم — عليه السلام — لا معانه فى الاخـــلاص ، ولارتقاء همته فى الربانية ، لم يذكر من جنابتى الشيطان ، الا التى تختص منها برب العزة من عصيانه ، واستكباره ، كأن النظر فى عظم ما ارتكب من ذلك غمر فكره ، وأطرق على ذهنه ، فذكر ما هو الأصل ، تحذيرا له عن ذلك ، وعن مواقعته ، ونبهه بهذه النصيحة على وجود الرحمن ، ثم على وجود الشيطان ، وأن الرحمن مصدر كل خير ، والشيطان مظهر كل شر ، وفى التعبير بلفظ (الرحمن) هنا تنبيـــــه على سعة رحمته ، وأن من هذا وصفه هو الذى ينبغى أن يعبد ، ولايعصى ، واعلام بشقاوة الشيطان ، حيث عصى من هذه صفته ، وارتكب من ذلك ما طرده من هذه الرحمة ٠

---

(١٠) انظر (الكتاف) ج ٢ ص ٥١١ — وغرائب القرآن) ج ١٦ ص ٦٢ ٠

وهذا القدر كاف فى التنبيه لمن تأمل ، وأنصف (١١)٠

ثم ربع بتخويفه من سوء العاقبة بالعـذاب السرمدى ، ولم يخل ذلك من حسن الأدب ، حيث لم يصرح بأن العقاب لاحق له ، وأن العذاب لاصق به ، اكبارا له ، واعظـاما لحرمة الأبوة ، ولكنه أتى بما يشعر بالشك فى ذلك ، تأدبا له ، فقال له : (انى أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن)، فذكر الخوف والمس ، ونكر العذاب ، تحاشيا عن أن يكون هناك عذاب معهود ، يخاف منه ، كأنه قال : وما يؤمنك ان بقيت على الـكفر أن تستحق عذابا عظيما عليه (١٢) ٠ ورتب على مس العـــذاب ما هو أكبر منـه ، وهو ولايـة الشيطان ، وذلك أن رضوان الله أكبر من الثواب نفسه ، فكذلك ولاية الشيطان التى هى معارضة رضوان الله أكبر من العذاب نفسه ، وأعظم (١٣) ٠

ثم خمس بأن صـدر كل نصيحة من النصـائح الأربع بقوله : (يا أبت) ، توسلا اليه ، واستعطافا ، ليكون ذلك أسرع الى الانقياد ، وأدعى الى مفارقة ما هو عليـه من الجحود والعناد ٠

وهذه المناصحات تدل على شدة تعلق قلبه بمعالجـة أبيه ، والرغبة فى صـونه عن العقـاب ، وارشـاده الى

---

(١١) انظر (الكشاف) جـ ٢ ص ٥١١ - و (التفســير الكبير) جـ ٢١ ص ٢٢٥ - و (تفسير البحر المحيط) جـ ٦ ص ١٩٤ - و (روح المعانى جـ١٦ ص ٩٨ ٠

(١٢) انظر (الكشاف) جـ ٢ ص ٥١١ - و (تفسير أبى السعود) جـ ٣ ص ٥٨٦ - و (مفتاح العلوم) ص ٦٢ - و (المطول) ص ٧٩ ٠

(١٣) انظر (الكشاف) جـ ٢ ص ٥١١ ٠

الصواب ، والطماعية فى هدايته ، قضـــاء لحق الأبوة ، على ما قال تعالى : (وبالوالدين احسانا) (١٤) ٠

والارشاد الى الدين من أعظم أنواع الاحسان ، فاذا انضاف اليه رعـــاية الأدب والرفق ، كان ذلك نورا على نور ٠

فلما سمع كلامه هذا ، وتفطن لما دعاه اليه ، أقبـــل عليه بفظاظة الكفر ، وجلافة الجهل ، وغلظ العناد ، فناداه باسمه ، ولم يقل : (يابنى) ، كما قال ابراهيم (ياأبت) ، اعراضا عن مقالته ، واصرارا على ما هو فيه ، وتهاونا به، فقـال : (أراغب أنت عن آلهتى يا ابراهـــيم لئن لم تنته لأرجمنك واهجرنى مليا) (١٥) ، فقـدم المبتـــدأ بقوله : (أراغب أنت) ، اهتماما بالانكار ، وتماديا فى المبالغة فى التعجب عن أن يكون من ابراهيم مثل هذا ٠

فانظر الى ما بين الخطابين من التفـــاوت فى الرقة والرحمة ، وحسن الاستدراج ، (فلله در الأنبيـــاء) فما أسجح خلائقهم ، وأرق شمائلهم ، وفى هذا سلوان ، وثلج لصدر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عما كان يلقى من مثل ذلك من كفار قومه ٠

ومنها قوله تعالى : (اذهبا الى فرعـــون انه طغى ٠ فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى ٠ قالا ربنا اننا نخاف أن يفرط علينـــا أو أن يطغى ٠ قالا لا تخـــافا اننى معكما

---

(١٤) الاسراء / ٢٣ ٠
(١٥) مريم / ٤٦ ٠

أسمع وأرى · فأتياه فقولا انا رسولا ربك فأرسل معنا بنى اسرائيل ولاتعذبهم قد جئناك بآية من ربك والسلام على من اتبع الهدى · انا قد أوحى الينا أن العذاب على من كـذب وتولى · قال فمن ربكما يا موسى · قال ربنا الذى أعطى كل شيىء خلقه ثم هدى · قال فما بال القرون الأولى · قال علمها عند ربى فى كتاب لا يضل ربى ولا ينسى · الذى جعل لكم الأرض مهدا وسلك لكم فيها سـبلا وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبـات شتى · كلوا وارعـوا أنعامكم ان فى ذلك لآيات الأولى النهى · منها خلقنـاكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى) (١٦) ·

هذا كلام يذهل العقول ، ويسحر الألباب ، جـاء على أحسن هيئة ، ورتب على أعجب ترتيب من حسن الملاطفـة والاسـتدراج ، والرفق فى الخصمة والحجـاج ، والأدب العالى ، وحسن الخلق الحميد ·

فأمر – سـبحانه – بالتلطف والاسـتدراج بقوله : (فقولا له قولا لينا) ، لأن القول اللين ، لا يثير العزة بالاثم، ولا يهيج الكبرياء الزائف ، الذى يعيش به الطغاة ، ومن شأنه أن يوقظ القلب ، فيتذكر ، ويخشى عاقبة الطغيـان ، ثم قال : (قالا ربنا اننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى قال لا تخافا اننى معكما أسمع وأرى)، فأمنهما – تعالى – ، كأنه قيل : فما يكون فرعون ، وما يملك ، وما يصنع حين يفرط أو يطغى ؟ والله معهما يسمع ، ويرى ، ثم علمهما كيف يخاطبانه ، فقال :

---

(١٦) مريم / ٤٣ – ٥٥

(فأتيــاه فقولا انا رســولا ربك فأرســـل معنا بنى اسرائيل ولا تعذبهم قد جئناك بآية من ربك والســلام على من اتبع الهدى انا قد أوحى الينا أن العذاب على من كذب وتولى) ، فقولهما : (انا رسولا ربك) نسبة اليــه ، ولم يقولا : (انا رسولا ربنا) من التلطف البديع ، ليشعر منــذ اللحظة الأولى بأن هناك الها ، هو ربه ، ورب النـــاس ، فليس هو الها خاصا بموسى وهارون ، أو ببنى اسرائيل ، كما كان سائدا فى خرافات الوثنيــة يومذاك أن لكل قــوم الها ، أو آلهة ، ولكل قبيل الهــا ، أو آلهـــة ، أو كما كان سائدا فى بعض العصور من أن فرعون مصر اله يعبد فيها ، لأنه من نسل الآلهة (١٧) ٠

وفى التعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة الى ضميره من اللطف ما لا يخفى ، وان رأى اللعين أن فى ذلك تحقيرا له ، حيث انه يدعى الربوبية لنفســه ، ولا يعـــد ذلك من الاغلاظ فى القول (١٨) ٠

وقوله : (ولا تعذبهم قد جئناك بآية من ربك والسلام على من اتبع الهدى) ٠

أيضا غاية فى التلطف ، فانهما طلبا منه بنى اسرائيل ، ولم يصرحا له بدعـــوته الى الايمان ، واخراجه عمــا هو عليه ، وأسندا ذلك الى الآية ، استمالة له الى رؤيتها (١٩) ، ثم قالا : (والسلام على من اتبع الهـــدى) ، ولم يقــولا :

---

(١٧) انظر (فى ظلال القرآن) جـ ٥ ص ٤٧٦ ٠

(١٨) انظر (روح المعانى) جـ ١٦ ص ١٩٨ ٠

(١٩) انظر (الأقصى القريب) ص ١٠٣ ٠

(اتبع) على سبيل الأمر ، ابقاء لعظمته فى نفسه ، ثم أتبعاه بما هو أشد ، فقدما التلطف بين يديه ، فقالا : (انا قد أوحى الينا أن العذاب على من كذب وتولى) ، وفى هذا أيضا تلطف ، اذ لم يخصاه به ، وذكراه على سبيل العموم الذى يستلزم دخوله فيه ·

ثم قال تعالى حكاية عن فرعون : (قال فمن ربكما يا موسى) ، ثم قال تعالى حكاية عن جواب موسى — عليه السلام — ، اذ هو المسئول : (قال ربنا الذى أعطى كل شيىء خلقه ثم هدى) ، فأجابه بالجواب المطابق لسؤاله المتضمن لكون ربهما ربه ، وذلك قوله : (الذى أعطى كل شيىء خلقه ثم هدى) ، ثم قال تعالى حكاية عن قول فرعون : (قال فما بال القرون الأولى) سأل عن أمر مغيب، مهما أخبره به عنه ، يمكنه انكاره ، قصدا للمغالطة، ولذلك لم يجبه موسى — عليه السلام — الا بقوله : (علمها عند ربى فى كتاب لا يضل ربى ولا ينسى) ، ولله در هذا الجواب ، ما أخصره ، وما أجمعه ، وما أبينه ، لمن ألقى الذهن ، ونظر بعين الانصاف ، وكان طالبا للحق · سأله عن حال من تقدم ، وخلا من القرون ، وعن شقاوة من شقى منهم ، وسعادة من سعد ، فأجابه بأن هذا سؤال عن الغيب ،وقد استأثر الله به ، لا يعلمه الا هو ، وما أنا الا عبد مثلك ، لا أعلم منه الا ما أخبرنى به علام الغيوب ، وعلم أحوال القرون مكتوب عند الله فى اللوح المحفوظ ، لا يجوز على الله أن يخطىء شيئا ، أو ينساه ، كما يجوز عليك أيها العبد الذليل ، والبشر الضئيل ، أى لا يضل ، كما تضل

أنت ، ولا ينسى كما تنسى ؛ يامدعى الربوبية بالجهل والوقاحة (٢٠) ٠

ثم عدد عليه نعم الله وآياته ، تلطفا لاستمالته أيضا بقوله : (الذى جعل لكم الأرض مهدا وسلك لكم فيها سبلا وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى ٠ كلوا وارعوا أنعامكم ان فى ذلك لآيات لأولى النهى ٠ منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى) ٠

فقوله بعد ما عدد من النعم بضمير الغائب ، وهو المتكلم به : (فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى) بضمير المتكلم الذى لا يجوز أن يكون المتكلم به عن نفسه الا الله اعلام لفرعون أن جميع ما قلته من الله وليس منى ، ثم عقب ذلك بذكر نعمة واباحتها لهم، وكونها آية ، لا تخفى على ذى النهى ثم أعلمهم أنه خلقهم من الأرض برحمته ، ويعيدهم اليها بقدرته ، ثم يخرجهم منها للجزاء ، وذلك لعدله وبحكمته ، وفى هذا القول دليل على أن لا اله الا هو ، ولا رب غيره ، وهذا هو الذى لم يفاجأ به فرعون أولا ، وتلطف به فى طريقه ، مع أنه من لطيف الكلام (٢١) ٠

---

(٢٠) انظر (غرائب القرآن جـ ١٦ ص ١٣٣ ٠

(٢١) انظر (الكشاف جـ ٢ ص ٥٣٨ - ٥٤١ - و (الاقصى القريب) ص ١٠٣ ، ١٠٤ ٠

الفصل التاسع

التمكين

هو عند أهل البلاغة والبيان : (أن يمهد الناثر للقرينة ، أو الشاعر للقافية تمهيدا ، تأتى به القافية أو القرينة متمكنة فى مكانها ، مستقرة فى قرارها ، مطمئنة فى موضعها ، غير نافرة ، ولا قلقة ، متعلقا معناها بمعنى الكلام كله تعلقا تاما ، بحيث لو طرحت لاختل معنى الكلام، واضطرب فهمه ، واستغلق بيانه ، ولو سكت عنها لاستطاع السامع أن يختمه بها ، انسياقا مع الطبع الملهم ، والذوق السليم) (١) ٠

وصاحب الذوق السليم اذا تأمل أساليب (التمكين) فى القرآن الكريم ، أدرك أنها بلغت الغاية فى الابداع ، والنهاية فى الاعجاز ، لما فيها من الدقائق والعجائب ، التى يعجز عن ادراك شأوها فرسان البلاغة ، وأساطين البيان ٠

ومن هذه الأساليب قوله تعالى : **(قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم الا تشركوا به شيئا وبالوالدين احسانا ولا تقتلوا أولادكم من املاق نحن نرزقكم واياهم ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا تقتلوا النفس التى حرم الله الا بالحق ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون ٠**

---

(١) انظر (الاتقان) جـ ٣ ص ٣٤٥ ٠

ولا تقربوا مال اليتيم الا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشـــده وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لا نكلف نفسا الاوسعها وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهـــد الله أوفوا ذلـــكم وصاكم به لعـــلكم تذكرون • وأن هـــذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا الســـبل فتفــرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون) (٢) •

تأمل بذوقك وعقلك هذه الآيات الثلاث • لقـد ختمت الأولى بقوله (لعلكم تعقلون) ، والثـــانية بقوله : (لعلكم تذكرون) والثالثة بقوله : (لعلكم تتقون) ، فما السر فى ذلك ؟

لقد اختلفت الأذواق ، وتباينت العقول فى الكشف عن ذلك السر العظيم • فقيل : ان السر فى ذلك أن الوصـــايا التى فى الآية الأولى انما يحمـــل على تركهـــا عدم العقـــل الغالب على الهوى ، لأن الاشراك بالله لعدم استكمال العقل الدال على توحيده وعظمته ، وكذلك عقـــوق الوالدين ، لا يقتضيه العقل ، لسبق احسانهما الى الولد بكل طـــريق ، وكذلك قتل الأولاد بالوأد من الاملاق مع وجـــود الرازق الحى الكريم ، وكذلك اتيان الفواحش ، لا يقتضيه عقل ، وكذلك قتل النفس لغيظ ، أو غضب فى القاتل ، فحسن بعد ذلك (يعقلون) •

وأما الثانية ، فلتعلقها بالحقوق المـــالية والقولية ، فان من علم أن له أيتـــاما ، يخلفهم من بعـــده ، لا يليق به أن يعامل أيتام غيره الا بما يحب أن يعامل به أيتـــامه ، ومن

---

(٢) الأنعام / ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٣ •

يكيل ، و يزن ، أو يشهد لغيره ، لو كان ذلك الأمر له ، لم يحب أن يكون فيه خيانة ، ولابخس ، وكذا من وعـــد ، أو وعد ، لم يحب أن يخلف ، ومن أحب ذلك عامل الناس به ، ليعاملوه بمثله ، فترك ذلك انما يكون لغفلة عن تدبر ذلك ، وتأمله ، فلذلك ناسب الختم بقوله : (لعلكم تذكرون) ٠

وأما الثالثة ، فلأن ترك اتباع الشرائع الدينيـة مؤد الى غضب الله ، والى عقابه ، فحسن (لعلكم تعقلون) أى عقاب الله بسببه (٣) ٠

وقيل : ختمت الآية الأولى بقوله (لعــلكم تعقلون) ، والتى تليها بقوله : (لعلكم تذكرون) ، لأن القـــوم كانوا مستمرين على الشرك ، وقتل الأولاد ، وقربان الزنا ، وقتل النفس المحــرمة بغير حق ، غــير مستنكفين ، ولا عاقلين قبحها ، فنهاهم – ســبحانه – لعلهم يعقــلون قبحهـا ، فيستنكفوا عنها ، ويتركوها ٠

وأما حفظ أموال اليتــامى عليهم ، وايفـــاء الكيل ، والعدل فى القول ، والوفاء بالعــدل ، فـكانوا يفعــلونه ، ويفتخرون بالاتصاف به ، فأمرهم – سبحانه – بذلك لعلهم يذكرون ، ان عرض لهم نسيان (٤) ٠

وقيل : السبب فى ختم كل آية بما ختمت : أن التكاليف الخمسة المذكورة فى الآية الأولى ظاهرة جليـــة ، فوجب تعقلها ، وتفهمها ، والتكاليف الأربعة المذكورة فى الآيـة

---

(٣) انظر (الاتقان) جـ ٣ ص ٣٤٨ ٠

(٤) انظر (روح المعانى) جـ ٨ ص ٥٦ ٠

التى تليها خفية غامضة ، لابد فيها من الاجتهاد والفكر الكثير ، حتى يقف على موضع الاعتدال فيها ، وهو التذكر، فلهذا السبب قال : (لعلكم تذكرون) (٥) ٠

وقيل : ان أكثر التكليفات الأول ، أدى بصيغة النهى ، وهو فى معنى المنع ، والمرء حريص على ما منع فناسب أن يعلل الايصاء بذلك بما فيه ايماء الى معنى المنع والحبس ، وهذا بخلاف التكليفات الآخرى ، فان أكثرها ، قد أدى بصيغة الأمر ، وليس المنع فيه ظاهرا ، كما فى النهى ، فيكون تأكيد الطلب والمبالغة فيه ، ليستمر عليه ، ويتذكر اذا نسى ٠

ولما كان الصراط المستقيم هو الجامع للتكاليف ، وأمر ـ سبحانه ـ باتباعه ، ونهى عن اتباع غيره من الطرق ، ختم ذلك بالتقوى ، التى هى اتقاء النار ، اذ من اتبع صراطه ، نجا النجاة الأبدية ، وحصل على السعادة السرمدية (٦) ٠

ومنها قوله تعالى : (وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون ، وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون ، وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء فأخرجنا منه حبا متراكبا ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه انظروا الى

---

(٥) انظر (التفسير الكبير) جـ ١٢ ص ٢٣٦ ٠

(٦) انظر (تفسير البحر المحيط) جـ ٤ ص ٢٥٤ ٠

ثمره اذا أثمر وينعه ان فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون) (٧)٠

تأمل ختام هذه الآيات الثلاث ، لقد ختمت الأولى بقوله : (لقوم يعلمون) والثانية بقوله : (لقوم يفقهون) والثالثة بقوله : لقوم يؤمنون) فما الحكمة فى ذلك ؟

لقد تحركت الأذواق ، ونشطت العقول للبحث عن هذه الحكمة ، فقيل : ان الحكمة فى ذلك : أن حساب النجوم والاهتداء بها ، يختص بالعلماء ، فناسب ختمه بـ (يعلمون) ٠ وانشاء الخلائق من نفس واحدة ، ونقلهم من صلب الى رحم ، ثم الى الدنيا ، ثم الى حياة وموت ، والنظر فى ذلك ، والفكر فيه أدق ، فناسب ختمه بـ (يفقهون) ، لأن الفقه فهم الأشياء الدقيقة ٠

ولما ذكر ما أنعم به على عباده من سعة الأرزاق والأقوات والثمار ، وأنواع ذلك ، ناسب ختمه بالايمان الداعى الى شكره - تعالى - على نعمه (٨) ٠

وذكر ابن المنير : أن الحكمة فى تخصيص الأولى بالعلم والثانية بالفقه ، هى أنه لما كان المقصود التعريض بمن لا يتدبر آيات الله - تعالى - ، ولا يعتبر بمخلوقاته ، وكانت الآيات المذكورة أولا خارجة عن أنفس النظار ، اذ النجوم والنظر فيها ، وعلم الحكمة الالهية فى تدبيره لها أمر خارج عن نفس الناظر ، ولا كذلك النظر فى انشائهم من نفس واحدة ، وتقلبهم فى أطوار مختلفة ،

---

(٧) الأنعام / ٩٧ ، ٩٨ ، ٩٩ ٠

(٨) انظر (الاتقان) جـ ٣ ص ٣٤٩ - و (روح المعانى) جـ ٧ ص ٢٣٦ ٠

وأحوال متغايرة ، فـانه نظر ، لا يعـدو نفس النـاظر ، ولا يتجاوزها ، فاذا تمهد هذا ، فجهل الانسـان بنفسه ، وأحواله ، وعدم النظر والتفكر فيها أبشع من جهله بالأمور الخارجة عنه ، كالنجوم والأفلاك ، ومقـادير سـيرها ، وتقلبها ، فلما كان الفقه أدنى درجات العلم ، اذ هو عبارة عن الفهم ، نفى بطريق التعريض عن أبشع القبيلين جهلا ، وهم الذين لا يتبصرون فى أنفسهم ، ونفى الأدنى أبشـع من نفى الأعلى ، فخص به أسوأ الفريقين حالا ·

و (يفقهون) ههنا مضـارع (فقـه الشيء) بكسر القاف ، اذا فهمه ، ولو أدنى فهم ، وليس (فقه) بالضم ، لأن تلك درجة عالية ، ومعناه : صار فقيها ·

ثم ذكر أنه اذا قيل : فلان لا يفقه شيئا ، كان أذم فى العرف من قولك : فلان لا يعلم شيئا ، وكأن معنى قولك : لا يفقه شيئا ، ليست له أهلية الفهم ، وان فهم ، وأما قولك: لا يعلم شيئا ، فغايته عدم حصول العلم له ، وقد يكون لـه أهلية الفهم والعلم ، لو تعلم (٩) ·

ومنها قوله تعالى : (هو الذى أنزل من السماء مـاء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون ، ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات ان فى ذلك لآية لقوم يتفكرون · وسخر لكم الليـل والنهـار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ان فى ذلك لآيات لقـوم يعقلون · وما ذرأ لكم فى الأرض مختلفا ألوانـه فى ذلك لآية لقوم يذكرون) (١٠) ·

---

(٩) انظر (الانصاف) جـ ٢ ص ٣٩ ، ٤٠ على هامش الكشاف ·

(١٠) النحل / ١٠ - ١٣ ·

تأمل فواصل هذه الآيات الكريمة ، تجدها فى غاية التمكن والمناسبة ، فقد جعل مقطع الآية الأولى (التفكر)، لأنه استدلال بحدوث الأنواع المختلفة من النبات على وجود الاله القادر المختار ، ولما كان هنا مظنة سؤال ، وهو أنه لم لا يجوز أن يكون المؤثر فيه طبائع الفصول ، وحركات الشمس والقمر ؟ ·

وكان الدليل لا يتم الا بالجواب عن هذا السؤال ، كأن مجال التفكر والنظر والتأمل باقيا · فأجاب - تعالى - عنه بوجهين :

أحدهما : أن تغيرات العالم السفلى مربوطة بأحوال حركات الأفلاك ، فتلك الحركات كيف حصلت، فان كان حصولها بسبب أفلاك أخرى ، لزم التسلسل ، وان كان من الخالق الحكيم ، فذاك اقرار بوجود الاله - تعالى - وهذا هو المراد بقوله تعالى : (وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ان فى ذلك لآيات لقوم يعقلون) ·

فجعل مقطع هذه الآية (العقل) ، وكأنه قيل : (ان كنت عاقلا ، فاعلم أن التسلسل باطل ، فوجب انتهاء الحركات الى حركة ، يكون موجدها غير متحرك ، وهو الاله القادر المختار ·

والثانى : أن نسبة الكواكب والطبائع الى جميع أجزاء الورقة الواحدة ، والحبة الواحدة واحدة . ثم انا نرى الورقة الواحدة من الورد أحد وجهيها فى غاية الحمرة ، والآخر فى غاية السواد ، فلو كان المؤثر موجبا بالذات ، لامتنع حصول هذا التفاوت فى الآثار ، فعلمنا أن المؤثر قادر مختار ، وهذا هو المراد من قوله : (وما ذرأ لكم فى الأرض مختلفا ألوانه ان فى ذلك لآية لقوم يذكرون) .

كأنه قيل : اذكر ما رسخ فى عقلك أن الواجب بالذات والطبع لا يختلف تأثيره ، فاذا نظرت حصول هذا الاختلاف، علمت أن المؤثر ليس هو الطبائع ، بل الفاعل المختار ، فلهذا جعل مقطع الآية (التذكر) (١١) .

ومنها قوله تعالى : (قل أرأيتم ان جعل الله عليكم الليل سرمدا الى يوم القيامة من اله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون . قل أرأيتم ان جعل الله عليكم النهار سرمدا الى يوم القيامة من اله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون) (١٢) .

ان ختام كل آية من هاتين الآيتين فى غاية التمكن والمناسبة ، فقد ختمت الأولى بقوله : (أفلا تسمعون) ، لأنه لما كان - سبحانه - هو الجاعل الأشياء على الحقيقة ،

---

(١١) انظر (الاتقان) جـ ٣ ص ٣٤٧ ، ٣٤٨ - و (تفسير أبى السعود) جـ ٣ ص ٣٤٤ ، ٣٤٦ - و (روح المعانى) جـ ١٤ ص ١٠١ .

(١٢) القصص / ٧١ ، ٧٢ .

وأضاف الى نفسه جعل الليل سرمدا الى يوم القيامة ٠ صار الليل كأنه سرمد بهذا التقدير ، وظرف الليل مظلم ، لا ينفذ فيه البصر ، لاسيما وقد أضاف الاتيان بالضياء ، الذى تنفذ فيه الأبصار الى غيره ، وغيره ليس بفاعل على الحقيقة ، فصار النهار كأنه معدوم ، اذ نسب وجوده الى غير موجد ، والليل لا موجود سواه ، اذ جعل كونه سرمدا منسوبا اليه — سبحانه — ، فاقتضت البلاغة أن يقول : (أفلا تسمعون) ، لمناسبة ما بين السماع والظرف الليلى ، الذى يصلح للاسماع ، ولا يصلح للابصار ٠

وختمت الثانية بقوله : (أفلا تبصرون) ، لأنه — سبحانه — ، لما أضاف جعل النهار سرمدا اليه ، صار النهار كأنه سرمد ، وهو ظرف مضيء ، تنور فيه الأبصار ، وأضاف الاتيان بالليل الى غيره ، وغيره ليس بفاعل على الحقيقة ، فصار الليل كأنه معدوم ، اذ نسب وجوده الى غير موجود ، والنهار كأنه لا موجود سواه ، اذ جعل وجوده سرمدا ، منسوبا اليه ، فاقتضت البلاغة أن يقول : (أفلا تبصرون) ، اذ الظرف معنى صالح للابصار (١٣)٠

ومنها قوله تعالى : (ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ٠ ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ٠ ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين) (١٤) ٠

---

(١٣) انظر (تحرير التحبير) ص ٣٦٤ — و (روح المعانى) ج ٢٠ ص ١٠٨ ٠

(١٤) المؤمنون / ١٢ ، ١٣ ، ١٤ ٠

ان فاصلة هذه الآية الكريمة ، متمكنه فى مـــكانها ٠ مستقرة فى قرارها ، مناسبة تمام التناسب لما قبلها ، حتى لقد بادر بعض الصحابة حين نزل أول الآية الى ختمها بها ، قبل أن يسمع آخرها ، فقد أخرج ابن أبى حـــاتم من طريق الشعبى عن زيد بن ثابت قـــال : أملى على رســـول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ هذه الآية : (ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين) الى قوله : (خلقا آخر) ، فقال معـاذ ابن جبل : (فتبـــارك الله أحسن الخـــالقين) ، فضحك رسول الله ـ صلى الله عليه وسـلم ـ ، فقال معـــاذ : مم ضحكت يارسول الله ؟ قال : بها ختمت (١٥) ٠

وأخرج الطبرانى وأبو نعيم فى فضائل الصحابة ، وابن مردويه عن ابن عباس ـ رضى الله عنهمـــا ـ قال : (لما نزلت ـ ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ـ الى آخر الآية ، قال عمر ـ رضى الله عنه ـ : (فتبـــارك الله أحسن الخالقين) ، فنزلت كما قال ٠

وأخرج ابن عســاكر ، وجمـــاعة عن أنس أن عمـر ـ رضى الله عنه ـ ، كان يفتخر بذلك ، ويذكر أنها احـــدى موافقاته الأربع لربه ـ عز وجل ـ ٠

وروى أن عبد الله بن ســعد بن أبى سرح ، كان يكتب للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، فنطق بذلك قبل املائه ، فقال له النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : اكتب هكذا نزلت ، فقال عبد الله : ان كان محمد نبيا ، يوحى اليـه ، فأنا نبى يوحى الى ، فلحق بمكة كافرا ، ثم أسلم يوم الفتح ٠

---

(١٥) انظر (الاتقان) جـ ٢ ص ١٧٠ ٠

ومنها قوله تعالى : (فان زللتم من بعد ما جـــاءتكم البينات فاعلموا أن الله عزيز حكيم) (١٦) ٠

ان فاصله هذه الآيـة مطمئنـة فى موضعها غـــاية الاطمئنان ، وفيها المناسبة التامة لما قبلها ، حتى لقد حـكى أن أعرابيا ، ســمع قارئا ، يقــرأ : (فان زللتم من بعـد ما جاءتكم البينات فاعلموا ن الله غفور رحيم ، ولم يــكن يقرأ القرآن ، فقال : ان كان هذا كلام الله ، فلا يقول كـذا ، ومر بهما رجل ، فقال : كيف تقرأ هذه الآية ؟ فقال الرجل : (فاعلموا أن الله عزيز حكيم) فقال : هكذا ينبغى ، الحكيم لا يذكر الغفران عند الزلل ، لأنه اغراء عليه (١٧) ٠

وقد صدق الأعرابى ، فالصواب : عزيز حكيم ، اذ لا معنى للغفران والرحمة ، بعد وضـوح الحق ، وقيـام الحجة على الجاحد ٠

ومنها قوله تعالى : (والسارق والســارقة فاقطعـوا أيديهمـا جـــزاء بمـا كسبا نكالا من الله والله عـــزيز حكيم) (١٨) ٠

ما أبدع فاصلة هذه الآيـة ؟ انهـا بلغت النهـاية فى الاعجاز ، حتى لقد روى أن أعرابيا سمع شخصا يقــرأ : (والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كســبا نكالا من الله والله غفور رحيم) ٠

---

(١٦) البقرة / ٢٠٩ ٠
(١٧) انظر (الاتقان) ج ٣ ص ٣٤٧ ٠
(١٨) المائدة / ٣٨ ٠

فقال : ما ينبغى أن يكون الكلام هكذا ، فقيل له : ان القارىء غلط والقراءة : (والله عزيز حكيم) ٠

فقال : نعم هكذا تكون فاصلة هذا الكلام ، فانه لما عز حكم (١٩ ٠

ومنها قوله تعالى : (أو لم يهد لهم كم أهلكنا من قبلهم من القرون يمشون فى مساكنهم ان فى ذلك لآيات أفلا يسمعون ٠ أو لم يروا أنا نسوق الماء الى الأرض الجرز فنخرج به زرعا تأكل منه انعامهم وأنفسهم أفلا يبصرون) (٢٠) ٠

ما أبدع ختام هاتين الآيتين ، وما أروعه ، انه الاعجاز الفائق ، الذى لا يقدر عليه الا خالق الأرض والسموات ٠

لقد أتى فى الآية الأولى بـ (يهد لهم) وختمها بـ (يسمعون ، لأن الموعظة فيها مسموعة ، وهى أخبار القرون ٠

وأتى فى الثانية بـ (يروا) وختمها بـ (يبصرون) ، لأنها مرئية ٠ (٢١) ٠

ومنها قوله تعالى : (قالوا ياشعيب أصلاتك تأمرك

---

(١٩) انظر (خزانة الأدب) ص ٩٧ ٠

(٢٠) السجدة / ٢٧ ٠

(٢١ انظر (تحرير التحبير) ص ٣٦٥) ـ و (الاتقان) جـ ٣ ص ٣٤٦ ٠

أن نترك ما يعبد اباؤنا أو أن نفعل فى أموالنا ما نشاء انك لأنت الحليم الرشيد) (٢٢) ٠

ما أجمل هذه الفاصلة ، وما أعظمها ، وما أشد تمكنها فى مكانها وما أبدع مناسبتها لما قبلها ٠

فانه لما تقدم فى الآية ذكر العبادة ، وتلاه ذكر التصرف فى الأموال ، اقتضى ذلك ذكر الحلم والرشد على الترتيب ، لأن الحلم يناسب العبادات ، والرشد يناسب الأموال (٢٣) ٠ ولهذا كان بلوغ الرشد معتبرا فى تمكين القاصر من أمواله ٠

ومنها قوله تعالى : (لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير) (٢٤) ٠

ما أجمل فاصلة هذه الآية الكريمة ، انها مستقرة فى قرارها ، متعينة فى مكانها ، فى غاية المناسبة لما قبلها ، فان (اللطيف) يناسب ما لا يدرك بالبصر ، اذ معترف العادة أن كل لطيف ، لا تدركه الأبصار ، ألا ترى أن حاسة البصر ، لا تدرك الا اللون من كل متلون ، والكون من كل متكون ، فادراكهما انما هو للمركبات دون المفردات ٠

و (الخبير) يناسب ما يدركه البصر لأن كل من أدرك شيئا كان خبيرا بذلك الشيىء (٢٥) ٠

---

(٢٢) هود / ٨٧ ٠
(٢٣) انظر (الاتقان) ج ٣ ص ٣٤٦ ٠
(٢٤) الأنعام / ١٠٣ ٠
(٢٥) انظر (تحرير التحبير) ص ٣٦٣ ٠

ومنها قوله تعـــالى : (وما هو بقول شاعر قليـــلا ما تؤمنون · ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون) (٢٦) ·

ما أبدع ماختمت به كل آية من هاتين الآيتين الكريمتين ، فقد ختمت الأولى بـ (يؤمنون) والثانية بـ (تذكرون) ، لأن مخالفة القرآن لنظم الشعر ظـاهرة واضحة ، لا تخفى على أحد ، فقول من قال : شعر ، كفر وعنـــاد محض ، فناسب ختمه بقـــوله : (قليـــلا ما تؤمنون) ، وأما مخـــالفته لنظم الكهان ، وألفاظ السجع ، فيحتاج ألى تذكر ، وتدبر ، لأن كلا منهما نثر ، فليست مخالفته لهما فى وضوحها لكل أحد كمخالفته للشعر ، وانما تظهـــر بتدبر ما فى القـــرآن من الفصاحة والبلاغة والبدائع والمعانى الأنيقة ، فحسن ختمه بقوله : (قليلا ما تذكرون) (٢٧) ·

ومنها قوله تعالى : (ومنهم من يستمعون اليك أفأنت تسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون · ومنهم من ينظر اليـــك أفأنت تهدى العمى ولو كانوا لا يبصرون) (٢٨) ·

تأمل بذوقك وعقـــلك ما فى ختـــام هاتين الآيتين من الابداع والاعجاز ، لقذ ختمت الآية الأولى بـ (لا يعقلون)، والثانية بـ (لا يبصرون) ، لأن الصمم مرتبط بالعقـــل ، والعمى مرتبط بالبصر ·

وفوق ذلك فى الآية ما يسمى بـ (المضاعفة) وهى :

---

(٢٦) الحاقة / ٤١ ، ٤٢ ·

(٢٧) انظر (تفسير أبى السعود) جـ ٥ ص ٣٨٧ ـ و (الاتقان) جـ ٣ ص ٣٥٨ ـ و (روح المعانى) جـ ٢٩ ص ٥٣ ، ٥٤ ·

(٢٨) يونس / ٤٢ ، ٤٣ ·

أن يتضمن الكلام معنين : معنى مصرح به ، ومعنى كالمشار اليـه ٠

فالمعنى المصرح به هنا : أنه لايقدر أن يهدى من عمى عن الآيات ، وصم عن الكلم البينـــات ، بمعنى أنه صرف قلبه عنها ، فلم ينتفع بسماعها ورؤيتها ، والمعنى المشـار اليه : أنه فضل السمع على البصر ، لأنه جعـل مع الصمم فقدان العقل ، ومع العمى فقدان النظر فقط (٢٩) ٠

وهذا من معجزات القـــرآن الـكريم ، ومن البراهين الساطعة على صدق من جاء به ، فريطه السمع بالعقـل ، واشارته الى أفضليته على البصر ، يؤيده العلم الحديث ، وتقره المشاهدة ، فالسمع من أكبر منافذ العقـل ، والأصم ليس الا حجرا أصم ٠

وأما العمى فلم يعقد بصاحبه يومـا عن بلوغ مراتب النبوغ والعبقرية ، بل لعله من المرشحات لها ٠

وفى ذلك يقول : (جويو) : ولعل فى امكان الشـاعر الذى ولد أعمى أن يرسم بشعره صورة ملونة الى أبعد حد ، رغم انه لا يعتمد الا على احساسات اللمس والسمع والشم، على الاحساس بالحياة ، على العواطف والأفكار ٠

ان جمال الشمس لا يقوم على النور وحده ، ولقد قال أحد العميان : انى لأسمع الشمس لحنـا جميـــلا ٠ وأما السـمع الذى أوجد أرفـع الفنـــون (الشعر والموسـيقى

---

(٢٩) انظر (الصناعتين) ص ٤١٠ ٠

والبلاغة) فانه يدين بأرفع مزاياه الجمالية الى الصوت ، لكونه خير وسيلة للتفاهم بين الكائنات الحية ، التى قد أكسبته قيمة اجتماعية ، فغرائز التعاطف والاجتماع هى الأساس فى كل المتع الجمالية التى تحسها الأذن ، فأجمل ما فى الصوت بالنسبة للكائن الحى ، هو أنه تعبير فى جوهره ، فيه نقاسم الآخرين أفراحهم وآلامهم بوجه خاص ٠٠٠ فالألم الذى يعبر عنه بالصوت ، يؤثر فينا على وجه العموم تأثيرا روحيا أبلغ من تأثير الألم الذى يعبر عنه بقسمات الوجه وحتى بالحركات (٣٠) ٠

وصدق الله حيث يقول : (فانها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور) (٣١) ٠

وما أحسن قول بعض العصريين (٣٢)

اذا حل نور الله فى قلب عبده
فما فاته من نور عينيه محتقر

لقد طبق الدنيا (المعرى) شهرة
وسارت مسير الشمس ذكراه والقمر

وعمر فيها مبصرون كأنهم
هو انا على التاريخ ليسوا من البشر

فلا تحسب العين البصيرة مغنما
لمن ليس ذا قلب وان زانها الحور

---

(٣٠) انظر (مسائل فلسفة الفن المعاصرة) _ ٥٩ _ ٦٥ _ ٧٢ ٠
(٣١) الحج / ٤٦ ٠
(٣٢) (ألحان الأصيل) _ ٣٤١ ٠

ومنها قوله تعالى : (ان فى السموات والأرض لآيات للمؤمنين • وفى خلقكم وما يبث من دابة آيات لقوم يوقنون • واختلاف الليل والنهار وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون) (٣٣) •

ما أجمل فواصل هذه الآيات ، وما أبدع مناسبتها لما قبلها •

لقد ختمت الآية الأولى بقوله : (للمؤمنين) ، لأنه - سبحانه - ذكر العالم بجملته حيث قال : (والسموات والأرض) ، ولفت الى معرفة ما فى العالم من الآيات الدالة على أن المخترع قادر عليم حكيم ، ولابد من التصديق أولا بالصانع حتى يصح أن يكون ما فى المصنوع من الآيات دليلا على أنه موصوف بتلك الصفات ، والتصديق هو الايمان •

وختمت الثانية بقوله : (لقوم يوقنون) ، لأن خلق الانسان وتدبر خلق الحيوان ، والتفكر فى ذلك مما يزيده يقينا فى معتقده الأول •

وختمت الثالثة بقوله : (لقوم يعقلون) ، لأن معرفة جزئيات العالم من اختلاف الليل والنهار ، وانزال الرزق من السماء ، واحياء الأرض بعد موتها ، وتصريف الرياح، يقتضى رجاحة العقل ، ليعلم أن من صنع الجزئيات ، هو الذى صنع العالم الكلى ، بعد قيام البرهان على أن للعالم

---

(٣٣) الجاثية /٣ - ٥ •

الكلى صانعا مختـــارا ، فلذلك اقتضت البـلاغة أن تكون الفاصلة : (لقوم يعقلون) ٠

وان احتيج للعقل فى الجميع ، الا أن ذكره هنـا أمتن بالمعنى الأول (٣٤) ٠

ومن بديـع هذا النـوع ، اختـلاف الفـاصلتين فى موضعين ، والمحدث عنه واحد ، لنكتة لطيفة ٠

ومنه قوله تعالى فى سورة ابراهيم : (وان تعـدوا نعمة الله لا تحصوها ان الانسان لظلوم كفار) (٣٥) ٠

ثم قال فى سورة النحـل : (وان تعـدوا نعمـة الله لا تحصوها ان الله لغفور رحيم) (٣٦) ٠

قال ابن المنير : كأنه يقول : اذا حصلت النعم الكثيرة، فأنت آخذها وأنا معطيها فحصل لك عند أخـذها وصفان : كونك ظلوما ، وكونك كفارا : يعنى لعدم وفائك بشكرها ٠ ولى عند اعطائها وصفان : وهما : أنى غفور رحيم ، أقابل ظلمـك بغفـرانى ، وكفـرك برحمتى ، فـلا أقابل تقصـيرك الا بالتوقير ، ولا أجازى جفاك الا بالوفاء (٣٧) ٠

وقال غيره : انما خص سورة ابراهيم بوصف المنعم عليـه ، وسورة النحـل بوصف المنعم ، لأنـه فى سـورة

---

(٣٤) انظر (خزانة الأدب) ص ٩٦ ، ٩٧ ٠
(٣٥) ابراهيم / ٣٤ ٠
(٣٦ النحل / ١٨ ٠
(٣٧) انظر (الاتقان) جـ ٣ ص ٣٥٠ ٠

ابراهيم فى مساق وصف الانسان ، وفى سورة النحل فى مساق صفات الله ، واثبات لألوهيته (٣٨) ٠

وفرق أبو حيان بين الختمين ، بأنه هنا ، لما تقدم قوله (ألم تر الى الذين بدلوا نعمة الله كفرا) ، وبعده : (وجعلوا لله أندادا) ، فكان ذلك نصا على ما فعلوا من القبائح من الظلم والكفران ، ناسب أن يختم بذم من وقع ذلك منه ، فختمت الآية بقوله – سبحانه – : (ان الانسان لظلوم كفار) ٠

وأما فى النحل ، فلما ذكر عدة تفضلات ، وأطنب فيها ، وقال – جل شأنه – : (أفمن يخلق كمن لا يخلق) أى من أوجد هذه النعم السابق ذكرها ، ليس كمن لا يقدر على الخلق ، وذكر من تفضلاته – تعالى – اتصافه بالغفران والرحمة ، تحريضا على الرجوع اليه – سبحانه – ، وأن هاتين الصفتين ، هو – جل وعلا – متصف بهما ، كما هو متصف بالخلق ، ففى ذلك اطماع لمن آمن به – تعالى – ، وانتقل من عبادة المخلوق الى عبادة الخالق – تبارك وتعالى – أنه يغفر زلله السابق ، ويرحمه ، وأيضا فانه لما ذكر أنه – تعالى – هو المتفضل بالنعم على الانسان ، ذكر ما حصل من المنعم ، ومن جنس المنعم عليه فحصل من المنعم ما يناسب حال عطائه ، وهو الغفران والرحمة ، اذ لولاهما ما أنعم عليه ، وحصل من جنس المنعم عليه ما يناسب حالة الانعام عليه ، ويقع معها فى الجملة ، وهو الظلم والكفران ٠

---

(٣٨) انظر (الاتقان) ج ٣ ص ٣٥٠ ٠

فكأنه قيل : ان صدر من الانسان ظلم ، فالله — تعالى — غفــور ، أو كفران ، فالله — تعــالى — رحــيم ، لعلمه بعجز الانسان وقصوره (٣٩) ٠

ومنه قوله تعالى فى سورة النساء : (ان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد افترى اثما عظيما) (٤٠) ٠

ثم أعاد الآية الكريمة ، وختمها بقوله : (ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالا بعيدا) (٤١) ٠

والسر فى ذلك ، أن الآية الأولى ، نزلت فى اليهــود ، وهم مطلعون من كتبهم على ما لا يشكون فى صحته من أمر الرسول — صلى الله عليه وسلم — ، ووجوب اتباع شريعته ، وما يدعو اليه من الايمــان بالله — تعــالى — ، ومع ذلك أشركوا ، وكفروا ، فصار ذلك افتراء ، واختلافا ، وجراءة عظيمة على الله — تعالى — ٠

والثانية ، نزلت فى المشركين ، وهم أناس ، لم يعلموا كتابا ، ولا عرفوا من قبل وحيا ، ولم يأتهم سوى رســول الله — صلى الله عليه وسلم — بالهدى ودين الحق ، فأشركوا بالله — عز وجل — ، وكفروا ، وضلوا ، مع وضوح الحجة ، وسطوع البرهان ، فكان ضلالهم بعيدا (٤٢) ٠

---

(٣٩) انظر (تفسير البحر المحيط) ج ٥ ٠
(٤٠) النساء / ٤٨ ٠
(٤١) النساء / ١١٦ ٠
(٤٢) انظر (الكشــاف) ج ٢ ص ٥٣٢ — و (الاتقــــان) ج ٣ ص ٣٥١ ٠

ومنه قوله تعالى فى سورة الجاثية : (من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها ثم الى ربكم ترجعون) (٤٣) ٠

وفى فصلت : (من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد) (٤٤) ٠

وسر اختلاف الفاصلتين أن قبل الآية الأولى : (قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله ليجزى قوما بما كانوا يكسبون) (٤٥)

فناسب الختام بفاصلة (البعث) ، لأن قبله وصفهم بانكاره ٠ ...

وأما الثانية ، فالختام فيها مناسب . لأنه لا يضيع عملا صالحا ، ولا يزيد على من عمل سيئا ٠ (٤٦) ٠

ومنه قوله تعالى فى سورة المائدة : (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون) (٤٧ ٠

ثم أعادها فقال : (فأولئك هم الظالمون) (٤٨) ، ثم قال فى الثالثة : (فأولئك هم الفاسقون) (٤٩) ٠

وسر ذلك ، أن الأولى نزلت فى أحكام المسلمين ، والثانية فى اليهود ، والثالثة فى النصارى ، فقد أخرج

---

(٤٣) الجاثية / ١٥ ٠
(٤٤) فصلت / ٤٦ ٠
(٤٥) الجاثية / ١٤ ٠
(٤٦) انظر (الاتقان) ج ٣ ص ٣٥١ ٠
(٤٧) المائدة / ٤٤ ٠
(٤٨) المائدة / ٤٥ ٠
(٤٩) المائدة / ٤٧ ٠

أبو حميد وغيره عن الشعبى قال : الثلاث الآيات التى فى المائدة ، أولها لهذه الأمة ، والثانية فى اليهود ، والثالثة فى النصارى ٠

ويلزم على هذا أن يكون المؤمنون أسوأ حالا من اليهود والنصارى ، الا أنه قيل : ان الكفر اذا نسب الى المؤمنين ، حمل على التشديد ، والتغليظ ، والكافر اذا وصف بالفسق والظلم ، أشعر بعتوه ، وتمرده فيه ، ويؤيد ذلك ما أخرجه ابن المنذر ، والحاكم ، وصححه ، والبيهقى فى سننه عن ابن عباس _ رضى الله عنهما _ أنه قال فى الكفر الواقع فى أولى الثلاث : انه ليس بالكفر الذى تذهبون اليه ، انه ليس كفر ينقل عن الملة ، كفر دون كفر ٠

وقيل : الأولى ، فيمن جحد ما أنزل الله ، والثانية ، فيمن خالفه مع علمه ، والثالثة ، فيمن خالفه جاهلا ٠

وقيل : الآيات الثلاث ، نزلت فى اليهود خاصة ، فقد أخرج ابن منصور ، وأبو الشيخ ، وابن مردويه عن ابن عباس _ رضى الله عنهما _ قال : انما أنزل الله تعالى : ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون والظالمون والفاسقون فى اليهود وخاصة ٠

وأخرج ابن جرير عن أبى صالح ، قال : الثلاث الآيات التى فى المائدة ، ومن لم يحكم بما أنزل الله الخ ليس فى أهل الاسلام منها شيىء ، هى فى الكفار ٠

ولعل وصفهم بالأوصاف الثلاث باعتبارات مختلفة ، فلا نكارهم ذلك ، وصفوا بالكافرين ، ولوضعهم الحكم فى

غير موضعه ، وصفوا بالظـالمين ، ولخروجهم عن الحق ، وصفوا بالفاسقين ٠

أو أنهم وصفوا بها باعتبـار أطوارهم ، وأحوالهـم المنضمة الى الامتناع عن الحكم ، فتارة كانوا على حـال تقتضى الكفـر ، وتـارة على أخـرى تقتضى الظـلم ، أو الفسق (٥٠) ٠

ومن بديع هذا النـوع أيضـا : أن تتفق الفاصلتان ، والمحدث عنه مختلف ، كقوله تعالى : (يأيها الذين آمنـوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحـلم منكم ثلاث مرات من قبل صلاة الفجر وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة ومن بعد صلاة العشاء ثلاث عورات لكم ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن طوافون عليكم بعضكم عـلى بعض كذلك يبين الله لكم الآيات والله عليم حـكيم ٠ واذا بلغ الأطفال منكم الحلم فليستأذنوا كما استأذن الذين من قبلهم كذلك يبين الله لكم آياته والله عليم حكيم) (٥١) ٠

فقد اتفقت الفاصلتان ، لأنهما يتعلقان بغرض واحد ، وهو أدب الاستئذان فى وقت الخلوة ٠ ومناسبة الفاصلة لما قبلها واضحة ، فالله ـ سـبحانه ـ شرع هـذا الأدب العالى ، لأنه عليم ، بأحوالكم حكيم فيما شرع لكم ٠

وكرر الفاصـلة بألفاظهـا ، تأكيـدا ومبـالغة فى الانذار (٥٢) ٠

---

(٥٠) انظر (روح المعانى) جـ ٦ ص ١٣٠ ، ١٣١ ٠
(٥١) النور / ٥٨ ، ٥٩ ٠
(٥٢) انظر (تفسير البيضاوى) جـ ٤ ص ٨٦ ٠

ومن خفى هذا النوع قوله تعالى فى سورة البقرة : (هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا ثم استوى الى السماء فسواهن سبع سموات وهو بكل شيىء عليم)(٥٣)

وقوله تعالى فى سورة آل عمران : (قل ان تخفوا ما فى صدوركم أو تبدوه يعلمه الله ويعلم ما فى السموات وما فى الأرض والله على كل شيىء قدير) (٥٤) ٠

فان المتبادر الى الذهن فى آية البقرة الختم بالقدرة ، وفى آية آل عمران الختم بالعلم ٠

والجواب أن آية البقرة لما تضمنت الاخبار عن خلق الأرض ، وما فيها على حسب حاجات أهلها ، ومنافعهم ، ومصالحهم ، وخلق السموات خلقا مستويا ، محكما من غير تفاوت ، والخالق على الوصف المذكور ، يجب أن يكون عالما بما فعله كليا وجزئيا ، مجملا ومفصلا ، ناسب ختمها بصفة العلم ٠

وآية آل عمران لما كانت فى سياق الوعيد على موالاة الكفار ، وكان التعبير بالعلم كناية عن المجازاة بالعقاب والثواب ، ناسب ختمها القدرة (٥٥) ٠

وربط الزمخشرى مناسبتها بقوله — تعالى — قبلها (ويحذركم الله نفسه) ، فهى بيان لها ، لأن نفسه ، وهى ذاته المتميزة من سائر الذوات متصفة بعلم ذاتى ٠ لاتختص بمعلوم ، فهى متصفة بالمعلومات كلها ، وبقدرة ذاتية،

---

(٥٣) البقرة / ٢٩ ٠
(٥٤) آل عمران /٢٩ ٠
(٥٥) انظر (الاتقان) ج ٣ ص ٣٥٣ ٠

لا تختص بمقدور دون مقدور ، فهى قادرة على المقدورات كلها ، فكان حقها أن تحذر ، وتتقى ، فلا يجسر أحــد على قبيــح ، ولا يقصر عن واجب ، فــان ذلك مطــلع عليــه ، لا محالة ، فلا حق به العقاب ، ولو علم بعض عبيد السلطان أنه أراد الاطــلاع على أحواله ، فوكل همـــه بمــا يورد ، ويصدر ، ونصب عليه عيونا ، وبث من يتجسس عن بواطن أموره ، لأخذ حذره ، وتيقظ فى أمره ، واتقى كل ما يتوقع فيه الاسترابة ، فما بال من علم أن العالم الذات الذى يعلم السر وأخفى مهيمن عليه ، وهو آمن ٠ اللهم انا نعــوذ بك من اغترارنا بسترك (٥٦) ٠

ومنه قوله تعالى : (تسبح له السموات والأرض ومن فيهن وان من شيىء الا يســبح بحمــده ولكن لا تفقهـــون تسبيحهم انه كان حليما غفورا) (٥٧) ٠

فالختم بالحلم والمغفرة عقب تسابيح الأشــياء غير ظاهر فى بادىء الرأى ٠

وحكمته : أنه لما كانت الأشياء كلها تسبح، ولا عصيان فى حقها ، وأنتم تعصون ، ختم به مراعاة للمقدر فى الآية، وهو (العصيان) ، كما جاء فى الحديث : (لولا بهائم رتع، وشيوخ ركع ، وأطفال رضع لصب عليكم العذاب صبا) ٠

وقيل : التقدير : حليما عن تفريط المسبحين ، غفــورا لذنوبهم ٠

---

(٥٦) انظر (الكشاف) ج ١ ص ٤٢٣ ٠

(٥٧) الاسراء / ٤٤ ٠

وقيل : حليما عن المخاطبين الذين لا يفقهون التسبيح باهمالهم النظر فى الآيات والعبر ، ليعرفوا حقـــه بالتأمل فيما أودع فى مخلوقاته ، مما يوجب تنزيهه (٥٨) ٠

ومن مشكلات هذا النوع قوله تعالى : (ان تعذبهـــم فانهم عبادك وان تغفر لهم فانك أنت العزيز الحكيم) (٥٩)

فان قوله : (وان تغفر لهم يقتضى أن تكون الفـــاصلة (الغفور الرحيم) وكذا نقلت عن مصحف أبى ، وبها قـرأ ابن شنبوذ ، وذكر فى حكمتـــه ، أنـــه لا يغفر لمن استحق العـــذاب الا من ليس فوقه أحـــد ، يرد عليه حكمـــه ، فهو العزيز ، أى الغالب ، والحكيم هو الذى يضـــع الشيىء فى محله ، وقد يخفى وجه الحكمة على بعض الضعفـــاء فى بعض الأفعال ، فيتوهم أنه خارج عنهـــا ، وليس كذلك ، فكان فى الوصف بالحكيم احتراس حسن ، أى وان تغفر لهم مع استحقاقهم العذاب ، فلا معترض عليك لأحد فى ذلك ، والحكمة فيما فعلته (٦٠) ٠

وقوله تعالى : (ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله تواب حكيم) (٦١) فان باىء الرأى ، يقتضى (تواب رحيم)، لأن الرحمة مناسبة للتوبة ، لكن عبر به اشارة الى فائـــدة مشروعية اللعـــان ٠ وحكمتـــه ، وهى الســـتر عن هـــذه الفاحشة العظيمة (٦٢) ٠

---

(٥٨) انظر (الكشاف جـ ٢ ص ٤٥١ _ و (تفسير أبى السعود) جـ ٣ ص ٤٥٣ _ و (الاتقان) جـ ٣ ص ٣٥٣ ٠

(٥٩) المائدة / ١١٨ ٠

(٦٠) انظر (الاتقان) جـ ٣ ص ٣٥٢ ٠

(٦١) النور / ١٠ ٠

(٦٢) انظر (التفسير الكبير) جـ ١٢ ص ١٣٨ _ و (تفســـير أبى السعود) جـ ٤ ص ٩٦ ٠

الفصل العاشر

التخلص

هو عند أهل البلاغة والبيان : (أن ينتقل مما ابتدىء به الكلام الى المقصود على وجه سهل ، يختلسه اختلاسا ، دقيق المعنى ، بحيث لا يشعر السامع بالانتقال من المعنى الأول الا وقد وقع عليه الثانى ، لشدة الالتئام بينهما) (١) ٠

وصاحب الذوق السليم ، اذا تأمل تخلصات القرآن الكريم ، راعه حسنها ، وجمالها ، لما فيها من اللطائف والأسرار ، ولما فيها من الاتقان والاحكام الذى تنحنى أمام عظمته جباه أساطين البيان ٠

ومن هذه التخلصات قوله تعالى : (واتل عليهم نبأ ابراهيم ٠ اذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون ٠ قالوا نعبد أصناما فنظل لها عاكفين ٠ قال هل يسمعونكم اذ تدعون ٠ أو ينفعونكم أو يضرون ٠ قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون ٠ قال أفرأيتم ما كنتم تعبدون ٠ أنتم وآباؤكم الأقدمون ٠ فانهم عدو لى الا رب العالمين ٠ الذى خلقنى فهو يهدين ٠ والذى هو يطعمنى ويسقين ٠ واذا مرضت فهو يشفين ٠ والذى يميتنى ثم يحين ٠ والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين ٠ رب هب لى حكما وألحقنى

---

(١) انظر (الجامع الكبير) ص ١٨٣ ، ١٨٤ ـ و (الايضاح) ص ٣٠٢ ـ و (الطراز) جـ ٢ ص ٣٣٠ ـ و (الاتقان) جـ ٣ ص ٣٧٣ ٠

بالصالحين • واجعل لى لسان صدق فى لآخرين • واجعلنى من ورثة جنة النعيم • واغفر لأبى انه كان من الضالين • ولا تخزنى يوم يبعثون • يوم لا ينفع مال ولا بنون • الا من أتى الله بقلب سليم • وأزلفت الجنة للمتقين • وبرزت الجحيم للغاوين • وقيل لهم أين ما كنتم تعبدون • من دون الله هل ينصرونكم أو ينتصرون • فكبكبوا فيها هم والغاوون • وجنود ابليس أجمعون • قالوا وهم فيها يختصمون • تالله ان كنا لفى ضلال مبين • اذ نسويكم برب العالمين • وما أضلنا الا المجرمون • فما لنا من شافعين • ولا صديق حميم • فلو أنا لناكرة فنكون من المؤمنين) (٢) •

هذا كلام يسكر العقول ، رحيقه ، ويسحر الألباب تحقيقه ، وهو غاية منية الراغب ، ونهاية مقصد الطالب ، فانه متى أنعم النظر فى مبانيه ، وتدبر أسراره ومعانيه ، علم قطعا أن فيه غنى عن تصفح الكتب المؤلفة ، وكفاية عن الدفاتر المؤتلفة ، فيما يقصد من معرفة هذا الأسلوب من علوم البلاغة •

وقد اشتمل على تخلصات عشرة ، نوضحها بمعونة الله — تعالى — :

---

(٢) الشعراء / ٦٩ — ١٠٢ •

التخلص الأول

هو أنه لما أمر رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بتلاوة نبا ابراهيم ـ عليه السلام ـ ، وما كان له مع أبيه وقومه من الخصومة والجدال فى عبادة الأوثان والأصنام ، صدر القصة بذلك ، شرحا لصدره ، وتسلية له فيما يلاقى من قريش ، ثم خرج الى شرح حال ابراهيم ، وما جرى له ٠

فانظر الى حسن ما رتب ابراهيم كلامه مع أهل الشرك ، حين سألهم عما يعبدون سؤال مقرر ، لا سؤال مستفهم ، فأجابوه بما هم عليه من ذلك ، وبالغوا فى الجهل والافراط فى الغى ، فلم يقتصروا على الجواب الكافى بأن يقولوا : (أصناما) ، كما فى قوله تعالى : (ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو) (٣) ، وقوله تعالى : (ماذا قال ربكم قالوا الحق) (٤) ، وقوله تعالى : (ماذا أنزل ربكم قالوا خيرا) (٥) ، الى غير ذلك ، بل أطنبوا فيه باظهار الفعل ، وعطف دوام عكوفهم على أصنامهم ، مع أنه لم يسأل عنه ، قصدا الى ابراز ما فى نفوسهم الخبيثة من الابتهاج والافتخار بذلك (٦) ٠

---

(٣) البقرة / ٢١٩ ٠
(٤) سبأ / ٢٣ ٠
(٥) النحل / ٣٠ ٠
(٦) انظر (الكشاف) ج ٣ ص ١١٦ ـ و (الطراز) ج ٢ ص ٢٣٢ ، ٢٣٣ ـ (روح المعانى) ج ١٩ ص ٩٣ ٠

التخلص الثانى

أنهم لما أجـــابوه ، أراد أن يحقق عليهم الأمر ، حتى لا يكون لهم سبيل الى الجحود ، فخرج عن ذلك الى ابطال ما قالوه من عبـادة آلهتهم ، وأنحى عليهم من البرهـــان جرازا مقضبا ، ومن الافحام كلاما منظما مهذبا ، فصـدره بالاستفهام ، تأدبا منه ، وملاطفة لهم ، ولم يأت بحجته على جهة القطع منه بها ، كمن ينكر الحدوث فى العالم ، فتقول لــه : ..

هل يجوز عليه التغيير ؟ ، ولم يقل من أول وهلة :

ان قولكم هذا باطل ، لا حقيقة له ، ثم أورد فى ابطـال الهيتها ثلاثة أدلة :

أولها : أنها لا تسمع دعاء ، ولا تدرك نداء ، لكونها جمادا، حجارة صلدة ، لا حياة لها ، ولا حراك بها ، ومن هذا حاله ، فكيف يكون أهلا للعبادة ؟

وثانيها : قوله : (أو ينفعونكم) ، لأن من كان فيه نفــع ، فهو حقيق بما يفعــل فى حقــه ، من رفــع المنزلة ، وعلو الدرجة .

ثالثها : قوله : (أو يضرون) ، لأن من قدر على النفع ، فهو قادر على الضر ، وعكسه أيضا ، لأن حق من كان قادرا على شيىء ، أن يكون قادرا على ضده ، لأن القدرة صالحة للأمرين الضدين جميعا والمختلفين.

فهذه الزامات ثلاثة ، لا محيص لهم عنها ، فاذا كان حالها هذه الحال ، من عدم السمع ، واستحالة النفع والضر منها ، فلا يليق بحالها العبادة ، التى هى نهاية الخضوع والذلة للمعبود ، مع عدم الأهلية والاستحقاق ، هذا محال فى العقول بلامرية ، ثم أجابوه بالاقرار بما ألزمهم من عدم ذلك منها ، فزاد اقرارهم الالزام تأكيدا وافحاما ، فقالوا : الأمر فيها كما قلته ، لكنا وجدنا آباءنا كذلك يفعلون ، فنادوا على أنفسهم بالجهالة ، وأقروا بركوب الضلالة ، وأنهم ما فعلوا ذلك عن نظر وتفكر وتدبر ، فوصفوا نفوسهم بالقصور عن مراتب النظار ، وانخرطوا فى سلك أهل الغباوة والأغمار ، وزعموا أنه لا عمدة لهم فى ذلك الا وجدان الآباء ، واقتفاء آثار الأسلاف والرؤساء (٧) .

---

(٧) انظر (الكشاف) جـ ٢ ص ٤٣٣ ، ٣٣٤ - و (الجامع الكبير) ص ١٨٣ ، و (تفسير البحر المحيط) جـ ٧ ص ١٨٣ - و (فى ظلال القرآن) جـ ٦ ص ٢١٧ ، ٢١٨ .

التخلص الثالث

أنه لما تحقق تعويلهم على التقليد ، خرج الى ابطال أمره ، وتزييفه بقوله : (أفرأيتم ما كنتم تعبدون · أنتم وأباءكم الأقدمون) ·

فأورد الرد عليهم بالاستفهام على سبيل الانكار ، متعجبا من حالهم ، حيث جعلوا ما لا يكون ، حجة وبرهانا ، وليس بحجة ، بل هو شبهة منكرة ، وأخرجه عن أن يكون حجة ، كأنه قال : أفلا ترون ما جعلتموه مستندا لعبادتكم أنتم ومن سلف من آبائكم القدماء ، هل مثله يعبد ، مع كونه لا يسمع ، ولا ينفع ، ولا يضر ، ولا يملك شيئا ، وفيه تعريض بحالهم ، وتجهيل لهم ، وأن من هذه حاله من عبادة حجر ، لا يضر ، ولا ينفع ، فلا عقل له ، ولا يكون معدودا من العقلاء (٨) ·

---

(٨) انظر (التفسير الكبير) ج ٢٤ ص ١٤٢ - و (الطراز) جـ ٢ ص ٢٣٥ ·

التخلص الرابع

هو أنه لما ذكر أنهم لايستحقون العبادة ، خــرج الى عدواته لمن هذه حاله ، فلهـذا قــال عقيب ذلك : (فانهم عدو لى) ، كأنه صور المسألة فى نفســه ، على معنى أنى فكرت فى أمرى ، ونظرت فى حالى ، فرأيت أن عبادتى لهـا عبادة للشيطان العدو ، فاجتنبتها ، وآثرت عبادة من الخير كله منه ، وأراهم بذلك أنها نصيحة ، نصح بها نفسه أولا ، وبنى عليها تدبير أمره ، لينظروا ، فيقولوا : ما نصحنـا ابراهيم الا بما نصح به نفسه ، وما أراد لنـا الا ما أراد لروحه ، ليكون ذلك أدعى لهم الى القبـول لقـوله ، وأبعث الى الاستماع لخطابه ، ولو قال : فانه عدو لـكم ، لم يكن بتلك المثابة ، ولأنه دخل فى باب من التعريض ، وقد يبـلغ التعريض للنصوح ، ما لا يبلغه التصريح ، لأنه يتأمل فيه، فربما قاده التأمل الى التدبر ٠ وكان القياس فى الخطـاب بالضمير أن يقول : فانها عدو لى ، أو فانهن ، لأنه راجـع الى الأصنام ، والضمير فى من لا يعلم ينبغى أن يكون على هذه الصورة ، ولكنه أورده على ضمير العقلاء لأمرين :

أما أولا ، فلانهم لما زعموا أنها تستحق العبادة ، وأنهـا يوجد من جهتها النفع ، ودفع الضر ، صــارت لذلك بمنزلة العقلاء ٠

وأما ثانيا ، فلأنهم لما كانوا فى الانكار على سواء ، وجـه الخطـاب اليهم على جهـة تغليب حــالهم على حالهـا (٩) ٠

---

(٩) انظر (الكشاف) ج ٣ ص ١١٦ - و (تفسير أبى السعود) ج ٤ ص ٢١٨ - و (والطراز) ج ٢ ص ٣٣٥ ، ٣٣٦ - و فى ظــلال القرآن) ج ٦ ص ٢١٨ ٠

التخلص الخامس

هو أنه لما ذكر أنها غير مستحقة للعبادة ، وذكر العداوة لها ، خرج الى ذكر الله تعالى ، فأجرى عليه تلك الصفات اللائقة بذاته من اعظام حاله ، واظهار جلاله ، وتفخيم شأنه ، وتعديد نعمه من لدن انشائه ، وابداع ذاته الى حين مرضه ، ودنو وفاته ، مع ما يرجى فى الآخرة من عفوه ، ورحمته ، ليعلم أن كل من هذه حاله ، فهو حقيق بالعبادة ، واجب على الخلق الخضوع له ، والاستكانة لعظمته ٠

وفيه تعريض بحال ما يعبد من دونه في الاتصاف بنقائص هذه الصفات (١٠) ٠

---

(١٠) انظر (التفسير الكبير) ج ٢٤ ص ١٤٣ ، ١٤٤ ـ و (الطراز) ج ٢ ص ٣٣٦ ، ٣٣٧ ـ و (روح المعانى) ج ١٩ ص ٩٥ ـ ٩٩ ـ و (فى ظلال القرآن) ج ٦ ص ٢١٩ ٠

التخلص السادس

هو أنه لما فرغ مما ذكره من فنون الألطاف الفائضة عليه من الله — عز وجل — من مبدأ خلقه الى يوم بعثه ، خرج الى ما يكون ملائما له ، ومناسبا ، فدعا الله بدعوات المخلصين ، وابتهل اليه ابتهال الأوابين ، لأن الطالب الى مولاه ، والراغب اليه ، إذا قدم قبل سؤاله وضراعته الاعتراف بالنعمة والاقرار بالاحسان ، كان ذلك أسرع للاجابة ، وأنجح لحصول الطلبة ، ولهذا فان كل من أراد حاجة الى الله — تعالى — ، فانه يستحب له تقديم الثناء على الله — تعالى — بما هو أهله ، وذكر صفاته وحمده وشكره ، ثم يسأل حاجته بعد ذلك ، فان ذلك يكون أقرب للاجابة ، وأسنى لانجاح الرغبة ، وانجازها ، كما ورد ذلك فى الآداب الشرعية (١١) ·

---

(١١) انظر (التفسير الكبير) ج ٢٤ ص ١٤٧ — ١٥٠ — و (تفسير البحر المحيط) ج ٧ ص ٣٦ — و (الطراز) ج ٢ ص ٣٣٧ — و (روح المعانى) ج ١٩ ص ٩٩ ، ١٠٠ ·

التخلص السابع

هو أنه لما فرغ مما ذكره من الدعاء والابتهال ، خرج عنه الى ذكر البعث يوم القيامة ، ومجازاة الله تعالى من آمن به ، واتقاه ، وأخلص له العبادة بالجنة ، وأن من عصاه ، وعبد غيره ، فانه مجازيه بالنار ، فجمع فى ذلك بين الترغيب والترهيب ، وضم اليه ذكر الجنة وازلافها لأهلها من أهل التقوى ، وذكر النار وتبريزها لأهلها من أهل الغواية ، كعادته - تعالى - فى كتابه الكريم اذا ذكر وعدا أتبعه بالوعيد ، وعكسه أيضا ، ليكون حاصلا على الكمال ، ومراعاة المطابقة فى كل الأحوال (١٢) .

---

(١٢) انظر (الكشاف) جـ ٣ ص ١٢٨ - و (الطراز) جـ ٢ ص ٣٣٨ - و (فى ظلال القرآن) جـ ٦ ص ٢٢٢ .

التخلص الثامن

هو أنه لما فرغ مما ذكره من البعث والثواب والعقاب، والوعد والوعيد ، عاد الى سؤال المشركين ثانيا عند معاينة الأهوال يوم الجزاء بقوله : (وقيل لهم أينما كنتم تعبدون من دون الله ٠٠) سؤال موبخ لهم ، ومستهزىء بهم ، ثم ذكر أنهم لا ينصرونهم فى دفع السوء ،ولاينتصرون فى دفع ما يخصهم أنفسهم بحال ، ثم وصف حالهم فى النار بقوله : (فكبكبوا) أى الآلهة والغاوون ، و (الكبكبة) تكرير (الكب) ، لأنه اذا ألقى فى النار ، فانه يكب فيها مرة بعد مرة ، حتى يستقر فى قعرها ، فجعل تكرير اللفظ دلالة على تكرير المعنى ، على جهة المطابقة ، وأخر ذكرهم عن ذكر آلهتهم ، للاشارة الى أنهم يؤخرون عنها فى الكبكبة ، ليشاهدوا سوء حالها ، فيزدادوا غما الى غمهم (١٣) ٠

---

(١٣) انظر (الكشاف) ج ٣ ص ١١٨ ، ١١٩ — و (التفسير الكبير) ج ١٩ ض ٢٠٢ ، ٢٠٣ — و (تفسير ابى السعود) ج ٤ ص ٢٢١ ، ٢٢٢ — و (الطراز) ج ٢ ص ٣٣٨ ، ٣٣٩ ٠

التخلص التاسع

هو أنــه لمـا فرغ من ســؤال المشركين ، وتقريعهم ، وتبكيتهم ، ووصف حالهم فى النــار ، خرج الى حــكاية ما يقول أهل النار في النار من الخصومة الناشئة بينهم ، واظهار الحسرة والندامة المفرطة على ما كان منهم مـن عبادة غير الله ، ومساواته بمن لا يساويه ، وانقطاع ما فى أيديهم من شفاعة شافع ، أو صداقة صديق ، كما يــكون للمؤمنين ، فان شفعاءهم الملائكة والأنبياء ، وأصدقاؤهــم هم أهل الايمان والتقوى ، فأما الكفــار فلا شيىء لهم من ذلك ، فعند هذا تعظم الجسرات ، وتنقطع الأفئـدة حسرة وإياسا عن النفع ، والخلاص عما هم فيه (١٤) .

---

(١٤) انظر (الكشاف) جـ ٣ ص ١١٩ - وتفسير أبى السعود) جـ ٤ ص ٢٢٢، ٢٢٣ - و (تفسير البحــر المحيط) جـ ٧ ص ٢٨ - و جـ ٢ (الطراز) ص ٣٣٩ - و (فى ظلال القرآن) جـ ٦ ص ٢٢٢ .

التخلص العاشر

هو أنه لما فرغ من حكاية حالهم ، خرج الى ذكر تمنيهم العودة الى الدنيا بقوله : (فلو أن لنا كرة ٠٠) فننزع عما كنا عليه من عبادة غير الله ، وسلوك طريق التقوى ، والكون من جملة المؤمنين فى ذلك ، و (لو) هنا بمعنى (ليت) فلا تفتقر الى جواب مقدر ، وجوابها (فنكون) ، أو تكون باقية على بابها ، وجوابها يحذف كثيرا ،وتقديره: فلو رجعنا لفعلنا كيت وكيت من الأفعال الصالحة (١٥) ٠

فانظر أيها المتأمل الى هذا الكلام الشريف الآخذ بعضه برقاب بعض ، مع احتوائه على ضروب من المعانى ، فيتخلص من كل واحد منها بلطيفة دقيقة ، حتى كأنه معنى واحد ٠

ومنها قوله تعالى : (الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح فى زجاجة الزجاجة كأنها كوكب درى يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدى الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شيىء عليم) (١٦) ٠

هذه آية واحدة ، جاء فى أولها صفة النور وتمثيله ، وتخلص منه الى صفة الزجاجة وصفائها ، ثم رجع الى ذكر

---

(١٥) انظر (الطراز) ج ٢ ص ٣٣٩ ، ٣٤٠ – و (الجامع الكبير) ص ١٨٤ ٠

(١٦ النور / ٣٥ ٠

النور والزيت الذى يستمد منه ، وتخلص منــــه الى صفة الشجرة ، وتخلص من صفة الشجرة الى صفـــة الزيت ثم تخلص منه الى صفة النور وتضاعفه ، ثم تخلص منه الى نعم الله بالهدى على من يشاء من عباده (١٧) ٠

ومنها قوله تعـالى : (سأل سائل بعــذاب واقع ٠ للكافرين ليس له دافع ٠ من الله ذى المعارج ٠ تعرج الملائكة والروح اليــه فى يوم كان مقـداره خمسين ألف ســنة ٠ فاصبر صبرا جميلا ٠ انهم يرونه بعيدا ونراه قريبا)(١٨)

ذكر أولا عذاب الكفـار ، وأنه لا دافــع له من الله ، ووصف الله بذى المعــارج ، تخلصـا الى قـــوله : (تعرج الملائكة والروح اليه في يوم كان مقــداره خمسين ألف ســنة) ٠

وهذا من ألطف التخلص وأحسنه (١٩) ٠

فتدبر هذه التخلصات اللطيفـة ، مع ما حــازته من العجائب الحسان ، والأسرار ذوات الأفنـــان ، ثم حدثنى بربك هل يستطيع أحد من بنى الانســـان ــ مهما أوتى من قوة البيان وفصاحــة اللســـان ــ أن يأتى بمثــل هــذه التخلصات ، أو يحوم حول حماها ؟

انه الاعجاز الفائق الذى تنحنى أمـــام عظمته جباه أساطين البيان ، وتسجد له البلاغة فى أسمى معـــانيها ، ولا يقدر عليه الا خالق الأرض والسموات ٠

---

(١٧) انظر (الأقى القريب) ص ٨٤ ٠
(١٨) المعارج / ١ ــ ٧ ٠
(١٩) انظر (الأقصى القريب) ص ٨٤ ٠

الفصل الحادي عشر

فواتح السور خواتمها

قال أهل البيان : من البلاغة حسن الابتداء : وهو أن يتأنق فى أول الكلام ، لأنه أول ما يقرع السمع ، فان كان محررا أقبل السامع على الكلام ، ووعاه ، والا أعرض عنه ، ولو كان الباقى فى غاية الحسن ، فينبغى أن يؤتى فيه بأعذب اللفظ وأجزله ، وأسلسه وأحسنه نظما وسبكا، وأصحه معنى ، وأوضحه ، وأخلاه من التعقيد ، والتقديم والتأخير الملبس ، أو الذى لا يناسب ، فاذا اشتمل على اشارة الى المقصود ، سمى (براعة استهلال) ٠

وقالوا أيضا : من البلاغة حسن الانتهاء : وهو أن يختم الكلام بأحسن الخواتم ، اذ هى آخر ما يبقى فى الأسماع ، وربما حفظت من بين سائر الكلام ، لقرب العهد بها ، فينبغى أن تكون غاية فى الجودة ، وألا يكون هناك سبيل للزيادة عليها ، ولا لأن يؤتى بعدها بأحسن منها فى حلاوتها ، وعذوبتها ، ورصانتها ، وقوتها ، وجزالتها ، وفخامتها ، مع تضمنها معنى تاما ، يؤذن السامع بأنه الغاية والنهاية،فان دل على ما يشعر بالانتهاء، سمى (براعة مقطع) (١) ٠

---

(١) انظر (الايضاح) ص ٣٠٢ ـ ٣٠٤ ـ و (الاتقان) جـ ٣ ص ٣٦٣ ـ و (الطراز) جـ ٣ ص ٢٦٦ ـ و (تحرير التحبير) ص ١٦٨ ٠

وصاحب الذوق السليم ، اذا تأمل سور القرآن الكريم ومفرداتها ، أدرك أن جميع فواتحها ، وخواتمها واردة على أحسن وجوه البلاغة ، وأكملها ، وأبلغها ، مع تضمنها للمعانى البديعة والأسرار العجيبة ٠

فمن هذه الوجوه : مناسبة فواتح السور لخواتمها ٠

فأنت اذا تتبعت جميع سور القرآن ، رأيت فواتحها فى غاية المناسبة لخواتمها ٠ أنظر مثلا الى سورة (القصص) كيف بدئت بأمر موسى ، ونصرته ، وقوله : (فلن أكون ظهيرا للمجرمين) (٢) ، وخروجه من وطنه ، وختمت بأمر النبى صلى الله عليه وسلم بألا يكون ظهيرا للكافرين ، وتسليته عن اخراجه من مكة ، ووعده بالعودة اليها ، لقوله فى أول السورة : (انا رادوه اليك) (٣) ٠

وانظر الى سورة (ص) كيف بدئت بالذكر: (والقرآن ذى الذكر) (٤) ، وختمت به : (ان هو الا ذكر للعالمين) (٥) ٠

وانظر الى سورة (القلم) ، كيف بدئت بقوله : (ما أنت بنعمة ربك بمجنون) (٦) وختمت بقوله : (انه لمجنون) (٧) ٠

---

(٢) القصص / ١٧ ٠
(٣) القصص / ٧ ٠
(٤) ص / ١ ٠
(٥) ص / ٨٧ ٠
(٦) القلم / ٢ ٠
(٧) القلم / ٥١ ٠

وهكذا جميع سور القرآن ٠

ومن هذه الوجوه : (افتتاح السور بالحروف المقطعة. واختصاص كل واحدة بما بدئت ، حتى لم يكن من الممكن أن توضع (الم) فى موضع (الر) ، ولا (حم) فى موضع (طس) ، وذلك أن كل سورة بدئت بحرف منها ، فان أكثر كلماتهـا وحروفهـا ممـاثل له ، فحق لكل سـورة منها ألا يناسبها غير الواردة فيهـا ، فلو وضـع (ق) موضـع (ن) لعدم التناسب الواجب مراعاته فى كلام الله ، فسورة (ق) بدئت به ، لما تكرر فيها من الكلمات بلفظ (القاف) ، من ذكر القرآن ، والخلق ، وتكرير القول ، ومراجعتـه ، مرارا ، والقرب من ابن آدم ، وتلقى الملكين ، وقول العتيد، والرقيب ، والسائق ، والالقاء فى جهنم ، والتقدم بالوعد ، وذكر المتقين ، والقلب ، والقرون ، والتنقيب فى البـلاد ، وتشقق الأرض ، وحقوق الوعيد ، وغير ذلك ٠

وقد تكرر فى سورة (يونس) من الكلام الواقع فيهـا (الراء) مائتا كلمة ، أو أكثر ، فلهذا افتتحت بـ (الر) ٠

واشتملت سورة (ص) على خصومات متعـددة ، فأولها : خصومة النبى صلى الله عليه وسلم مع الكفـار ، وقولهم : (أجعل الآلهة الها واحدا) (٨) ، ثم اختصـام الخصمين عند داود ، ثم تخاصم أهل النار ، ثم اختصام الملأ الأعلى ، ثم تخاصم ابليس فى شأن آدم ، ثم فى شـأن بنيه واغوائهم ٠

---

(٨) ص / ٥ ٠

و (الم) جمعت المخارج الثلاثة : الحلق ، واللسان ، والشفتين على ترتيبها ، وذلك اشارة الى البداية التى هى بدء الخلق ، والنهاية التى هى بدء الميعاد ، والوسط الذى هو المعاش من التشريع بالأوامر والنواهى ، وكل سورة افتتحت بها ، فهى مشتملة على الأمور الثلاثة ٠

وسورة (الأعراف) زيد فيها (الصاد) على (الم)، لما فيها من شرح القصص ، قصة آدم ، فمن بعده من الأنبياء ، ولما فيها من ذكر (فلا يكن فى صدرك حرج) (٩) ،ولهذا قال بعضهم : معنى (المص) (الم نشرح لك صدرك) (١٠) ٠

وزيد فى سورة (الرعد) راء ، لأجل قوله : (رفع السموات) (١١) ،ولأجل ذكر الرعد ، والبرق ، وغيرهما ٠ (١٢) ٠

ومن هذه الوجوه : مناسبة مطلع السورة للمقصد الذى سيق الكلام لأجله ، والعلم الأسنى فى ذلك سورة الفاتحة التى هى مطلع القرآن ، فانها مشتملة على جميع مقاصده ، ولذلك كان من أسمائها : أم القرآن ، وأم الكتاب ، والأساس (١٣) ، فصارت كالعنوان وبراعة الاستهلال ٠

---

(٩) الأعراف / ٢ ٠
(١٠) الشرح / ١ ٠
(١١) الرعد / ٢ ٠
(١٢) انظر (الاتقان) ج ٣ ص ٣٨٤ ٠
(١٣) انظر (الكشاف) ج ١ ص ٢٣ ٠

قال البيهقى : أخبرنا أبو القاسم بن حبيب ، أنبأنا محمد بن صالح بن هانى ، أنبأنا الحسن بن الفضل ، حدثنا عفان بن مسلم ، عن الربيع بن صبيح ، عن الحسن ، قال : أنزل الله مائة وأربعة كتب ، أودع علومها أربعة منها : التوراة ، والانجيل والزبور ، والفرقان ، ثم أودع علوم القرآن المفصل ، ثم أودع علوم المفصل فاتحة الكتاب، فمن علم تفسيرها ، كان كمن علم تفسير جميع الكتب المنزلة (١٤) ٠

وبيان اشتمالها على علوم القرآن قوره الزمخشرى ، باشتمالها على الثناء على الله بما هو أهله ، وعلى التعبد ، والأمر والنهى ، وعلى الوعد والوعيد ، وآيات القرآن لا تخرج عن هذه الأمور (١٥) ٠

وقرره الامام فخر الدين حيث قال : (المقصود من القرآن كله تقرير أمور أربعة : الالهيات ، والمعاد ، والنبوات ، واثبات القضاء والقدر ، فقوله : (الحمد لله رب العالمين) يدل عل الالهيات ، وقوله (مالك يوم الدين) يدل على نفى الجبر ، وعلى اثبات أن الكل بقضاء الله وقدره ، وقوله : (اهدنا الصراط المستقيم) الى آخر السورة ، يدل على اثبات قضاء الله ، وعلى النبوات ، فقد اشتملت هذه السورة على المطالب الأربعة ، التى هى المقصد الأعظم من القرآن (١٦) ٠

---

(١٤) انظر (شعب الايمان) ج ١٢ ورقة ٨٧ ٠ دار الكتب المصرية ٠

(١٥) انظر (الكشاف) ج ١ ص ٢٣ ٠

(١٦) انظر (مفاتيح الغيب) ج ١ ص ٦٥ ٠

وقرره البيضاوى حيث قال : (هى مشتملة على الحكم النظرية ، والأحكام العملية ، التى هى سلوك الصراط المستقيم ، والاطلاع على مراتب السعداء ومنازل الأشقياء) (١٧) ٠

وقرره الطيبى حيث قال : (هى مشتملة على أربعة أنواع من العلوم التى هى مناط الدين : أحدها : علم الأصول ، ومعاقدة معرفة الله عز وجل وصفاته ، واليها الاشارة بقوله : (رب العالمين الرحمن الرحيم) ، ومعرفة المعاد ، وهو المؤمأ اليه بقوله : (مالك يوم الدين) ٠

وثانيها : علم ما يحصل به الكمال ، وهو الأخلاق ، وأجله الوصول الى الحضرة الصمدانية ، والالتجاء الى جناب الفردانية ، والسلوك لطريقة الاستقامة فيها ، واليه الاشارة بقوله : (أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين) ٠

قال : وجميع القرآن تفصيل لما أجملته الفاتحة ، فانها بنيت على اجمال ما يحويه القرآن مفصلا ، فانها واقعة فى مطلع التنزيل ، والبلاغة فيه : أن تتضمن ما سيق الكلام لأجله ، ولهذا لا ينبغى أن يقيد شيء من كلماتها ما أمكن الحمل على الاطلاق (١٨) ٠

وقرره الغزالى حيث قال : (مقاصد القرآن ستة ، ثلاثة مهمة ، وثلاثة تتمة ٠

---

(١٧) انظر (تفسير البيضاوى) ج ١ ص ٣٥ بحاشية الشهاب الخفاجى ٠

(١٨) انظر (شرح الكشاف) مخطوط بمكتبة الأزهر ج ١ ورقة ٢٦ أ ٠

الأولى : تعريف المدعو اليه ، كما أشير اليه بصدرها، وتعريف الصراط المستقيم ، وقد صرح به فيها ، وتعريف الحال عند الرجوع اليه تعالى ، وهو الآخرة ، كما أشير اليه بقوله : (مالك يوم الدين) ٠

والأخر : تعريف أحوال المطيعين ، كما أشار اليه بقوله: (الذين أنعمت عليهم) ، وتعريف منازل الطريق ، كما أشير اليه بقوله : (اياك نعبد واياك نستعين) (١٩) ٠

فنبه فى الفاتحة على جميع مقاصد القرآن ، وهذا هو الغاية فى براعة الاستهلال ، مع ما اشتملت عليه من الألفاظ الحسنة ، والمقاطع المستحسنة ، وأنواع البلاغة ٠

وكذلك أول سورة (العلق) ، فانها مشتملة على نظير ما اشتملت عليه الفاتحة ، من براعة الاستهلال ، لكونها أول ما أنزل من القرآن ، فان فيها الأمر بالقراءة ، والبداءة فيها باسم الله ، وفيه الاشارة الى علم الأحكام ، وفيها ما يتعلق بتوحيد الرب ، واثبات ذاته وصفاته ، من صفة ذات ، وصفة فعل ٠ وفى هذه الاشارة الى أصول الدين ، وفيها ما يتعلق بالاخبار من قوله : (علم الانسان ما لم يعلم) (٢٠) ، ولهذا قيل : انها جديرة أن تسمى عنوان القرآن ، لأن عنوان الكتاب ، يجمع مقاصده ، بعبارة وجيزة فى أوله (٢١) ٠

وانظر الى سورة النساء ، لقد افتتحت بقوله : (يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها

---

(١٩) انظر (خواص القرآن) ص ٣٧ ٠
(٢٠) العلق / ٥ ٠
(٢١) انظر (الاتقان) ج ٣ ص ٣٦٤ ٠

زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام ان الله كان عليكم رقيبا) (٢٢) ٠

تأمل هذه المناسبة العجيبة فى الافتتاح ، وبراعة الاستهلال ، حيث تضمنت الآية المفتتح بها ما فى أكثر السورة من أحكام : من نكاح النساء ، ومحرماته ، والمواريث المتعلقة بالأرحام ، وأن ابتداء هذا الأمر ، كان بخلق آدم ، ثم خلق زوجة منه ، ثم بث منهما رجالا ونساء فى غاية الكثرة (٢٣) ٠

وتأمل سورة (الحج) وما فيها من المناسبة العجيبة فى الافتتاح ، وبراعة الاستهلال ، لقد تضمنت ذكر البعث، والاحتجاج عليه ، والنعى على منكريه ، فافتتحت بما يلائم ذلك ، ويناسبه ، وهو قوله تعالى : (يأيها الناس اتقوا ربكم ان زلزلة الساعة شيء عظيم) (٢٤) ٠

وتأمل سورة (التوبة) ، وما فيها من براعة الاستهلال التى تسحر الألباب ، لقد افتتحت بقوله : (براءة من الله ورسوله الى الذين عاهدتم من المشركين) (٢٥)، لأن الله تعالى ، لما أراد شهر السيف ، وأذن للرسول فى القتال، وكان بينه وبين ناس من العرب عهود واخلاف ، صدر هذه السورة بذكر البراءة لما أراده من قطع تلك العهود ،

---

(٢٢) النساء / ١ ٠

(٢٣) انظر (الطراز) جـ ٢ ص ٢٦٩ - و (أسرار ترتيب القرآن) ص ٧٦ ، ٧٧ ٠

(٢٤) الحج / ١ ٠

(٢٥) التوبة / ١ ٠

ونبذها ، فافتتاحها مناسب لما يريد ذكره فيها من المباينة وشن الغارات ، وسل السيف (٢٦) ·

وتأمل سورتى الاسراء والكهف) ، وما فى مطلع كل منهما من براعة الاستهلال التى أربت على كل غاية ، وفاقت كل بيان ، لقد افتتحت سورة الاسراء بالتسبيح ، والكهف بالتحميد ، لأن سورة الاسراء لما اشتملت على (الاسراء) الذى كذب المشركون به النبى صلى الله عليه وسلم ، وتكذيبه تكذيب لله تعالى ، أتى بـ (سبحان) لتنزيه الله تعالى عما نسب الى نبيه من الكذب ·

وسورة (الكهف) لما أنزلت بعد سؤال المشركين عن قصة أصحاب الكهف ، وتأخر الوحى ، نزلت مبينة أن الله تعالى ، لم يقطع نعمته عن نبيه ، ولا عن المؤمنين ، بل أتم عليهم النعمة بانزال الكتاب ، فناسب افتتاحها بالحمد على هذه النعمة (٢٧) ·

فافتتاح كل واحدة من السورتين مخالف للأخرى ، لكنه مناسب لما يريد ذكره من كل منهما من الأغراض والمقاصد التى ضمنها فيهما ·

ومن هذه الوجوه : أن الله قد ختم كل سورة من سور القرآن بأحسن ختام ، وأتمها بأعجب اتمام ، ختاما يطابق مقصدها ، ويؤدى معناها ، من أدعية ، ووصيا ، وفرائض ، وتحميد ، وتهليل ، ومواعظ ، ووعد ، ووعيد ، الى غير ذلك

---

(٢٦) انظر (الطراز) جـ ٢ ص ٢٦٩ ، ٢٧٠ ·
(٢٧) انظر (الاتقان) جـ ٣ ص ٣٨٧ ·

من الخواتم الرائقة ، كتفصيل جملة المطلوب فى خاتمة الفاتحة ، اذ المطلوب الأعلى الايمان المحفوظ من المعاصى المسببة لغضب الله والضلال ، ففصل جملة ذلك بقوله : (الذين نعمت عليهم) ، والمراد المؤمنون ، ولذلك أطلق الأنعام ، ولم يقيده ، ليتناول كل أنعام لأن من أنعم الله عليه بنعمة الايمان فقد أنعم عليه بكل نعمة لأنها مستتبعة لجميع النعم ، ثم وصفهم بقوله : (غير المغضوب عليهم ولا الضالين) ، يعنى أنهم جمعوا بين النعمة المطلقة ، وهى نعمة الايمان ، وبين السلامة من غضب الله تعالى ، والضلال المسببين عن معاصيه ، وتعدى حدوده ٠

وكالدعاء الذى اشتملت عليه الآيتان من آخر سورة البقرة ٠ وكالوصايا التى ختمت بها سورة آل عمران ٠

والفرائض التى ختمت بها سورة النساء ٠

وكالتبجيل والتعظيم الذى ختمت به المائدة ٠

وكالوعد والو عيد الذى ختمت به الأنعام ٠

وكالتحريض على العبادة بوصف حال الملائكة الذى ختمت به الأعراف ٠

وكالحض على الجهاد ، وصلة الأرحام الذى ختم به الأنفال ٠

وكوصف الرسول ، ومدحه ، والتهليل الذى ختمت به براءة ٠

وتسليته عليه الصلاة والسلام الذى ختمت به يونس ، ومثلها خاتمة هود ٠ ووصف القرآن ومدحه الذى ختم به يوسف ٠

والرد على كذب الرسول الذى ختم به الرعد ·

فهذه الخواتيم كلها فى كل سورة على نهاية الحسن والرشاقة ·

ومن أوضح ما آذن بالختام خاتمة ابراهيم : (هـذا بلاغ للناس ولينذروا به وليعلموا أنما هو اله واحد وليذكر أولوا الألباب) (٢٨) ·

ومثلها خاتمة الأحقاف : (فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل ولا تستعجل لهم كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا الا ساعة من نهار بلاغ فهل يهلك الا القوم الفاسقون) (٢٩) ·

وكذا خاتمة الحجر : (واعبد ربك حتى يأتيك اليقين) (٣٠) ، وهو مفسر بالموت ، فانها فى غاية البراعة ·

وانظر الى براعة آخر آية نزلت ، وهى قوله : (واتقوا يوما ترجعون فيه الى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون) (٣١) ·

وما فيها من الاشعار بالآخرية المستلزمة للوفاة (٣٢)

وكذلك آخر سورة نزلت ، وهى (سورة النصر) ، فيها الاشعار بالوفاة ، كما أخرج البخارى من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس ، أن عمر سألهم عن قوله :

---

(٢٨) ابراهيم / ٥٢ ·
(٢٩) الأحقاف / ٣٥ ·
(٣٠) الحجر / ٩٩ ·
(٣١) البقرة / ٢٨١ ·
(٣٢) انظر (الاتقان) ج ٣ ص ٣٦٧ ·

(اذا جاء نصر الله والفتح) ، فقالوا : فتح المدائن والقصور ، قال : ما تقول يا ابن عباس ؟ قال : أجل ضرب لمحمد ، نعيت له نفسه ٠

وأخرج أيضا عنه قال : كان عمر يدخلنى مع أشياخ بدر ، فكأن بعضهم وجد فى نفسه ، فقال : لم تدخل هذا معنا ، ولنا أبناء مثله ؟ فقال عمر : انه من قد علمتم ، ثم دعاهم ذات يوم ، فقال : ما تقولون فى قول الله : (اذا جاء نصر الله والفتح) ؟ فقال بعضهم : أمرنا أن نحمد الله ، ونستغفره ، اذا نصرنا ، وفتح علينا ، وسكت بعضهم ، فلم يقل شيئا ، فقال لى : أكذلك تقول يا ابن عباس ؟ فقلت : لا ، قال : فما تقول ؟ قلت : هو أجل رسول الله صلى الله عليه وسلم أعلمه به ، قال : (اذا جاء نصر الله والفتح)، وذلك علامة أجلك ، (فسبح بحمد ربك واستغفره انه كان توابا) ، فقال عمر : انى لا أعلم منها الا ما تقول ٠

ومن هذه الوجوه : مناسبة فاتحة كل سورة لخاتمة ما قبلها ، كافتتاح سورة البقرة بقوله : (الم ٠ ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين) (٣٣) ، فانه اشار الى الصراط المستقيم فى قوله : (اهدنا الصراط المستقيم) (٣٤) ، كأنهم لما سألوا الهداية الى الصراط ، قيل لهم : ذلك الصراط الذى سألتم الهداية اليه ، هو الكتاب ، كما أخرج ابن جرير وغيره من حديث على مرفوعا : (الصراط المستقيم كتاب الله) ٠

وقال الخويى فى تفسيره : أوائل سورة البقرة مناسبة لأواخر سورة الفاتحة ، لأن الله تعالى لما ذكر أن

---

(٣٣) البقرة / ١ ، ٢ ٠
(٣٤) الفاتحة / ٦ ٠

الحامدين طلبوا الهدى ، قال : قد أعطيتكم ما طلبتم : هذا الكتاب هدى لكم فاتبعوه ، وقد اهتديتم الى الصراط المستقيم المطلوب المسئول ٠

ثم انه ذكر فى أوائل هذه السورة الطوائف الثلاث الذين ذكرهم فى الفاتحة : فذكر الذين على هدى من ربهم، وهم المنعم عليهم ٠ والذين اشتروا الضلالة بالهدى ، وهم الضالون : والذين باءوا بغضب من الله ، وهم المغضوب عليهم ٠

وكافتتاح سورة النساء ، فانه فى غاية المناسبة لما ختمت به سورة آل عمران ، فقد افتتحت النساء بالأمر بالتقوى : (واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام ان الله كان عليكم رقيبا) (٣٥) ، وختمت آل عمران بذلك الأمر : (واتقوا الله لعلكم تفلحون) (٣٦) ، وهذا من أكبر وجوه المناسبات ، وهو نوع من البديع يسمى (تشابه الأطراف)٠

وكافتتاح سورة الأنعام فانه فى غاية المناسبة لما ختمت به المائدة ، لأن الأنعام افتتحت بالحمد ، والمائدة ختمت بفصل القضاء ، وهما متلازمان ، كما قال : (وقضى بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين) (٣٧) ، ولأنه لما ذكر فى آخر المائدة : : (لله ملك السموات والأرض وما فيهن وهو على كل شيىء قدير) (٣٨) ، على سبيل الاجمال ، افتتح هذه السورة بشرح ذلك وتفصيله ٠

---

(٣٥) النساء / ١ ٠
(٣٦) آل عمران / ٢٠٠ ٠
(٣٧) الزمر / ٧٥ ٠
(٣٨) المائدة / ١٢٠ ٠

فبدأ بذكر : أنه خلق السموات والأرض ، وضم اليه أنه جعل الظلمات والنور ، وهو بعض ما تضمنه قوله : (وما فيهن) فى آخر المائدة ، وضمن قوله : (الحمد لله) أول الأنعام ، أن له ملك جميع المحامد ، وهو من بسط : (لله ملك السموات والأرض وما فيهن) فى آخر المائدة ·

ثم ذكر : أنه خلق النوع الانسانى ، وقضى له أجلا مسمى ، وجعل له أجلا آخر للبعث ، وأنه منشى قرون ، قرنا بعد قرن ، ثم قال : (لمن ما فى السموات والأرض) (٣٩) ، فأثبت له ملك جميع المنظورات · ثم قال: (وله ما سكن فى الليل والنهار) (٤٠) ، فأثبت له ملك جميع المظروفات لظرفى الزمان · ثم ذكر أنه خلق سائر الحيوان ، من الدواب والطير ، ثم خلق النوم واليقظة ، والموت والحياة ، ثم أكثر فى أثناء السورة من ذكر الخلق والانشاء لما فيهن ، من النيرين ، والنجوم ، وفلق الاصباح، وخلق الحب والنوى ، وانزال الماء ، واخراج النبات ، والثمار بانواعها ، وانشاء جنات معروشات ، وغير معروشات ، والأنعام ، ومنها حمولة وفرش · وكل ذلك تفصيل لملكه فيهن (٤١) ·

وكافتتاح سورة الأعراف ، فانه مناسب لما ختمت به سورة الأنعام ، لأنه لما تقدم فى أواخر سورة الأنعام قوله : (وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ··) (٤٢) وقوله :

---

(٣٩) الأنعام / ١٢ ·
(٤٠) الأنعام / ١٣ ·
(٤١) انظر (أسرار ترتيب القرآن) ص ٩٧ ·
(٤٢) الأنعام / ١٥٣ ·

(وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه ···) (٤٣) ، افتتح سورة الأعراف أيضا باتباع الكتاب فى قوله : (كتاب أنزل اليك فلا يكن فى صدرك حرج منه لتنذر به وذكرى للمؤمنين · اتبعوا ما أنزل اليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء قليلا ماتذكرون) (٤٤) ·

وأيضا لما تقدم فى أواخر الأنعام قوله (ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون) (٤٥) ، وقوله : (ثم الى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون) (٤٦) ، قال فى مفتتح سورة الأعراف : (فلنسألن الذين أرسل اليهم ولنسألن المرسلين · فلنقصن عليهم بعلم وما كنا غائبين) (٤٧) ، وذلك شرح التنبئة المذكورة ·

وأيضا فلما قال فى أواخر سورة الأنعام : (من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ··) (٤٨) وذلك لا يظهر الا فى الميزان ، افتتح سورة الأعراف بذكر الوزن ، فقال : (والوزن يومئذ الحق ··) (٤٩) ، ثم ذكر من ثقلت موازينه ، وهو من زادت حسناته على سيآته ، ثم من خفت موازينه ، وهو من زادت سيآته على حسناته ، ثم ذكر بعد ذلك أصحاب الأعراف ، وهم قوم استوت حسناتهم ، وسيآتهم (٥٠) ·

---

(٤٣) الأنعام / ١٥٥ ·
(٤٤) الأعراف / ٢ ، ٣ ·
(٤٥) الأنعام / ١٥٩
(٤٦) الأنعام / ١٦٤ ·
(٤٧) الأعراف / ٦ ، ٧ ·
(٤٨) الأنعام / ١٦٠ ·
(٤٩) الأعراف / ٨ ·
(٥٠) انظر اسرار ترتيب القرآن) ص ٢٠٢ ·

وكافتتاح سورة الرعد ، فانه فى غاية المناسبة لاختتام سورة يوسف ، لأن سورة يوسف ختمت بوصف الكتاب ، ووصفه بالحق : (ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون) (٥١) ، وسورة الرعد افتتحت بمثل ذلك : (تلك آيات الكتاب والذى أنزل اليك من ربك الحق ولكن أكثر الناس لا يؤمنون) (٥٢) ، ولأنه قال فى آخر سورة يوسف : (وكأين من آية فى السموات والأض يمرون عليها وهم عنها معرضون (٥٣ ·

فذكر الآيات السمائية والأرضية مجملة ، ثم فصل فى مطلع سورة الرعد ، فقوله : (الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجرى الى أجل مسمى يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون · وهو الذى مد الأرض وجعل فيها رواسى وأنهارا ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشى الليل النهار ان فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون · وفى الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل ان فى ذلك لآيات لقوم يعقلون)(٥٤)، تفصيل الآيات الأرضية ·

وكافتتاح سورة الاسراء فانه مناسب لاختتام سورة النحل ، لأنه لما قال فى آخر النحل : (انما جعل السبت

---

(٥١) يوسف / ١١١ ·
(٥٢) الرعد / ١ ·
(٥٣) يوسف ١٠٥ ·
(٥٤) الرعد / ٢ ، ٣ ، ٤ ·

على الذين اختلفوا فيه ٠٠) (٥٥) ، فسر فى سورة الاسراء شريعة أهل السبت ، وشأنهم ، فذكر فيها جميع ما شرع لهم فى التوراة ، كما أخرج ابن جرير عن ابن عباس أنه قال : (التوراة كلها فى خمس عشرة آية من سورة بنى اسرائيل)، وذكر عصيانهم وفسادهم ، وتخريب مسجدهم ، ثم ذكر استفزازهم للنبى صلى الله عليه وسلم ، وارادتهم اخراجه من المدينة ، ثم ذكر سؤالهم اياه عن الروح، ثم ختم السورة بآيات موسى التسع ، وخطابه مع فرعون ، وأخبر أن استفزازهم للنبى صلى الله عليه وسلم ليخرجوه من المدينة هو وأصحابه ، كنظير ما وقع لهم مع فرعون لما استفزهم ، ووقع ذلك أيضا ٠

وكافتتاح سورة الأنبياء فانه فى غاية المناسبة لاختتام سورة طه ، لأنه سبحانه لما قال فى أواخر سورة طه : (قل كل متربص فتربصوا ٠٠) (٥٦) ، وقال قبله : (ولولا كلمة سبقت من ربك لكان لزاما وأجل مسمى) (٥٧)، قال فى مطلع سورة الأنبياء : (اقترب للناس حسابهم ٠٠) (٥٨) اشارة الى قرب الأجل ، ودنو الأمل المنتظر ٠

وفيه أيضا مناسبة لقوله فى سورة طه : (ولا تمدن عينيك الى ما متعنا به أزواجا منهم ٠٠) (٥٩) ، فان قرب الساعة يقتضى الاعراض عن هذه الحياة الدنيا ، لدنوها

---

(٥٥) النحل / ١٢٤ ٠
(٥٦) طه / ١٣٥ ٠
(٥٧) طه / ١٢٩ ٠
(٥٨) الأنبياء / ١ ٠
(٥٩) طه ١٣١ ٠

من الزوال والفناء ، ولهذا ورد فى الحديث : أنها لما نزلت قيل لبعض الصحـــابة : هلا سألت النبى صلى الله عليـه وسلم عنها ؟ فقـــال : (نزلت اليـوم سـورة أذهلتنــا عن الدنيا) ٠

وكافتتاح سورة السجدة فانه شديد الارتباط باختتام سورة لقمان ، لأن سورة السجدة شرحت مفـــاتيح الغيب الخمسة التى ذكرت فى خاتمة لقمان ٠

فقوله فى السجدة : (ثم يعرج اليه فى يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون (٦٠) ٠

شرح لقوله فى سـورة لقمـــان : (ان الله عنـــده علم الساعة) (٦١) ، ولذلك عقب فى سورة السجدة بقـوله : (عالم الغيب والشهادة) (٦٢) ٠

وقوله : (أو لم يروا أنا نسـوق المـــاء الى الأرض الجرز ٠٠) (٦٣) شرح لقوله : (وينزل الغيث) (٦٤) ٠

وقوله : (الـذى أحسن كل شيىء خلقـــه وبدأ خلق الانسان من طين ٠ ثم جعل نسله من سـلالة من ماء مهين ٠ ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصـار

---

(٦٠) السجدة / ٥ ٠
(٦١) لقمان / ٣٤ ٠
(٦٢) السجدة ٦ ٠
(٦٣) السجدة /٢٧ ٠
(٦٤) لقمان / ٣٤ ٠

والأفئدة قليلا ما تشكرون) (٦٥) ، شرح لقوله : (ويعلم ما فى الأرحام) (٦٦) ٠

وقوله : (يدبر الأمر من السماء الى الأرض) (٦٧) و : (لو شئنا لآتينا كل نفس هداها) (٦٨) ٠

شرح لقـــوله : (وما تـــدرى نفس مـــاذا تكسب غـدا) (٦٩) ٠

وقوله : (أئذا ضللنا فى الأرض أئنا لفى خلق جديد بل هم بلقاء ربهم كافرون ٠ قل يتوفاكم ملك الموت الـذى وكل بكم ثم الى ربكم ترجعـــون) (٧٠) ، شرح لقـوله : (وما تدرى نفس بأى أرض تموت) (٧١) ٠

وكافتتاح سورة الزمر فانه فى غاية المناسبة والارتباط باختتام سورة (ص) حيث قال فى آخر (ص) : (ان هو الا ذكر للعالمين) (٧٢) ، وقال فى مطلع (الزمر) : (تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم) (٧٣) ، فكأنه قيل : هـــذا الذكـر تنزيل ٠ وهـــذا تلاؤم شـــديد ، بحيث لو أسقطت البسملة لالتأمت الآيتان كالآية الواحدة ٠

---

(٦٥) السجدة / ٧ ، ٨ ، ٩ ٠
(٦٦) لقمان / ٣٤ ٠
(٦٧) السجدة / ٥ ٠
(٦٨) السجدة / ١٣ ٠
(٦٩) لقمان / ٣٤ ٠
(٧٠) السجدة / ١٠ ، ١١ ٠
(٧١) لقمان / ٣٤ ٠
(٧٢) ص / ٨٧ ٠
(٧٣) الزمر / ١ ٠

وقد ذكر الله تعالى فى آخر (ص) قصة خلق آدم فى قوله : (اذ قال ربك للملائكة انى خالق بشرا من طين) الى قوله : (لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين) (٧٤) ٠

وذكر فى صدر سورة (الزمر) قصة خلق زوجه ، وخلق الناس كلهم منه ، وذكر خلقهم فى بطون أمهاتهم خلقا من بعد خلق ، ثم ذكر أنهم ميتون ، ثم ذكر وفاة النوم واليقظة ، ثم ذكر القيامة ، والحساب ، والجزاء ، والنار ، والجنة ، وقال : (وقضى بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين) (٧٥) ٠

فذكر أحوال الخلق من المبدأ الى الميعاد ، متصلا بخلق آدم المذكور فى السورة التى قبلها ٠

وكافتتاح سورة (التغابن) فانه شديد التلاؤم باختتام سورة (المنافقون) ، لأنه لما وقع فى آخر سورة (المنافقون) : (وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتى أحدكم الموت) (٧٦) ، عقب بسورة (التغابن) ، لأنه قيل فى معناه : ان الانسان يأتى يوم القيامة ، وقد جمع مالا ، ولم يعمل فيه خيرا ، فأخذه وارثه بسهولة ، من غير مشقة فى جمعه ، فأنفقه فى وجوه الخير ، فالجامع محاسب معذب مع تعبه فى جمعه ، والوارث منعم مثاب ، مع سهولة وصوله اليه ٠ وذلك هو التغابن (٧٧) ٠

---

(٧٤) ص / ٧١ ـ ٨٥ ٠
(٧٥) الزمر / ٧٥ ٠
(٧٦) المنافقون / ١٠ ٠
(٧٧) انظر (تفسير الكواش) جـ ٤ ورقة ١١١٢ مخطوط بمكتبة الأزهر ٠

فارتباطه بآخر السورة المذكورة فى غاية الوضوح ، ولهذا قال هنا : (وأنفقوا خيرا لأنفسكم ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون) (٧٨) ·

وأيضا ففى آخر سورة (المنافقون) : (لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله) (٧٩) ·

وفى سورة (التغابن) : (انما أموالكم وأولادكم فتنة) (٨٠) ، وهذه الجملة كالتعليل لتلك الجملة ، ولذا ذكرت على ترتيبها ·

ومن لطائف سورة الكوثر أنها كالمقابلة للتى قبلها ، وهى سورة (الماعون) ، لأن السابقة وصف الله فيها المنافق بأربعة أمور : البخل ، وترك الصلاة ، والرياء فيها ، ومنع الزكاة ، فذكر فيها فى مقابلة البخل : (انا أعطيناك الكوثر) ، أى الخير الكثير ، وفى مقابلة ترك الصلاة : (فصل) أى دم عليها ، وفى مقابلة الرياء : (لربك) أى لرضاه ، لا للناس ، وفى مقابلة منع الماعون : (وانحر) ، وأراد به التصدق بلحوم الأضاحى ، فما أعجب هذه المناسبة ؟ انها فوق مقدور البشر ، ولا يقدر عليها الا خالق الأرض والسموات ·

وهكذا جميع سور القرآن ، اذا تتبعتها وجدت افتتاح كل سورة فى غاية المناسبة لما ختم به السورة قبلها ، وهذا من الاعجاز الفائق ·

---

(٧٨) التغابن / ١٦ ·
(٧٩) المنافقون / ٩ ·
(٨٠) التغابن / ١٥ ·

الفصل الثانى عشر

الجـــدل

ان من يتأمل أساليب الجدل فى القرآن العظيم يتضح له أنها لا تجرى على هذا النظام المنطقى الجاف الذى تذكر فيه المقدمات على نظام خــاص ، تتبعها النتــــائج ، لأن القرآن لم ينزل لهداية طائفة خاصة ، لها ثقافتها الخاصة ، بل نزل لهــداية النـــاس جميعا ، وما به من أدلة يلقى فى النفس الاقتناع ، ويمــلأ القلب باليقين ، ســـواء فى ذلك العامة والخاصة ٠

وقد ذكر العلماء من ألوان الجدل القرآنى (القــول بالموجب) ، قـــال ابن أبى الاصبع المصرى : (وحقيقتــه رد الخصم كلام خصمه من فحوى لفظه) (١) ٠

وقال الخطيب القزوينى (٢) : (هو ضربان : أحدهما : أن تقع صفة فى كلام الغير كناية عن شيىء ، أثبت له حكم ، فتثبت فى كلامك تلك الصفة لغير ذلك الشيىء ، من غـــير تعرض لثبوت ذلك الشيىء ، أو انتفــائه عنه ٠ كقـــوله تعالى : (يقولون لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ولله العــزة ولرســـوله وللمؤمنين ولكن المنــافقين لا يعلمون) (٣) ٠

---

(١) انظر (تحرير التحبير) ص ٥٩٩ ٠
(٢) انظر (الايضاح) ص ٢٧١ ٠
(٣) المنافقون /٨ ٠

فان المنافقين كنـــوا بـ (الأعـز) عن فريقهم ، و بـ (الأذل) عن فـــريق المؤمنين ، وأثبتوا للأعـز اخـــراج المؤمنين من المدينة ، فأثبت الله - تعالى - فى الرد عليهـم صفة (العزة) لغير فريقهم ، وهو الله ورسوله والمؤمنون ، من غير تعرض لثبوت حكم الاخراج للموصـــوفين بصفة العزة ، ولا لنفيه عنهم · فكأنه قيل : صحيح ذلك : ليخرجن الأعز منها الأذل ، لكن هم الأذل المخـــرج ، والله ورســـوله الأعز المخرج ·

والثانى : حمل لفظ وقـــع فى كلام الغـــير على خـــلاف مراده مما يحتمله بذكر متعلقة · كقوله تعالى : (ومنهـــم الذين يؤذون النبى ويقولون هو أذن قل أذن خير لكم) (٤) ·

يريدون أنه صلى الله عليه وسلم ســـماع لكل شيىء ، مصدق لكل قول ، ولكن الآية لم تترك (الأذن) مطلقة ، بل نسبتها الى الخـــير ، ولهذا كان تمـــام الآية (يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين ورحمة للذين آمنو منكم) ، أى أنه يصدق بالله ، ويسلم للمؤمنين ، لا لكم ، لعدم تصديقه اياكم ، ثم هو مع ذلك رحمة للذين أظهروا الايمان منكم ، حيث قبلهم، ولم يكشف حقيقتهم ·

ومنهـــا : (مجـــاراة الخصم) (٥) بتســـليم بعض مقدماته ، للاشارة الى أن هذه المقدمات لا تنتج ما يريد أن يستنتجه ، وذلك كقوله تعـــالى : (قـــالوا ان أنتم الا بشر مثلنـــا تريدون أن تصدونا عمـــا كان يعبـــد آباؤنا فأتونا

---

(٤) التوبة / ٦١ ·

(٥) انظر (الاتقان) ج ٢ ص ١٧٤ ·

بسلطان مبين · قالت لهم رسلهم ان نحن الا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده) (٦) ·

فقولهم : (ان نحن الا بشر مثلكم) فيه اعتراف الرسل بكونهم مقصورين على البشرية ، فكأنهم سلموا انتفاء الرسالة عنهم ، وليس مرادا ، بل هو من مجاراة الخصم ليعثر ، فكأنهم قالوا : ما ادعيتم من كوننا بشرا حق لا ننكره ، ولكن هذا لا ينافى أن يمن الله علينا بالرسالة (٧) ·

وفى هذا اللون من الجدل استدراج للخصم ، واستجلاب لاصغائه ، وربما كان من الممكن بهذه الوسيلة ثنيه عن الانكار ·

ومنها : (الانتقال) (٨) وهو أن ينتقل المستدل الى استدلال غير الذى كان آخذا فيه ، لعدم فهم الخصم وجه الدلالة من الاستدلال الأول · كما فى قوله تعالى : (ألم تر الى الذى حاج ابراهيم فى ربه أن آتاه الله الملك اذ قال ابراهيم ربى الذى يحيى ويميت قال أنا أحيى وأميت قال ابراهيم فان الله يأتى بالشمس من المشرق فات بها من المغرب فبهت الذى كفر والله لا يهدى القوم الظالمين)(٩)·

فان الملك الذى جاد له ابراهيم عليه السلام ، فهم من الاحياء والاماته قدرته على ابقاء من يستحق القتل ،

---

(٦) ابراهيم / ١٠ ، ١١ ·
(٧) انظر (الاتقان) ج ٢ ص ١٧٥ ·
(٨) المرجع السابق ج ٢ ص ١٧٤ ·
(٩) البقرة / ٢٥٨ ·

وحكمه على الحى بالموت ، ولذلك دعا بمن وجب عليه القتل فاعتقه ، ومن لا يجب عليه فقتله ، فعلم الخليل أنه لم يفهم معنى الاحياء والاماته ، فانتقل عليه السلام الى استدلال لا يجد الملك له وجها يتخلص به منه ، فقال : (ان الله يأتى بالشمس من المشرق فات بها من المغرب) ، فانقطع الملك وبهت ، ولم يمكنه أن يقول : أنا الآتى بها من المشرق ، لأن من هو أسن منه يكذبه ·

ومنها : (التسليم) (١٠) وهو أن يفرض المتكلم فرضا محالا اما منفيا أو مشروطا بحروف الامتناع ، ليكون ما ذكره ممتنع الوقوع لامتناع وقوع مشروطه ، ثم يسلم بوقوع ذلك تسليما جدليا ، ويدل على تقدير عدم الفائدة فى وقوعه على تقدير وقوعه ·

كقوله تعالى : (ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من اله اذا لذهب كل اله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض (١١) ·

فالمعنى : ليس مع الله من اله ، ولو سلم أن معه الها لزم من ذلك ذهاب كل اله من الاثنين بما خلق ، وعلو بعضهم على بعض ، فلا يتم فى العالم أمر ، ولا ينفذ حكم ، ولا تنظيم أحواله ، والواقع خلاف ذلك ، ففرض وجود الهين محال ، لما يترتيب عليه من المحال (١٢) ·

ومنها : (الاسجال) (١٣) بأن يثبت على لسان الخصم حقيقة كان ينكرها ، كما فى قوله تعالى : (ونادى

---

(١٠) انظر (تحرير التحبير) ص ٥٨٧ ·
(١١) المؤمنون / ٩١ ·
(١٢) انظر (الاتقان) جـ ٢ ص ١٧٤ ·
(١٣) انظر (الاتقان) جـ ٢ ص ١٧٤ ·

أصحاب الجنة أصحاب النار أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا قالوا نعم فأذن مؤذن بينهم أن لعنة الله على الظالمين) (١٤) ٠

وفى مثل هذا اللون من التسجيل اثارة لوجدان المتشككين والمنكرين ، واثارة الخوف فى أنفسهم ، حين يسمعون اعتراف من على شاكلتهم ، ويدفعهم الخوف الى التأمل ، عساهم يهتدون (١٥) ٠

ومنها : (المناقضة) (١٦) وهى تعليق أمر على مستحيل ، اشارة الى استحالة وقوعه ٠

كقوله تعالى : (ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل فى سم الخياط) (١٧) ٠

ومنها : (المذهب الكلامى) (١٨) وهو احتجاج المتكلم على المعنى المقصود بحجة عقلية تقطع المعاند له فيه على طريقة أرباب الكلام ٠

كقوله تعالى : (وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه قل فلم يعذبكم بذنوبكم) (١٩) ٠

أى أنتم تعذبون ، والبنون لا يعذبون ، فلستم ببنين له (٢٠) ٠ ...

---

(١٤) الأعراف / ٤٤ ٠
(١٥) انظر (من بلاغة القرآن) ص ٣٧٦ ٠
(١٦ انظر (الاتقان) جـ ٢ ص ١٧٤ ٠
(١٧) الأعراف / ٤٠ ٠
(١٨) انظر (تحرير التحبير) ص ١١٩ ٠
(١٩) المائدة / ١٨ ٠
(٢٠) انظر (الايضاح) ص ٢٦٢ ٠

وقوله تعالى : (وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه) (٢١) .

أى والاعادة أهون عليه من البدء ، والأهون من البدء أدخل فى الأمكان من البدء ، فالاعادة أدخل فى الامكان من البدء وهو المطلوب (٢٢) .

ومنها : التقسيم والسبر) (٢٣) ، بأن يقسم ما هو محل الجدل الى منتهي أقسامه ، ويسير كل قسم بأن ينفى عنه ما يريد الخصم اثباته له .

كقوله تعالى يرد على المشركين تجريمهم ذكور الأنعام تارة ، واناثها أخرى :

(كلوا مما رزقكم الله ولا تتبعوا خطوات الشيطان انه لكم عدو مبين . ثمانية أزواج من الضأن اثنين ومن المعز اثنين قل آلذكرين حرم أم الأنثتين أما اشتملت عليه أرحام الانثتين نبئونى بعلم ان كنتم صادقين . ومن الابل إثنين ومن البقر اثنين قل آلذكرين حرم أم الانثين أما اشتملت عليه أرحام الانثيين أم كنتم شهداء اذ وصاكم الله بهذا فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا ليضل الناس بغير علم ان الله لا يهدى القوم الظالمين) (٢٤) .

---

(٢١) الروم / ٩ .

(٢٢) انظر (الايضاح) ص ٢٦٢ .

(٢٣) انظر (الاتقان) جـ ٢ ص ١٧٣ .

(٢٤) الأنعام / ١٤٢ ، ١٤٣ ، ١٤٤ .

رد الله — تعـالى — عليهم تحريمهم بطـريق التقسيم والسبر ، فبين أنه قد خلق من كل زوج ممـا ذكر ، ذكـرا وأنثى ، فما علة تحريم ما حرمتم ؟ لا يخلوا أن يـكون ذلك من جهة الذكورة ، أو الأنوثة ، أو اليهما معا ، أو لا يدرى له من علة ، بأن يكون تعبديا ، أخذ عن الله — تعـالى — ، والأخذ عنه — سبحانه — اما بوحى وارسـال رسول ، أو سماع كلامه ، وتلقى ذلك عنه ، وهو معنى قوله تعالى :

(أم كنتم شـهداء اذ وصـاكم الله بهذا) ، تلك هى وجوه التحريم ، لا تخرج عن واحد منها ، والأول يلزم عليه أن يكون جميع الذكور حراما ، والثانى يلزم عليه أن تكون جميع الاناث حراما ، والثالث يلزم عليه تحريم الصنفين معا ، فبطل ما فعلوه من تحريم بعض فى حالة ، وبعض فى حالة ، لأن العلة على ما ذكر تقتضى اطـلاق التحـريم ، والأخذ عن الله — تعالى — بلا واسطة باطل ، ولم يدعوه ، وبواسطة رسول كذلك ، لأنه لم يأت اليهم رسول قبل النبى صلى الله عليه وسلم ، واذا بطل جميع ذلك ثبت المدعى ، وهو أن ما قالوه افتراء على الله وضلال ٠(٢٥) ٠

ومثل هذا التقسيم والسبر لا يدع مجـالا للشك ، وتستريح النفس الى ما تصل اليه من نتائج عن طريقه ٠

---

(٢٥) انظر (الاتقان) جـ ٢ ص ١٧٣ ، ١٧٤ ٠

خـــاتمة

لقد قمت فى هذا البحث المتواضـــع بدراسة شـــاملة لبعض الألوان البلاغية فى القرآن ٠

ومن خلال هذه الدراسة توصلت الى النتائج الآتية :

١ ـ ان هذه الألوان امتازت فى القرآن بوضوحها وحسن تصويرها وجمال تعبيرها ٠

٢ ـ كما امتازت بايحائها المبدع ، وايجازها المعجز ٠

٣ ـ كذلك امتازت بانتقاء ألفاظها ، وخفتها ، فهى تجرى على الألسنة كأنها السلسال رقة وصفاء ، وعذوبـة وحلاوة ٠

٤ ـ كذلك امتازت بالاتقـان والاحـكام وجودة السـبك وقوة التأثير ٠

٥ ـ ان هذه الألوان فى القرآن قد انطـــوت على أسرار عجيبة ، لاتزال غضة طرية على وجه الدهر ، ماتنال لها غاية ، ولا يوقف لها على نهاية ٠

٦ ـ وهذه الأسرار العجيبة لا يدركها الا أصحاب القلوب السليمة والأذواق الرقيقة التى تدرك ما احتجب من الأسرار خلف الأستار ٠

٧ ـ ان هذه الألوان البلاغية فى القرآن معجزة ، لأنهـــا من جملة نظم القرآن الذى أعجز الانس والجان ٠

يقول العلامة مصطفى صادق الرافعى - رحمه الله -:
(ومن أظهر الفروق بين أنواع البلاغة فى القـرآن ، وبين هذه الأنواع فى كلام البلغاء ، أن نظم القـرآن يقتضى كل ما فيه منها اقتضاء طبيعيا بحيث يبنى هو عليها لأنهـا فى أصل تركيبه ، ولا تبنى هى عليه ، فليست فيها استعارة ولا مجاز ولا كناية ولا شيء من مثل هذا يصبح فى الجواز أو فيما يسـعه الا مكان أن يصلح غـيره فى موضعه اذا تبدلته منه ، فضلا عن أن يفى به ، وفضلا عن أن يربى عليه، ولو أدرت اللغة كلها على هذا الموضع ٠

فكأن البلاغة فيه انما هى وجه من نظم حروفه بخلاف ما أنت واجـد من كلام البلغـاء ، فان بلاغتـه انما تصنع لموضعها ، وتبنى عليه ، فربما وفت وربما أخلفت ، ولو هى رفعت من نظم الكلام ثم نزل غيرها فى مكانها لرأيت النظم نفسه غير مختلف ، بل لـكان عسى أن يصـح ويجـود فى مواضـع كثيرة من كلامهم ، وأن نعرف له بذلك مزية فى توازن حروفه وائتلاف مخارجها وتناسب أصواتها ، ونحو هذا مما هو أصل الفصاحة ، ومما لا تغنى فيه اسـتعارة ولا مجاز ولا كناية ولا غيرها ، لأنه وجه من تأليف الحروف ونسق اللفظ فيها ، وأنواع البلاغة انما هى وجوه التأليف بين معانى الكلمات ٠

فالحرف الواحد من القرآن معجز فى موضعه ، لأنـه يمسك الكلمة التى هو فيها ليمسـك بهـا الآية والآيـات الكثيرة ، وهذا هو السر فى اعجاز جملته اعجازا أبديا ، فهو أمر فوق الطبيعة الانسانية ، وفـوق ما يتسبب اليـه

الانسان اذ هو يشبه الخلق الحى تمام المشابهة ، وما أنزله الا الذى يعلم (السر) فى السموات والأرض) (١) ٠

وانى فى نهـاية هذا البحث أرجـــو من الله أن يوفـق الباحثين فى مجال الدراسات البلاغية للاهتمام بدراســـة الألوان البلاغية فى القرآن لاجتـلاء ما تنطوى عليـــه من الأسرار واللطائف التى تظهر عظمة القرآن واعجازه ٠

والله الكريم أسأل أن يوفقنى لخدمة لغة القرآن العظيم انه سميع مجيب وهو حسبى ونعم الوكيل٠

دكتور
محمود السيد شيخون
أستاذ البلاغة والنقد المساعد
فى كلية الدراسات الاسلامية والعربية
بجامعة الأزهـر بالقـاهرة
والأستاذ المشارك فى قسم الدراسات
العليا بالجامعة الاسلامية
بالمدينة المنـورة

المدينة المنورة فى غرة رجب سنة ١٤٠٤ هـ
٢ من أبريل سنة ١٩٨٤ م

---

(١) انظر اعجاز القرآن والبلاغة النبوية ص ٢١٠ ، ٢١١ ٠

مراجــع البحث

١ ـ القرآن الكريم . (المطبعة الأميرية بالقاهرة سـنة ١٣٥٤ هـ) .

٢ ـ الاتقان فى علوم القـرآن . (ط . الهيئـــة المصرية العامة للكتاب سـنة ١٩٧٥ م . تأليف جـلال الدين السـيوطى المتوفى سـنة ٩١١ هـ . تحقيق محمـــد أبو الفضل ابراهيم .

٣ ـ أسرار ترتيب القرآن . (ط دار الاعتصام بالقاهرة سنة ١٩٧٨ م . تأليف جلال الدين السيوطى المتوفى سنة ٩١١ هـ تحقيق عبد القادر أحمد عطا .

٤ ـ الاشارة الى الايجاز فى بعض أنواع المجاز . (ط . القسطنطينيـة سـنة ١٣١٣ هـ) تأليف عز الـــدين بن عبد السلام المتوفى سنة ٦٦٠ هـ .

٥ ـ اعجاز القرآن . (ط . دار المعارف بالقاهرة سـنة ١٣٧٤ هـ ـ ١٩٥٤ م) .

تأليف العلامة أبى بكر محمد بن الطيب المعــروف بالباقلانى المتوفى سنة ٤٠٣ هـ . تحقيق السيد أحمد صقر .

٦ ـ اعجاز القرآن والبلاغة النبوية . (ط . القـــاهرة سنة ١٣٩٣ هـ ـ ١٩٧٣ م) تأليف مصطفى صـــادق الرافعى .

٧ ـ الاعجاز والايجاز · (المطبعة العمومية بمصر سنة ١٨٩٧ م) · تأليف أبى منصور الثعـــالبى المتوفى سنة ٤٣٠ هـ ·

٨ ـ الأقصى القريب فى علم البيان · (مطبعة السـعادة بالقاهرة سنة ١٣٢٧ هـ) · تأليف أبى عبد الله محمد ابن محمد بن عمر التنوخى ، أحـد أعيـان المـــائة السابعة للهجرة النبوية ·

٩ ـ أمالى ابن الحاجب · (مخطوط بدار الكتب المصرية بالقاهرة رقم ٢٦ نحو) تأليف جمال الدين أبى عمرو عثمان بن أبى بكر بن الحاجب المتوفى سنة ٦٤٠ هـ·

١٠ ـ الانصاف فيما تضمنه الكشـــاف من الاعتزال · (بهامش الكشاف · المطبعة البهية المصرية ســـنة ١٣٤٣ هـ) · تأليف الامـــام ناصر الدين أحمـد بن محمد بن المنير الاسكندرى المالكى ·

١١ ـ أنوار الربيع فى أنواع البديع · (مطبعة النعمــان بالعراق سنة ١٣٨٨ هـ ـ ١٩٦٨ م) · تأليف السيد على صدر الدين بن معصوم المدنى المتوفى ســـنة ١١٢٠ هـ · تحقيق شاكر هادى شكر ·

١٢ ـ الايضاح · (مطبعة محمد على صبيح بالقـــاهرة سنة ١٣٨٥ هـ ـ ١٩٦٦ م) · تأليف جلال الدين أبى عبد الله محمد بن سعد الدين أبى محمد عبد الرحمن القزوينى المتوفى سنة ٧٣٩ هـ ·

١٣ – بديع القرآن . (مطبعة نهضة مصر سنة ١٣٧٧ هـ ١٩٥٧ م) . تأليف العلامة أبى محمد زكى الدين عبد العظيم بن عبد الواحد المصرى المعروف بابن أبى الاصبع المتوفى سنة ٦٥٤ هـ . تحقيق الدكتور حنفى محمد شرف .

١٤ – البرهان فى علوم القرآن . (مطبعة عيسى البابى الحلبى بالقاهرة سنة ١٣٧٧ هـ – ١٩٥٨ م) . تأليف الامام بدر الدين الزركشى المتوفى سنة ٧٩٤هـ تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم .

١٥ – البسيط فى التفسير . (مخطوط بدار الكتب المصرية بالقاهرة رقم ٢٨٢ تفسير) . تأليف على ابن أحمد بن محمد بن على أبى الحسن الواحدى المتوفى سنة ٤٦٨ هـ .

١٦ – البيان والتبيين . (المطبعة التجارية الكبرى سنة ١٣٤٥ هـ – ١٩٢٦ م) . تأليف أبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (المتوفى سنة ٢٥٥ هـ .

١٧ – تاريخ آداب العرب . (الطبعة الرابعة ، مطبعة الاستقامة تأليف مصطفى صادق الرافعى .

١٨ – تأويل مشكل القرآن . (مطبعة الحضارة العربية بالقاهرة سنة ١٣٩٣ هـ – ١٩٧٣ م) تأليف عبد الله ابن مسلم بن قتيبة بن مسلم المروزى المتوفى سنة ٢٧٦ هـ . تحقيق السيد أحمد صقر .

١٩ - تحرير التحبير . (مطابع شركة الاعلانات الشرقية بالقاهرة سنة ١٣٨٣هـ . تأليف العلامة أبى محمد زكى الدين عبد العظيم بن عبد الواحد المصرى المعروف بابن أبى الاصبع المتوفى سنة ٦٥٤ هـ . تحقيق الدكتور حنفى محمد شرف .

٢٠ - التصوير الفنى فى القرآن . (مطابع دار المعارف بالقاهرة سنة ١٩٦٦ م . تأليف سيد قطب .

٢١ - تفسير أبى السعود . (مطبعة السعادة بالقاهرة سنة ١٣٩١ هـ - ١٩٧١ م . تأليف قاضى القضاة أبى السعود بن محمد العمادى الحنفى المتوفى سنة ٩٨٢ هـ .

٢٢ - تفسير البحر المحيط . (الطبعة الثانية ، مطبعة دار الفكر بالقاهرة سنة ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م) . تأليف محمد بن يوسف الشهير بأبى حيان الأندلسى المتوفى سنة ٧٥٤ هـ .

٢٣ - تفسير البيضاوى المعروف بأنوار التنزيل وأسرار التأويل . (الطبعة الثانية ، مطبعة مصطفى البابى الحلبى بالقاهرة سنة ١٣٨٨ هـ - ١٩٦٨ م) . تأليف ناصر الدين أبى الخير عبد الله بن عمر البيضاوى المتوفى سنة ٧٩١ هـ .

٢٤ - تفسير الخازن (لباب التأويل فى معانى التنزيل) وبهامشه تفسير البغوى المعروف بمعالم التنزيل . (مطبعة مصطفى البابى الحلبى سنة ١٣٧٥ هـ - ١٩٥٥ م) . تأليف العلامة علاء الدين بن الحسن

على بن محمد بن ابراهيم بن عمر بن خليل الشيحى البغدادى الشافعى المعروف بالخازن المتوفى سنة ٧٤١ هـ ٠

٢٥ ـ تفسير الطبرى (جامع البيان فى تفسير القرآن)٠ مطبعة دار المعارف بالقاهرة سنة ١٣٧٤ هـ) ٠ تأليف أبى جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الطبرى المتوفى سنة ٣١٠ هـ ٠

٢٦ ـ تفسير القرآن العظيم ٠ (مطبعة مصطفى البابى الحلبى بالقاهرة سنة ١٣٦٧ هـ ـ ١٩٤٨ م ٠ تأليف الامام الجليل اسماعيل بن كثير القرشى الدمشقى المتوفى سنة ٧٧٤ ٠

٢٧ ـ التفسير القرآنى للقرآن ٠ (مطبعة السنة المحمدية بالقاهرة سنة ١٩٧٠ م تأليف عبد الكريم الخطيب ٠

٢٨ ـ تفسير القرطبى (الجامع لأحكام القرآن) ٠ (ط ٠ دار القلم بالقاهرة سنة ١٣٨٦ هـ ـ ١٩٦٦ م الطبعة الثانية) ٠ تأليف أبى عبد الله محمد بن أحمد الأنصارى القرطبى المتوفى سنة ٦٧١ هـ ٠

٢٩ ـ التفسير الكبير (مفاتيح الغيب) ٠ (دار الكتب العلمية ـ طهران) ٠ تأليف الامام فخر الدين محمد ابن عمر ابن الحسين الرازى المتوفى سنة ٦٠٦ هـ ٠

٣٠ ـ تفسير النفسى (مدارك التنزيل وحقائق التأويل)٠ (المطبعة الحسينية المصرية سنة ١٣٤٤ هـ ٠ تأليف أبى البركات عبد الله بن أحمد بن محمود النسفى المتوفى سنة ٧٠١ هـ ٠

٣١ _ الجامع الكبير فى صناعة المنظوم من الكلام والمنثور ٠ (مطبعة المجمع العلمى العراقى سنة ١٣٧٥ هـ _ ١٩٥٦ م) تحقيق الدكتور مصطفى جواد والدكتور جميل سعيد ٠ تأليف ضياء الدين بن الأثير الجزرى المتوفى سنة ٦٣٧ هـ ٠

٣٢ _ جوهر الكنز ٠ (ط ٠ شركة الاسكندرية للطباعة والنشر) ٠ تأليف نجم الدين أحمد بن اسماعيل بن الأثير الحلبى المتوفى سنة ٧٣٧ هـ ٠ تحقيق الدكتور محمد زغلول سلام ٠

٣٣ _ حاشية الدسوقى على مختصر السعد على تلخيص المفتاح ٠ (بهامش شروح التلخيص ٠ ط ٠ القاهرة سنة ١٣١٧ هـ ٠ تأليف العلامة محمد بن أحمد بن عرفة الدسوقى المالكى المتوفى سنة ١٢٣٠ هـ

٣٤ _ حقائق التفسير ٠ (مخطوط بدار الكتب المصرية بالقاهرة) ٠ تأليف أبى عبد الرحمن السلمى ٠

٣٥ _ خزانة الأدب وغاية الأرب ٠ (المطبعة المصرية ببولاق بالقاهرة سنة ١٢٩١ هـ) ٠ تأليف الشيخ تقى الدين أبى بكر على المعروف بابن حجة الحموى المتوفى سنة ٨٣٧ هـ ٠

٣٦ _ الخواطر السوانح فى أسرار الفواتح (مطبعة الرسالة بالقاهرة سنة ١٣٨٠ هـ _ ١٩٦٠ م) ٠ تأليف العلامة أبى محمد زكى الدين عبد العظيم بن عبد الواحد المصرى المعروف بابن أبى الاصبع المتوفى سنة ٦٥٤ هـ ٠

٣٧ ـ الدر المنثور فى التفسير بالمأثور ٠ (ط ٠ دار المعرفة ببيروت) ٠ تاليف جلال الدين السيوطى المتوفى سنة ٩١١ هـ ٠

٣٨ ـ دلائل الاعجاز ٠ (مطبعة المنار سنة ١٣٣١ هـ)٠ تاليف الامام عبد القاهر الجرجانى المتوفى سنة ٤٧١ هـ ٠

٣٩ ـ روح الاجتماع ٠ (المطبعة الرحمانية) ٠ تاليف الدكتور جوستاف لوبون ، وترجمة احمد فتحى زغلول باشا ٠

٤٠ ـ روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى ٠ (ادارة الطباعة المنيرية بمصر) تاليف السيد محمود الألوسى البغدادى المتوفى سنة ١٢٧٠ هـ ٠

٤١ ـ سر الفصاحة ٠ (مطبعة محمد على صبيح بالقاهرة سنة ١٣٨٩ هـ ـ ١٩٦٩ م) ٠ تأليف الأمير أبى محمد عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجى المتوفى سنة ٤٦٦ هـ ٠

٤٢ ـ شرح التلخيص ٠ (مطبعة النيل بالقاهرة سنة ١٣٢٢ هـ ـ ١٩٠٤ م) ٠ تاليف الشيخ عبد الرحمن البرقوقى المتوفى سنة ١٣٦٣ هـ ٠

٤٣ ـ شروح التلخيص ٠ (المطبعة الكبرى الأميرية ببولاق بالقاهرة سنة ١٣١٧ هـ ٠

٤٤ ـ شرح عقود الجمان ٠ (مطبعة عيسى البابى الحلبى بالقاهرة) ٠ تأليف جلال الدين السيوطى المتوفى سنة ٩١١ هـ ٠

٤٥ ـ شرح الكشاف ٠ (مخطوط بمكتبة الأزهر) ٠ تأليف الحسين بن عبد الله بن محمد الطيبى المتوفى سنة ٧٤٢ هـ ٠

٤٦ ـ الصناعتين ٠ (مطبعة محمد على صبيح بمصر)٠ تأليف أبى هلال العسكرى المتوفى سنة ٣٩٥ هـ ٠

٤٧ ـ الطراز ٠ (مطبعة المقتطف بالقاهرة سنة ١٣٢٢ هـ ـ ١٩١٤ م) ٠ تأليف يحيى بن حمزة العلوى المتوفى سنة ٧٤٩ هـ ٠

٤٨ ـ عجائب القرآن ٠ (ط ٠ القاهرة سنة ١٤٠٢ هـ ـ ١٩٨٢ م) ٠ تأليف الامام فخر الدين محمد بن عمر ابن الحسين الرازى المتوفى سنة ٦٠٦ هـ تحقيق عبد القادر أحمد عطا ٠

٤٩ ـ عروس الأفراح فى شرح تلخيص المفتاح٠ (المطبعة الكبرى الأميرية بالقاهرة سنة ١٣١٧ هـ ٠ تأليف العلامة بهاء الدين أحمد بن على بن عبد الكافى السبكى الشافعى المتوفى سنة ٧٧٣ هـ ٠

٥٠ ـ العمدة فى صناعة الشعر ونقده ٠(مطبعة السعادة بالقاهرة سنة ١٣٢٥ هـ ـ ١٩٠٧م) ٠ تأليف أبى على الحسن بن رشيق القيروانى المتوفى سنة ٤٦٣ هـ ٠

٥١ ـ غرائب القرآن ورغائب الفرقان . (مطبعة مصطفى البابى الحلبى بالقاهرة سنة ١٣٨١ هـ ـ ١٩٦٢ م) . تأليف نظام الدين الحسن بن محمد بن الحسين القمى النيسابورى المتوفى سنة ٧٢٨ هـ تحقيق ابراهيم عطوة عوض .

٢ ـ الفوائد فى مشكل القرآن . (المطبعة العصرية بالكويت سنة ١٣٨٧ هـ ـ ١٩٦٧ م) . تأليف الشيخ عز الدين بن عبد السلام المتوفى سنة ٦٦٠ هـ . تحقيق الدكتور سيد رضوان الندوى .

٥٣ ـ فى ظلال القرآن . (ط . دار الشروق ببيروت سنة ١٣٩٣ هـ ـ ١٩٧٣ م) . تأليف سيد قطب .

٥٤ ـ القاموس المحيط . (مطبعة مصطفى الحلبى بالقاهرة سنة ١٣٧١ هـ) . تأليف مجد الدين محمد ابن يعقوب الفيروزى آبادى المتوفى سنة ٨١٧ هـ .

٥٥ ـ الكامل . (المطبعة الأزهرية بالقاهرة) تأليف أبى العباس محمد بن يزيد المبرد المتوفى سنة ٢٨٥هـ

٥٦ ـ الكتاب . (المطبعة الكبرى الأميرية بالقاهرة سنة ١٣١٦ هـ) . تأليف العلامة أبى بشر عمرو بن عثمان الملقب بسيبويه المتوفى سنة ١٨٠ هـ .

٥٧ ـ كتاب الفوائد المشوق الى علوم القرآن وعلم البيان . (مطبعة السعادة بالقاهرة سنة ١٣٢٧ هـ .

تأليف شمس الدين محمد بن أبى بكر بن أيوب المعروف بابن قيم الجوزية الحنبلى المتوفى سنة ٧٥١ هـ ٠

٥٨ ـ الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل ٠ (المطبعة البهية المصرية ١٣٤٣ هـ ٠ تأليف محمود بن عمر الزمخشرى المتوفى سنة ٥٣٨ هـ ٠

٥٩ ـ لسان العرب ٠ (ط ٠ القاهرة سنة ١٣٠٧ هـ) ٠

تأليف العلامة أبى الفضل جمال الدين بن منظور الأفريقى المصرى المتوفى سنة ٧١١ هـ ٠

٦٠ ـ المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر ٠ (مطبعة الرسالة بالقاهرة سنة ١٣٨١ هـ ـ ١٩٦٢ م ٠

تأليف العلامة نصر الدين بن محمد بن الأثير المتوفى سنة ٦٣٧ هـ ٠

٦١ ـ مجاز القرآن ٠ (مطبعة الخانجى بالقاهرة سنة ١٣٧٤ هـ ـ ١٩٥٤ م) ٠ تأليف أبى عبيدة معمر بن المثنى التيمى المتوفى سنة ٢١٠ هـ ٠

٦٢ ـ مختار الصحاح ٠ (مطبعة عيسى البابى الحلبى بالقاهرة) ٠ تأليف الامام محمد بن أبى بكر بن عبد القادر الرازى ٠

٦٣ ـ المطول على التلخيص ٠ (ط ٠ القاهرة سنة ١٣٣٠ هـ) ٠ تأليف العلامة سعد الدين التفتازانى المتوفى سنة ٧٩٣ هـ)

٦٤ ـ مفتاح العلوم ٠ (المطبعة الأدبية بالقاهرة سـنة ١٣١٧ هـ) ٠ تأليف الامام أبى يعقوب السـكاكى المتوفى سنة ٦٢٦ هـ ٠

٦٥ ـ من بلاغة القرآن ٠ (مطبعة نهضة مصر سـنة ١٣٧٠ هـ ـ ١٩٥٠ م) ٠ تأليف الدكتور أحمد أحمد بدوى ٠

٦٦ ـ منهاج البلغاء وسراج الأدباء ٠ (المطبعة الرسـمية للجمهـورية التونسـية سـنة ١٩٦٦ م ٠ تأليف أبى الحسن حازم القرطاجنى المتوفى سنة ٦٨٤ هـ ٠

٦٧ ـ مواهب الفتاح فى شرح تلخيص المفتاح ٠ (ضمن شروح التلخيص) ٠ (المطبعة الـكبرى الأميرية بالقاهرة سنة ١٣١٧ هـ ٠ تأليف أبى العباس أحمد بن محمد بن يعقوب الولائى المغربى المتوفى سـنة ١١٢٨ هـ ٠

٦٨ ـ النبأ العظيم ٠ دار القلم بالكويت الطبعة الثانيـة سنة ١٣٩٠ هـ ـ ١٩٧٠ م) ٠ تأليف الدكتور محمد محمد عبد الله دراز ٠

٦٩ ـ نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور ٠ (مخطـوط بمكتبة الأزهر) ٠ تأليف ابراهيم بن عمر برهـان الدين البقاعى المتوفى سنة ٨٨٥ هـ ٠

٧٠ ـ النظم الفنى فى القرآن ٠ (المطبعة النموذجية) ٠ تأليف الأستاذ عبد المتعال الصعيدى ٠

٧١ ـ نهاية الايجاز فى دراية الاعجاز • (مطبعة الآداب والمؤيد بالقاهرة سنة ١٣١٧ هـ) • تأليف الامـــام فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين الرازى المتوفى سنة ٦٠٦ هـ •

٧٢ ـ يتيمة الدهر • (مطبعة الصاوى بالقـاهرة سـنة ١٣٥٢ هـ ـ ١٩٣٤ م) • تأليف أبى منصور الثعالبى المتوفى سنة ٤٣٠ هـ •

٧٣ ـ الينبـوع فى التفســير • (مخطـوط بدار الكتب المصرية بالقاهرة ٣١ تفسير) • تأليف أبى عبد الله بن ظفر الصقلى •

فهرس الموضوعات

رقم الايداع بدار الـكتب ٨٤/٢٢٤٤

القاهرة الحديثة للطباعة